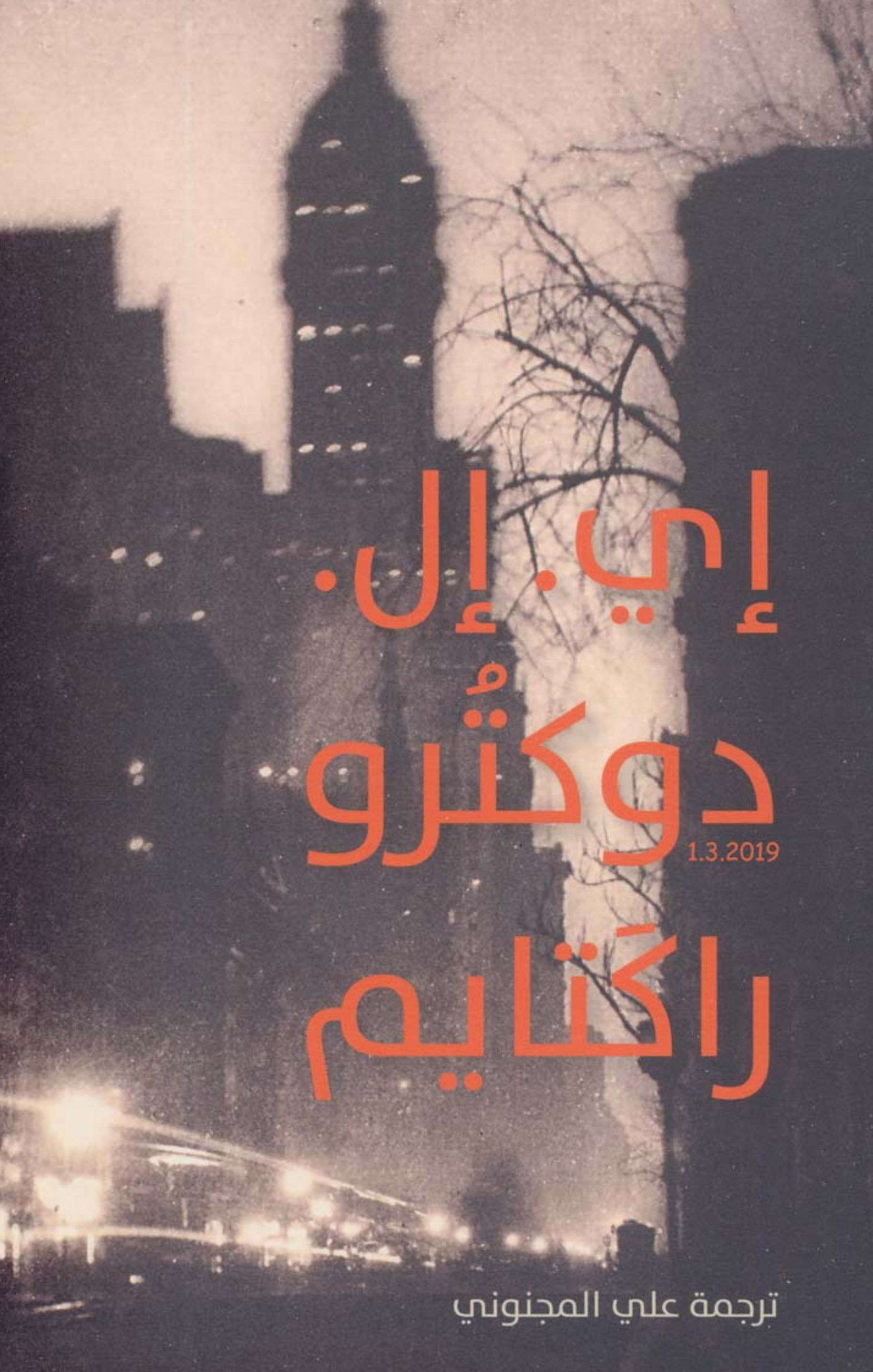

إي. إل. دوكتُرو

1.3.2019

راكتايم

ترجمة علي المجنوني

لن تدعني هذه الدّولة أتنفّس

إي إل دوكتُرو

راكَتايم

ترجمة علي المجنوني

راكَتايم

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

رگتايم

تأليف: إي إل دوكترُو

ترجمة: علي المجنوني

تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-24-169-0

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)

الطبعة الأولى 2019

القصباء - مبنى D

هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+

ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

info@rewayat.ae

www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2019

محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام / المرجع: MC-02-01-6217784

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

RAGTIME

Copyright © E.L. Doctorow, 1974, 1975

KALIMAT GROUP ▪ مجموعة كلمات

يشكر المؤلّف مؤسسة جون سايمن غوغنهايم
التذكارية، وبرنامج كرييتف آرتيستس سيرفيسِس،
لضمّهما الكاتب إلى برامج الزمالة التي يقدّمانها،
فقد أنجز خلالها هذه الرواية.

خريطة شخصيّات الرواية

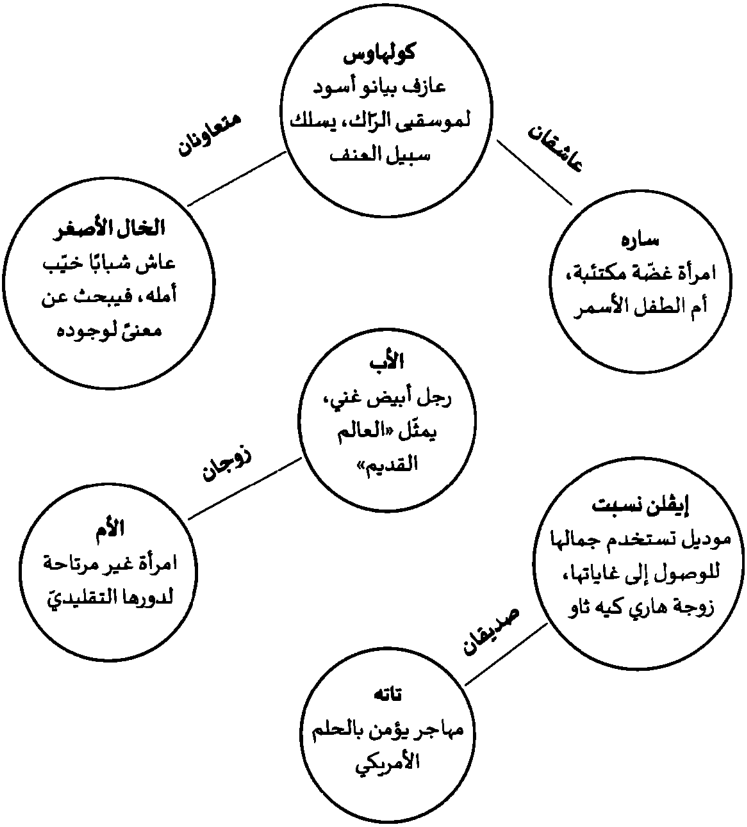

الإهداء

بكلّ الاحترام

إلى روز دوكتُرو بَك

«لا تُسرِعْ في عزفِ هذه المقطوعة،
فليس من الصواب أبدًا عزفُ الراكَتايم بسرعة...»

سكات جوبلن

I

. 1 .

خلال عام 1902 ابتنى **الأبُ** منزلًا على قمّة ربوة جادّة برودڤيو في مدينة نيو روتشيل من ولاية نيويورك. كان منزلا تكسو طوابقَه الثلاثة ألواحٌ بُنيّة وله نوافذ ناتئة من سقفه المائل وأخرى مضلّعة، وشُرفة ذات جدران زجاجيّة. تظلّل نوافذَ المنزل سقائفُ مقلّمة. انتقلت العائلةُ إلى هذا القصر الشامخ في يومٍ مشمسٍ من شهر يونيو وبدا أن كلّ أيامها ستضحي دافئة وصافية مُذّاك فصاعدًا، لسنوات. كان يجيءُ الجزء الأكبر من دخْل الأب من صناعة الأعلام والرايات والتجهيزات الوطنية الأخرى، بما فيها الألعاب النارية. **الوطنيّة** هي العاطفة المسيطرة في **مطلع العقد الأول من القرن العشرين**، وكان الرئيسُ الأمريكيّ حينها تيدي روزڤلت[1]. اعتاد السكّان على **التجمّع** في أعداد كبيرة، إمّا في الهواء الطلق من أجل بدء مسيراتٍ وحفلاتٍ عامّة، وفُسحات السمك المقلي، والنزهات السياسية واللقاءات الاجتماعية، وإما في الداخل في قاعات الاجتماعات ومسارح المسرحيات الهزلية

(1) فرانكلين ديلانو روزفلت (30 يناير 1882 - 12 أبريل 1945) هو رجل دولة وزعيم سياسي أمريكي شغل منصب الرئيس الثاني والثلاثين للولايات المتحدة منذ عام 1933 حتى وفاته عام 1945. المترجم.

وصالات الأوبرا وقاعات الرّقص. لم تُقمْ **تسلية** إلا واجتذبت أعدادًا كبيرة من البشر. نقلتهم القطاراتُ والقواربُ البخاريّة والعرباتُ من مكان إلى آخر. هكذا كان نمط الناس في التنقّل، هكذا كانت طريقتهم في قضاء الوقت. كانت النساء بديناتٍ آنذاك. يزُرْنَ الأسطول حاملاتٍ مظلّاتٍ بيضاء. في الصيف يرتدي الجميعُ الأبيض. كانت مضاربُ التنس ضخمة وبيضاوية الشّكل. ويعيش الناس كثيرًا من نوبات الإغماء في ذروة الجنس. لم يكن هنالك زنوج ولا مهاجرون. في مساء يوم أحد، صعد الأب و**الأم** بعد العشاء إلى الأعلى وأطبقا خلفهما بابَ غرفة النوم. نام **الجد** على الأريكة في الرّدهة. جلس **الصبي** المرتدي قميصَ الملاحةِ في الشرفة الزجاجية وأخذ يهشّ الذباب. أسفل الربوة، استقلّ **الخال الأصغر** عربةَ التّرام متجها إلى المحطة الأخيرة، مرتديا بدلة كتانية بيضاء وطاقية خوص. كان شابّا وحيدا وانطوائيا بشارب أشقر، وكان الناس يعتقدون أنه يواجه صعوبة في العثور على ذاته. عند المحطة الأخيرة ميدانٌ خالٍ تملؤه حشائشُ الأهوار الطويلة. كان الهواء مالحا. طوى الخال الأصغر بنطالَه إلى أعلى ومشى حافي القدمين في الهَوْرِ المالح. جفلت طيورُ البحر فارتفعت محلّقة. **في ذلك الوقت من تاريخنا** كان ونسلو هومر[2] ينجز لوحتَه الزيتيّة. وقتها لم يزل الضوءُ يسطع على امتداد الساحل الشرقي. رسم هومر ذاك الضوء الذي صبغ البحر بصبغة تهديد ثقيل وبليد يسطع ببرود على صخور ساحل نيو إنغلاند ومياهه الضحلة. كانت هناك حوادث غرق غامضة وحالات إنقاذ شجاعة بحبال القَطْر. كانت تحدث أمور غريبة داخل الفنارات وفي الأكواخ المختبئة بين

---

(2) وينسلو هومر (24 فبراير 1836م - 29 سبتمبر 1910م) رسام أمريكي، بدأ حياته الفنية 1862م. بعد اندلاع الحرب الأهلية الأمريكية توجه لرسم مشاهد الحرب. م.

شجيرات برقوق الشاطئ البرّي. يكاد الناس، في أمريكا كلها، لا يميزون بين الجنس والموت. ماتت النساء الهاربات في تلويّات النّشوة. كانت الحكايات تغيب طيّ الكتمان، والعائلات الغنية تشتري صمت الصحفيين. لابدّ للفرد أن يقرأ ما بين السطور في الصحف والمجلات. في مدينة نيويورك عجّت الصحفُ بأخبار إطلاق النار على المهندس المعماري الشهير ستانفورد وايت على يد هاري كيه ثاو، نجلٍ غريبِ الأطوار لأسرةٍ جمعت ثروتها من فحم الكوك والسكك الحديدية. كان هاري كيه ثاو متزوجا من **إيڤلن نسبت**، الحسناء المشهورة التي كانت في يوم من الأيام خليلةً لستانفورد وايت. حدث إطلاق النار في جُنينة السقف، في حديقة ماديسن سكوير الواقعة على الشارع السادس والعشرين، في مبنى مذهل من الطوب الأصفر يحتلّ مربّعًا كاملا كان وايت قد صمّمه بنفسه على الطراز الإشبيلي. كانت الليلة الافتتاحية لمسرحية راقصة ساخرة بعنوان «الآنسة شامبين»، وبينما كانت الجوقة تغني وترقص سحب مسدّسَه غريبُ الأطوار ذاك، والذي ارتدى في تلك الليلة الصيفية طاقيةَ خوصٍ ومعطفا أسود ثقيلا، وأطلق على رأس المهندس المعماري الشهير ثلاثَ رصاصات. حدث ذلك في السّطح، وانطلقت صيحات ذعر. أُغمي على إيڤلن. كانت مُوديلًا رَسَمَها في لوحاته وهي في سن الخامسة عشر فنانٌ ذائعُ الصيت. ملابسها الداخلية بيضاء. اعتاد زوجُها أن يضربها بالسوط. وقد صادف أن التقت مرةً بالثوريّة إيما غولدمن، فساطتها غولدمن بلسانها. كان هنالك على ما يبدو زنوج. وثمّة مهاجرون. ورغم أن الصحف أطلقت على الحادثة جريمة القرن، فإن غولدمن تعلم أن القرن لم تنصرم منه سوى ستّ سنوات، وبقيت أربع وتسعون سنة.

وقع الخال الأصغر في غرام إيفلن نسبت. أخذ يتابع باهتمامٍ شديدٍ الفضيحةَ المرتبطةَ باسمها وبدأ يعتقد أن موت عشيقها ستانفورد وايت وسجن زوجها هاري كيه ثاو تركاها في حاجةٍ إلى عناية شاب أنيق من الطبقة الوسطى لا يملك مالا. ظل يفكر فيها طوال الوقت. كان يودّ الحصول عليها بشدة. علّق على جدار غرفته رسمةً من جريدةٍ رسمها تشارلز دانا غبسون بعنوان «السؤال الأبدي». أظهرت الرسمةُ صورةً جانبيةً لإيفلن بشعر غزير انفلتت منه خصلة كثيفة وتدلّت على هيئة علامة استفهام. زيّنتْ عينَها المخفوضةَ عقصةُ شعرٍ ظلّلت حاجبها. كانت ترفع أنفها برقة وتمدّ شفتها السّفلى قليلا. تميل بعنقها الطويل مثل طائرٍ تأهّبَ للطيران. إن تسبُّب إيفلن في موتِ رجلٍ ودمار حياةَ آخر، استنتج منه أنه لا شيء في الحياة يستحق الامتلاك، يستحق الرغبة، سوى عناق ذراعيها النّحيلتين.

كان المساء سديمًا أزرق. نزّ ماءُ المدّ في آثار قدميه. انحنى فوجد عيّنة مثاليّة لصَدَفة، نوعا غير مألوف في لسان لونغ آيلاند الغربي البحريّ. كانت صدفة حلزونية ورديّة كهرمانيّة على شكل كُشتِبان. ما فعله تحت الشمس الضبابية، بينما الملح يجف على كاحليه، هو أن أمال رأسه إلى الوراء وشرب القذْرَ الضئيل من ماء البحر الموجود في الصدفة. دارت النوارس فوق رأسه صائحاتٍ مثل مزامير، وخلفه في الطرف الأرضي من الهَوْر، بعيدا عن النظر خلف الحشائش الطويلة، قرع الجرس البعيد لعربة التّرام في جادة نورث.

في المدينة انزعج الصبي المرتدي قميص الملاحة فجأةً فجعل يقيس طول الشرفة. وطِئ بإصبع قدمه قاعدةَ الكرسيّ الهزّاز ذي الظهر القصبي. لقد بلغ سنَّ المعرفة والحكمة ذاك الذي لا يتوقعه

البالغون من صبيّ مثله، وبالتالي لا يلاحظه أحد. كان يقرأ الصحف يوميًّا، وهو يتابع حاليًّا الخلافَ الدائرَ بين لاعبي البيسبول المحترفين وعالِمٍ زعم أن رميةَ الكرة المقوّسة محضُ وهمٍ بصريّ. شعر أن ظروف حياة عائلته حالت دون حاجته إلى رؤية الأشياء وزيارة الأماكن. على سبيل المثال، نما لديه اهتمام هائل بأعمال فنّان الافتكاك هاري هوديني ووظيفته. لكنه لم يؤخذ لمشاهدة عرضٍ من عروضه. كان هوديني النجمَ الألمعَ في أبرزِ دوائر المسرحيات الهزلية. جمهوره من الفقراء، الحمّالين والباعة الجائلين ورجال الشرطة والأطفال. بدت حياته غريبة. طاف العالم موافقا على كل أنواع القيود والافتكاك. أُوثق إلى كرسيّ بحبل، فافتكّ نفسه. قُيّدت يداه، وكبّلت رجلاه بالأصفاد، وربط في سترة مضيّقة يقفل كُمّاها ببعض، ووُضع في خزانةٍ مُوصَدة. لكنه افتكّ نفسه من ذاك كلّه. افتكّ نفسه من خَزْنات الأموال في البنوك، ومن البراميل المطبقة بالمسامير، ومن حقائب البريد المخيطة. افتكّ نفسه من صندوق بيانو مبطّن بالزنك ومن كرة قدم عملاقة ومن مِرْجَلٍ حديدي مطلي بالزنك ومن منضدة ثقيلة ومن جلد النقانق. حيّرت حالاتُ افتكاكه لنفسه الجمهورَ لأنه لم يكن يُتلف الشيءَ الذي يفتك نفسه منه، ولم يبدُ أنه يفتحه. يسحب السّتار فيقف هناك أشعثَ لكنه منتصرا إلى جوار الحاوية السّليمة التي يفترض أنها كانت تحويه داخلها. يلوح للجمهور. لقد افتك نفسه من سطلِ حليبٍ محكم الإغلاق ومعبأ بالماء. افتك نفسه من صليب تعذيب صينيّ. من سجن في هامبورغ. من سفينة سجن إنكليزية. من حبسٍ في بوسطن. رُبط بالسلاسل إلى عجلات سيارات ونواعير مياه ومدافع، فافتكّ نفسه أيضا. غطس من جسر

وهو مقيد بالأغلال في أنهار المسيسيبي والسّين والمرزي، ثم ظهر إلى السطح ملوّحا. تدلى مقلوبا في سترة مضيّقة من رافعات وطائرات ثنائية السّطح وقمم مباني. رُمي في المحيط مرتديا بدلة غوص مقفلة ثقيلة الوزن من دون أن يكون مزودا بالهواء، فافتك نفسه. دُفن حيّا في قبر ولم يستطع الخروج فأُنقذ. نُبش القبر بسرعة. قال لاهثا: **الأرض ثقيلة جدًّا**. كانت أظافره تنزف دما. سقط الثرى من عينيه. جف لونه ولم يقوَ على النهوض. تقيأ مُساعده. أخذ هوديني يتنفس بصفير ويسعل. سعل دما. غُسِل ثم أعيد إلى الفندق. اليوم، بعد خمسين سنة تقريبا من موته، لم يتوقف جمهور عروض الافتكاك عن الازدياد.

وقف الصبيّ في نهاية الشّرفة، وثبّت نظره على ذبابةٍ زرقاءَ تقطع زجاج الشرفة بطريقة جعلتها تبدو وكأنها تصعد الرّبوةَ من جادة نورث. طارت الذبابة. كانت سيارة تصعد الربوةَ بدلا منها. لما دنتْ رأى أنها سيارةٌ سوداء من طراز بوب توليدو راناباوت بقوة 45 حصانا. اجتاز الشرفة راكضا ووقف على رأس الدّرج. تجاوزت السيارةُ منزله محدثة ضوضاء عالية وهي تنحرف مصطدمةً بعمود الهاتف. ركض الصبي إلى الداخل ونادى أمه وأباه في الأعلى. استيقظ الجدُّ مفجوعا. عاد الصبي إلى الشرفة، وجد السائق والراكب يقفان في الشارع ينظران إلى السيارة: عجلاتها كبيرة بإطاراتٍ هوائيةٍ وقضبانٍ خشبيةٍ صُبغت بطلاء أسود. مصابيحها الأمامية نحاسيّة أمام مبرّد المحرك، ومصابيحها الجانبية نحاسية أيضًا على الرفارف. منجَّدة تنجيدا معقودا ولها مداخل من الجانبين. لم يبدُ أنْ لحق بها ضرر. يرتدي السائق كساءً من الوبر. أطبق غطاءَ المحرك فانطلق نبعٌ مهسهسٌ

من البخار الأبيض.

نظر عددٌ من الناس من باحاتِ منازلهم الأمامية إلى ما يحدث. لكن الأب نزل إلى الرصيف وهو يضبط السلسلة على سترته كي يرى ما إذا كان هناك ما يستطيع يفعله. هاري هوديني هو مالك السيارة، فنّان الافتكاك الشهير. كان يقضي يومه يقود سيارته في وست تشستر، يفكر في شراء أرض. دُعي إلى المنزل ريثما يبرد محرّك السيارة. فاجأهم بسلوكه المتواضع الفاتر. بدا مُحبَطًا. جلب نجاحُه إلى المسرح الهزلي جملةً من المنافسين. والنتيجة أنه بات عليه أن يفكّر كل مرة في الإتيان بأوضاعِ افتكاكٍ أكثر خطورة. بدا قصير القامة قوي البنية، رياضيا على ما يبدو، بيدين قويتين وعضلاتِ ظهر وذراعين تشير إلى نفسها من خلال قَصّة بدلته الصوفية المتجعدة التي ارتداها هذا اليوم بشكل غير مناسب رغم أنها مفصَّلة بشكل جيّد. اقتربت درجة الحرارة في الترمومتر من تسعين درجة. لهوديني شعر جامح خشن مفروق من المنتصف وعينان زرقاوان صافيتان لم تتوقفا عن الحركة. عامل الأمَّ والأبَ باحترام، لكن عازته الثقة بالنفس حين تحدث عن مهنته. صدمهم هذا الشيء. حدق الصبي إليه. طلبت الأم عصير الليمون فجيء به إلى الردهة وشربه هوديني بامتنان. برّدَت الغرفة الظُّلل الموضوعة على النوافذ. النوافذ نفسها أغلقَت لصدّ الحرارة. أراد هوديني أن يفكّ ياقته. شعر أنه مسجون بين مربعات الأثاث القوية والستائر والسجاجيد الغامقة والمساند الحريرية الشرقية وأغطية المصابيح الزجاجية الخضراء. هناك كرسي استرخاء بسجادة من جلد حمار وحشي لاحظ الأبُ أن هوديني ينظر إليه، فذكر أنه صاد الحمار الوحشي في رحلة صيد في إفريقيا. للأب صِيت ذائع كمُستكشف هاوٍ،

وقد كان رئيسا سابقا لنادي مستكشفي نيويورك الذي لم يكف عن الإنفاق عليه سنويا. في الحقيقة سيغادر بعد بضعة أيام ليحمل راية النادي في رحلة بيري الثالثة إلى القطب الشمالي. قال هوديني: تعني أنك ذاهب مع بيري إلى القطب الشمالي؟ رد الأب: بمشيئة الله. جلس في كرسيه وأشعل سيغارا. أصبح هوديني فصيحا. ذرع الرّدهةَ جيئة وذهابا. تحدث عن رحلاته وجولاته في أوروبا. قال: لكن القطب الشمالي! يا له من أمر رائع. لا بُدّ أنّك جيّد جدًّا لأن تُختار للرحلة. قال وهو ينقل عينيه الزرقاوين إلى الأم، وهي امرأة شقراء طويلة: كما أن إبقاء نيران المنزل مشتعلةً ليس أمرًا في غاية السهولة. لم يكن مظهره يعدم الجاذبية تمامًا. ابتسم فخفضت الأم عينيها. ثم قضى هوديني بضع دقائق يؤدي للصبي بعض الخدع الماهرة الصغيرة مستخدما ما تسنّى له من الأشياء. عندما استأذن للانصراف شيّعته العائلةُ بأكملها إلى الباب. صافحه الأب والجد. اجتاز هوديني الممرَّ ماشيا من تحت شجرة القيقب الضخمة ثم نزل الدرجات الحجرية المؤدية إلى الشارع. كان السائق في انتظاره، والسيارة موقفة بشكل صحيح. صعد هوديني المقعد المجاور للسائق ولوح بيده. وقف الناس ينظرون إليه من باحاتهم. تبع الصبيُّ الساحرَ إلى الشارع ووقف عند مقدمة سيارة البوب توليدو محدقا في صورته المشوّهة متضخمة الرأس في الإطار النحاسي اللامع للمصباح الأمامي. فكّر هوديني أن الصبي وسيم، جميل مثل أمه، وأشقر الشعر، سوى أنه ناعم الملامح بعض الشيء. اتّكأ جانبيًّا على الباب، وقال مادًّا يده: مع السلامة يا غلام. قال الصبي: **حَذّر الدوق!** ثم انصرف راكضا.

. 2 .

هكذا إذن، قاطعت زيارةُ هوديني الفجائية جِماعَ الأم والأب. لم تكن هناك إشارة من جانب الأم إلى أن الوقت بات مناسبًا لاستئنافه. انصرفت إلى حديقتها. انتظر الأب، مع مرور الأيام وأُزوف موعد مغادرته، الإشارةَ الصّامتةَ التي تسمح له بزيارة سريرها. علم أنه إنْ فاتَحها من جانبه فإن ذلك يعني تهديدَ المناسبة. كان رجلا شديد البنية بغرائز قوية، لكنه يتفهم تمنُّعَ زوجته في تقبّل الوضعيات غير المحتشمة التي تُشبع احتياجاته. في تلك الأثناء تهيّأ كاملُ الأهلِ لمغادرته. لا بد من تجهيز متاعه والقيام بترتيبات غيابه عن أشغاله والاعتناء بألفِ تفصيلٍ آخر. رفعت الأم قَفا معصمها إلى جبهتها ونحّت ضفيرةَ شعر. ما من أحد في العائلة غفلَ عن الأخطار التي سيتعرض لها الأب. ومع ذلك لم يُرِدْ له أحدٌ أن يتخلف عن الرحلة بسبب تلك الأخطار، فزواجهما يزدهر أثناء غيابات الأب المطوّلة. على عشاء الليلة التي سبقت مغادرته، مسّ طرفُ كمّ الأم ملعقةً فأزاحتها عن الطاولة. احمرّ وجهها. عندما هجع كلّ مَن في البيت أتى إلى غرفتها في الظلام. تصرّف برصانة وملاطفة كما تقتضي المناسبة. أغلقت الأم

عينيها ووضعت يديها فوق أذنيها. سقط عَرَقُ ذقنِ الأب على نهديها. جفلت. شرعت تفكر: مع ذلك أعرف أن هذه هي السنوات السعيدة. وليس أمامنا سوى المصائب العظام.

في الصباح التالي ذهب الجميع إلى محطة قطار نيو روتشيل لتشييع الأب. بعض موظفي المكتب تواجدوا هناك، وألقى كبير مُساعدي الأب كلمةً قصيرة ثار على وقعها ضجيج وارتفع تصفيق. وصل قطار نيويورك المكوّن من خمس عربات خضراء غامقة ملمعة يجرها قطار من نوع بولدوين 4-4-صفر بعجلات شاحنة. حدّق الطفل بينما تفقّد المسّاحُ مكابسَ الحركة النحاسية حاملا مِزيَتَه. شعر بيدٍ تلمس كتفه والتفت، فأخذ أبوه المبتسم يده وصافحه. مُنع الجد من رفع الحقائب. رفع الأب والخال الأصغر الحقائب بمساعدة الحمّال إلى متن القطار. صافح الأبُ يد الرجل الشاب. منحه مؤخّرًا علاوةً ومنصبًا أكبر مسؤولية في الشركة. قال الأب: راقب سيرَ الأمور. هزّ الشابُّ رأسه. تبسّمت الأم. عانقت بلطفٍ زوجَها الذي قبّل خدّها. رفع الأب قبعته وهو واقف على رصيف العربة الأخيرة، ولوّح مودعا بينما ينعطف القطار.

عقب إفطار الشمبانيا مع الصحافة في الصباح التالي، حرّر رجال رحلة بيري القطبية السلاسل فتحركت إلى الوراء سفينتهم الصغيرة القوية «الروزفلت» من مرساها على النهر الشرقي. رَشّت قواربُ الإطفاء رذاذَ الماء إلى الأعلى، مكوّنة ضبابا في أقواس قزح حيث ارتفعت شمس الصباح الباكر فوق المدينة. نفخت سفن الركّاب أبواقها. لم يستوعب الأب أن الرحلة انطلقت فعلا إلا متأخّرًا، حين بلغت «الروزفلت» البحر المفتوح. إذْ وقف عند حاجز السفينة

فانتقل إلى عظامه إيقاعُ المحيطِ الرّائع الثابت. بعد حينٍ تجاوزت «الروزڤلت» سفينةً عابرةً للأطلسي قادمةً يملؤها المهاجرون حتى حواجزِها. شاهد الأب المقدّمةَ المتقشرةَ للسفينة العريضة وهي تخبط في البحر. سطوحها مكتظة بالناس. آلاف رؤوس الرجال بقبعات ديربي. آلاف رؤوس النساء مغطاة بالشالات. كانت سفينة شراعية بمليونِ عينٍ داكنةٍ تحدّق إليه على متنها. فجأة غرق في روحه الأبُ الذي هو شخص حازم عادة. استولى عليه يأسٌ غريب. هبّت الرياح وتلبّدت السماء بالغيوم وبدأ المحيط الهائل يتقلّب ويتداعى كما لو أنه مصنوع من ألواح الغرانيت وشرائح منزلقة من الألواح الصخرية. راقب سفينة المهاجرين حتى لم يعد يراها. لكنّه لم يرَ أنها تحمل مهاجرين، بل زبائنَ جدد، فالمهاجرون يؤمنون عميقًا بما يمثّله العلَم الأمريكي من أحلام.

3

أتى معظم المهاجرين من إيطاليا وشرق أوروبا. أُخذوا في قوارب إلى جزيرة إيليس. هناك، في مستودع بشري من القرميد الأحمر والحجر الرمادي يثير تنميقه الفضول، وُسِموا واستحمّوا ونُظّموا على مقاعد في زرائب للانتظار. وحالًا أحسّوا بالسلطة الهائلة التي يتمتع بها موظّفو الهجرة. هؤلاء الموظفون بدّلوا أسماء المهاجرين التي لم يستطيعوا نُطقها، وانتزعوا الناس من عائلاتهم وخصصوا رحلةَ عودةٍ لكبار السن وسقيمي العيون والرّعاع إضافة إلى أولئك الذين بدا عليهم الصلف. كانت سلطة باهرة. تذكّر المهاجرون أوطانهم. تدفقوا إلى الشوارع، وبطريقةٍ ما استوعبتهم مباني الشقق. احتقرهم أهل نيويورك. كانوا قذرين وأُمّيّين. فاحتْ منهم نتانةُ السمك والثوم. يحملون قروحًا متقيحة. لم يكن لديهم شرف وكانوا يعملون مقابل لا شيء تقريبا. سَرَقوا. ثَملوا. اغتصبوا بناتِهم. يقتل بعضُهم بعضًا بين فينة وأخرى. من بين أشد الناس احتقارا لهم الجيلُ الثاني من الآيرلنديين، الذين ارتكب آباؤهم الجرائمَ نفسها. شدّ الأطفال الآيرلنديون لِحى الشيوخِ اليهودِ وطرحوهم أرضا. قلبوا عرباتِ الباعة

الجوالين من الإيطاليين.

سلكت الطرقاتِ في كل فصول السنة عرباتٌ تلتقط أجساد المتشردين. وفي آخر الليل جاءت إلى المشرحة نساءٌ بمناديل تغطي رؤوسهن باحثاتٍ عن أزواجهن وأبنائهن. اضطجعت الجثث على طاولات حديدية مغطاة بالزنك. من قاع كل طاولة امتد أنبوبُ تصريفٍ إلى الأرضية. حول حافة الطاولة قناةٌ يجري فيها الماء المرشوش باستمرار من صنبور فوقي على كل جثة. قُلبت وجوه الموتى على مجرى الماء المتدفق عليها مثل الموت الآليّ في دموعهم التي لا تُكبح.

لكن بطريقةٍ ما انتشر الحديث عن دروس البيانو. ورتق الناسُ أنفسهم بالعَلَم. نحتوا حجارةً تُرصف بها الشوارع. غنّوا. ألقوا النكات. عاشت العائلة في غرفة واحدة وعَمِل الجميع: مامه، **وتاته،** والبُنيّة ذات المِئزر. كانت مامه والبُنية تخيطان سراويلَ وتبيعان كل دزينةٍ منها مقابلَ سبعين سِنتًا. كانتا تخيطان منذ أن تستيقظا حتى تخلدا إلى النوم. تاته يكسب رزقه من الشارع. تعرّفوا مع مرور الوقت على المدينة. ذاتَ يوم أحد، أنفقوا في نوبةٍ جامحةٍ وغيرِ عمليةٍ اثني عشر سنتا على ثلاث تذاكر للترّام واتجهوا بها إلى شمال المدينة. مشوا على جادة ماديسن والجادة الخامسة وتفرجوا على المساكن الكبيرة. كان يسميها مالكوها قصورا. وهذا ما كانت عليه فعلا، كانت قصورا. جميعها من تصميم ستانفورد وايت. كان تاته اشتراكيّا. نظر إلى القصور فتملّك قلبَه الغضبُ. مشت العائلة مسرعة. نظر إليهم أفراد الشرطة بخوذاتهم الطويلة. على هذه الأرصفة العريضة الخالية في هذا الجزء من المدينة لم يكن أفراد الشرطة يحبّذون رؤية المهاجرين. فسّر تاته سبب ذاك الشعور بأنّه نشأ بعد أن أطلق مهاجرٌ النار على

مليونير الحديد هنري فريك قبل سنواتٍ في بتسبيرغ.

دهمت العائلةَ أزمةٌ عندما وصلتهم رسالةٌ تخبرهم أن على البُنيّة أن تذهب إلى المدرسة. هذا يعني أنهم لن يحصلوا على ما يسدّ حاجتهم من المال. غُلب مامه وتاته على أمرهما فأخذا طفلتهما إلى المدرسة. سُجلت وأصبحت ترتادها يوميًّا. طاف تاته الشوارع. لم يكن يعلم ماذا يصنع. كان يشتغل بائعا جوالا. لم ينجح في العثور على مكان مربح على الرصيف. في غيابه تجلس مامه إلى النافذة أمام كومتها من القماش المقصوص وتضغط على دواسة آلة الخياطة. كانت امرأةً قصيرةً داكنةَ العينين بشعر بُنّي متموج فرقته من المنتصف وربطته على شكل عُقدة خلف رقبتها. حين تكون بمفردها تغني لنفسها غناءً ناعما بصوتٍ عالٍ وعذبٍ ورفيع. خلتْ أغانيها من الكلمات. ذاتَ عشيةٍ أخذت شُغلها المكتمل إلى الدور العلوي على شارع ستانتون. دعاها مالكُ المحل إلى مكتبه. ألقى نظرةً فاحصةً على بضاعتها وقال إنها أتقنت شغلها. عدّ النقود مضيفا دولارا واحدا فوق ما تستحق. برّر هذه الزيادة بقوله إنها امرأةٌ حسنةُ المظهر. تبسّم. لمس صدرَ مامه. فرّت مامه والدولار معها. في المرة التالية حدثَ الشيءُ نفسه. أخبرت زوجَها تاته أنها باتت تُنجز أكثر في العمل. اعتادت يدي صاحب العمل. في يومٍ من الأيام حان موعدُ سدادِ أجرةِ أسبوعين من السكن فمكّنت الرجلَ من نفسها على طاولة خياطة. قبّل وجهها وذاق ملحَ دموعها.

في هذا الوقت من التاريخ كتب جيكب ريس، وهو مراسلٌ صحفيٌّ ومصلحٌ اجتماعيٌّ لا يعرف الكلل، عن الحاجة إلى توفير الإسكان للفقراء. كانوا يحشرون أنفسهم في الغرف. لم يكن هناك

صرفٌ صحي. رائحةُ البِراز تفوح في الشوارع. مات الأطفال جَرّاء نزلات البرد الخفيفة أو الطفح الجلدي الطفيف. مات الأطفال على أسرّةٍ صُنعت من كرسيَّيْ مطبخ صُفّا جوار بعضهما. ماتوا على الأرض. اعتقد كثير من الناس أن القذارة والمجاعة والمرض هي جزاء المهاجر على انحطاطه الأخلاقي. لكن ريس آمن بالمَناوِر. سوف تأتي المَناور بالصحّة، ضوءٌ وهواء. ظلّ يجولُ صاعدا السلالمَ المعتمةَ وطارقا الأبوابَ وملتقطا صورا للعائلات المُعوِزة في مساكنها. يمسك بصحنِ الفلاش ويضع رأسه تحت الغطاء فتخرج صورة. بعد مغادرته تبقى العائلة على الوضعية التي صُوّرت عليها دون جرأة على التحرك. انتظرتْ أن تتغير الحياة. انتظرت أن يتبدّل حالها. أعدّ ريس خرائطَ مصوّرة لسكّان مانهاتن وِفقا لأعراقهم. رمادي باهت لليهود- لونهم المفضل حسب قوله. أحمر للإيطالي الداكن. أزرق للألماني المقتصد. أسود للإفريقي. أخضر للآيرلندي. وأصفر للصيني النظيف نظافة القط، القط أيضا يُعرف بطبع المكر القاسي والغضب الوحشي عند استثارته. أضِف شرائطَ ملوّنة للفنلنديين والعرب واليونانيين وهلمّ جرا، وسيكون لديك نسيجٌ مجنونٌ، قال ريس صائحًا، نسيجٌ مجنونٌ من الإنسانية!

قرر ريس أن يُجري ذات يوم مقابلةً مع المهندس المعماري المهاجر ستانفورد وايت. أراد أن يسأل وايت عمّ إذا كان قد صمم من قبلُ سكنا للفقراء. أراد معرفة رأيه حول الإسكان العام ومناور الهواء والضوء. لقي وايت لدى رصيف المرسى يُعاين شحناتِ الأثاث المعماري القادمة. تعجّب ريس مما رآه يخرج من حمولة البواخر: واجهات كاملة من القصور الفلورنسية، وأفنية مفتوحة من أثينا، نُقلت حجرا حجرا،

ولوحات، وتماثيل، وأنسجة مزخرفة، وأسقف محفورة مطلية في صناديق، وباحات مرصوفة، ونوافير رخامية، وسلالم ودرابزينات من الرخام، وأرضيات خشبية وألواح حيطان حريرية، ومدافع، ورايات، ودروع مصفّحة، وأقواس وأسلحة أخرى عتيقة، وسُرر، وخزائن، وأرائك، وموائد طعام، ومناضد، وآلات هاربسكورد، وبراميل من آنية زجاجية، فضة، وألواح ذهب، وخزف، وفخّار. تجول وايت بقامته الضخمة وبنيته القوية وشعره المقصوص المحمر الذي بدأ يشيب، وأخذ يضرب بمظلته المطوية ظهور الحمّالين. صاح: على مهلكم، أيها الحمقى! ودّ ريس أن يطرح عليه بعض الأسئلة. كان إسكان الفقراء قضية ريس. لكنه يحمل رؤية حول تفكك أوروبا، إعادة ترتيب البلاد القديمة، وولادة جمالياتٍ جديدة في الفن والمعمار الأوروبي. هو نفسه كان دانمركيا.

ذاك المساء ذهب وايت لحضور الليلة الافتتاحية لمسرحية «الآنسة شامبين» في جنينة السّقف في حديقة ماديسن سكوير. كان هذا في مطلع شهر يونيو، وبنهاية الشهر كانت موجة حرارة خطيرة قد بدأت تقتل الأطفال الرضّع في سائر الأحياء الفقيرة. توهّجت مباني الشقق مثل أفرانٍ ولم يكن لدى المستأجرين ماء يشربونه. انقطع الماء في الحوض الموجود عند أسفل السلّم. ذرع الآباء الشوارع باحثين عن الثّلج. مبنى جمعية تاماني هول كان قد حطمه الإصلاحيون، لكن نشطاء الحي ما زالوا يحتكرون مؤونة الثلج ويبيعون رقائق صغيرة منه بأثمان باهظة. وُضعت المخدات على جُنوب الطرقات. نامت العائلات على الشرفات وفي المداخل. انهارت الخيول ونفقت في الشوارع. أرسلت إدارة الصحة عربات أثقال تجوب المدينة لتسحب

الخيول النافقة. لكنها لم تكن خدمة ناجعة. انفجرت بطون الخيول في الحرارة. انتفخت أمعاؤها المكشوفة بالجرذان. وعبر أزقة الأحياء الفقيرة، عبر الملابس الرمادية المعلقة بفتور على الحبال الموثوقة إلى مناور الهواء، عَلَتْ رائحةُ السمك المقلي.

• 4 •

في حرارة الصيف القاتلة دعا السياسيون العازمون على إعادة الترشّح متابعيهم إلى نزهات في الريف. ومع اقتراب نهاية يوليو قاد مرشّحٌ مسيرةً عبر شوارعِ الدائرة الانتخابية الرابعة. وضع وردةَ غاردينيا في طيّةِ صدرِ سترته. عزفت فرقةٌ موسيقيةٌ لحنا عسكريا لجون فيليب سوسا. تبع أعضاءُ جمعية المرشح الخيرية الفرقةَ وشقّ كاملُ الموكبِ طريقَه نحو النهر حيث صعد الجميع على سطح الباخرة «الجمهورية الكبرى» المتجهة شمالا عبر لسان لونغ آيلاند البحريّ إلى مدينة راي في ولاية نيويورك، بعد نيو روتشيل بقليل. الباخرة التي اكتظت بخمسة آلاف رجل تقريبا، مالت كثيرا عند ميمنتها. كانت الشمس حارة. ملأ الركّابُ ظهرَ الباخرة وتدافعوا عند الدرابزين من أجل نسمة هواء. كان الماء مثل الزّجاج. في راي ترجّل الجميعُ من أجل مسيرةٍ أخرى تتجه نحو الصيوان حيث قدّمَت جماعةٌ صغيرةٌ من النُّدُل في مَرايلَ بيضاءَ طويلةٍ حساءَ السمك التقليدي على طاولات المنتزه. بعد الغداء المختصر أُلقيتْ كلماتٌ من تحت منصة. زُيِّنت المنصةُ بقماش الأعلام الوطنية الذي وفّرته شركةُ الأب. وُضعت هناك

أيضا لافتاتٌ حملت اسم المرشح بأحرف مذهّبة، ووُزّعت مجانا على كل طاولةٍ أعلامٌ أمريكيةٌ صغيرةٌ رُفِعَت على عصيّ ذهبية. قضى رجال الجمعيّة الخيرية بقيّة الظهيرة يشربون البيرة من حنفيّات براميلها ويلعبون البيسبول ويقذفون حلقات الرمي. كان الرجال الناعسون على العشب تحت قبعاتهم يرقّطون مروجَ راي. في المساء قُدّمت وجبة أخرى وأدّت فرقةٌ عسكريةٌ حفلةً موسيقية. ثم جاءت ذروة الترفيه: عرض الألعاب النارية. جاء الخال الأصغر ليُشرف بصفة شخصية على هذا الجزء من الفعالية. لطالما أحبّ تصميم الألعاب النارية. إنها الجزء الوحيد من التجارة الذي أثار اهتمامه فعلا. ارتفعت القذائفُ مدويّةً في هواء المساء القريب المكهرب. وَمَضَ برقُ الوهجِ فوق اللسان البحريّ. عجلةٌ ضخمةٌ من النارِ الدائرةِ بدت وكأنها تتدحرج فوق الماء. زخرفت سماءَ الليل صورةٌ جانبيةٌ لامرأة كأنها كوكبة جديدة. سقط وابلٌ من الضوء، أحمر وأبيض وأزرق، مثل نجوم، وانفجر من جديد مثل قنابلَ فوق الباخرة القديمة المستقرة في الماء. ابتهج الجميع. عندما اختتمت الألعابُ النارية أُضيئت مصابيحٌ تشير إلى الممر نحو سطح الباخرة. في رحلة العودة مالت الباخرة عند الميسرة. كان من ضمن ركّابها الخالُ الأصغر، الذي قفز إلى السطح بخفة في آخر لحظة ممكنة. وطئ رجالا اضطجعوا نائمين على سطح الباخرة. وقف عند الحاجز في مقدمة السفينة ورفع رأسه للنسيم المسافر فوق الماء الأسود. أدار عينيه الحادتين نحو ليل المساء وفكّر في إيڤلن.

خلال ذلك الوقت كانت إيڤلن نسبت تتدرّب يوميا على الشهادة التي ستُدلي بها في محاكمة زوجها المقبلة جرّاء قتله ستانفورد وايت. في زياراتها اليومية تقريبا إلى «سجن القبور»، سجنِ مانهاتن

الذي يقبع فيه زوجها ثاو، لم يكن عليها أن تتولّى أمرَ ثاو فحسب، بل وأمر محاميه العديدين وأمّه الأرملة الغنية من بتسبيرغ التي تكرهها، وأمر أمها هي التي تجاوزت إيڤلن أحلامَها الجشعة في التواطؤ معها في سبيل الحصول على الثروة. لاحقتها الصحافة أينما ذهبت. حاولت أن تعيش بهدوء في فندق سكني صغير. حاولت ألا تفكر في الكيفية التي بدا فيها وجه ستانفورد وايت الممزق بالرصاص. تناولت وجباتها في غرفتها. تدرّبت على سطور الشهادة. أوت إلى فراشها مبكرا معتقدة أن النوم سيحسّن درجة لون بشرتها. أخذها السأم. طلبت ملابسَ من خيّاطها. ستكون أهم نقطة في الدفاع عن هاري كيه ثاو أنه قد أصابه اضطرابٌ مؤقتٌ بسبب قِصّةٍ أخبرته إيّاها عن تدميرها وهي في سن الخامسة عشر. عملت مُوديلًا عند فنانٍ وكانت ممثلةً طّموح. دعاها ستانفورد وايت إلى شقته في برج حديقة ماديسن سكوير وقدم لها شمبانيا. كانت الشامبانيا مخدّرة. عندما استيقظت في الصباح التالي كان سطوعُ رجولةِ وايت ملقى على فخذيها مثل صقيل الخبّاز.

لكن كان من الصعب إقناعُ هيئةِ محلّفين أن هاري كيه ثاو لم يُصبْ بالاضطراب إلا بعد سماع تلك القصة. لقد كان رجلا عنيفا سبّب طوال حياته حوادثَ في المطاعم. صعد بسيارته الأرصفة. يحمل نزعة انتحارية، فقد ازدرد مرة قنينةً كاملةً من مستحضر اللودنوم. وهو يحتفظ بإبر في صندوقٍ فضي، إذ كان يحقن نفسَه بأشياء عدّة. اعتاد على جمع قبضتيه وضرب صدغيه بهما. لقد كان متعجرفا ومتملّكا وغيورا إلى حدّ الجنون. قبل أن يتزوجا دبّر مكيدة تُوقِّع إيڤلن بناءً عليها إفادةً تتهم فيها ستانفورد وايت بأنه قد ضربها. رفضت إيڤلن وأخبرت وايت عنها. كانت خطوة هاري التالية

أن يأخذها إلى أوروبا بحيث ينفرد بها من دون أن يقلق بشأن إمكانية أن يلتقي بها وايت في غيابه. رافقتهما أمها. أبحروا على متن «سيسيلي زوجة ولي العهد». في ساوثامبتن نقد هاري والدةَ إيفلن مالا ليتخلص منها وأخذ إيفلن وحدَها إلى القارّة. وصلا في نهاية الأمر إلى قلعة جبلية عتيقة في النمسا -قلعة كاتزنستاين- كان هاري قد استأجرها. في ليلتهما الأولى في القلعة نزع عنها فستانها فطرحها على السرير ثم ساطها على ردفيها وفخذيها بسوط كلاب. ترددت صيحاتها في الأروقة والسلالم الحجرية. أصاخ إليها الخدمُ الألمان في مآويهم وخجلوا، فتحوا قناني ڤودكا غولدڤاسر وتضاجعوا. شوّهت آثار حمراء صادمة جسدَ إيفلن. قضت الليل في البكاء والأنين. في الصباح عاد هاري إلى غرفتها، هذه المرة مع مِشحَذ أمواس. ظلت طريحةَ الفراشِ أسابيع. خلال فترة النقاهة أحضر لها شرائح للفانوس السحري بصور الغابة السوداء وجبال الألب النمساوية. كان لطيفا عندما جامعها ومتنبّها للمناطق الحساسة. مع ذلك قررت أن علاقتهما تجاوزت التفهّم الضمنيّ. طلبت أن يعيدها إلى الوطن. أبحرت بمفردها عائدة إلى أمريكا على متن «كارمانيا» بعد عودة أمها بوقت طويل. لما وصلت إلى نيويورك ذهبت من فورها لمقابلة ستانفورد وايت وأخبرته بما حدث. أرته آثار تمزقٍ على امتداد جلد فخذها الأيمن من الداخل. قال ستانفورد وايت: أوه يا عزيزتي، أوه يا عزيزتي. قبّل موضعَ التمزق. أرته كدمة صغيرة صفراء وبنفسجية على صفحة ردفها الأيسر عند انحنائه نحو الشق. يا للبشاعة، قال ستانفورد وايت. قبّل الموضع. في الصباح التالي أرسلها إلى محامٍ أعد شهادة بما حدث في قلعة كاتزنستاين. وقّعت إيفلن على الشهادة. قال ستاني وايت بابتسامة

عريضة: الآن يا حبيبتي، عندما يعود هاري تُرينه هذه. اتبعت تعليماته. قرأ هاري كيه ثاو الشهادة فامتقع لونُ وجهه وعرض عليها الزواجَ حالا. لم تُمثّل من قبل سوى في الجوقة، لكن أداءها كان بجودة أداء أي من فتيات مسرحية «فلورادورا» الراقصة.

والآن هاري معروض للعموم في سجن. كانت زنزانته في صفّ القتلة، في الطابق الأعلى من «سجن القبور» الكهفي. كل مساء يُحضر له الحرسُ الصحفَ بحيث يستطيع متابعة أخبار فريقه المفضل، ذي بتسبيرغ ناشيونالز، ونجمه هانس واغنر. لا يقرأ الأخبار المكتوبة عنه إلا بعد أن يقرأ أخبار المباريات. يتصفح كل صحيفة: «ذي وورلد»، «ذي تريبيون»، «ذي تايمز»، «ذي إيڤننغ بوست»، «ذي جورنل»، «ذي هيرالد». عندما ينتهي من قراءة صحيفة يطويها ثم يقف عند القضبان ويقلبها فوق حاجز ممشى الزنازين بحيث تتفكك قطعا وهي تنزل ست طوابق من خلال السرداب الرئيسي الذي نظمت حوله طوابق السجن. أدهش سلوكُه الحرس. نادرا ما كانوا يحظون بأشخاص من هذه الطبقة. ثاو لم يعجبه طعام السجن على الإطلاق ولذلك كانوا يجلبون وجباتِه من مطعم دلمونيكو. كان يحب أن يشعر بالنظافة ولذا كانوا يمررون إليه غيار ملابس يُوصلها خادمه كل صباح إلى أبواب السجن. كان يكره الزنوج ولذا حرصوا على ألا يضعوا قريبا من زنزانته سجينا زنجيا. لم يكن ثاو يغفل عن لطف الحراس. لم يُبدِ امتنانه بتحفظ وإنما بأسلوب مثالي، إذ يطوي أوراقا نقدية من فئة عشرين دولارا ويقذفها عند قدميه ثم يعلّق على حقارتهم حينما ينحنون لالتقاط النقود. كانوا في غاية السعادة. سألهم مراسلون صحفيون عن شعورهم عند مغادرة «سجن القبور» في نهاية المناوبة.

وكل ظهيرة عندما تصل إيڤلن في نضارتها، بقميص عالي الياقة وتنورة كتان مطوية، يُسمح للزوج والزوجة أن يتمشيا جيئة وذهابا على جسر الآهات، وهو عبارة عن ممر يصل «سجن القبور» بمبنى المحكمة الجنائية. كان ثاو يمشي مشيةً خفيفةً على أطراف أصابعه مثل شخصٍ مصابٍ بتلف الدماغ. له فم واسع وعينا دُمية كأنه رجلٌ مُتغَنْدِرٌ من العصر الفيكتوري. أحيانا يشاهَد وهو يومئ بجموح بينما تقف إيڤلن مطأطئة رأسها يغطي وجهَها ظلُّ قبعتها. أحيانا يستأذن في السماح باستخدام غرفة الاستشارات. الحارس الذي يقع مخفرُه بجوار باب غرفة الاستشارات ذي الفتحة الصغيرة زعم أن ثاو كان يبكي أحيانا ويمسك يد إيڤلن. أحيانا أخرى كان يذرع الغرفة جيئة وذهابا ويضرب بقبضتيه صدغيه بينما تحدّق هي من خلال قضبان النافذة. مرّة طلب أن تبرهن على إخلاصها فلم تجد سوى أن مصّت ذَكَرَه. ابتعدت قبعة إيڤلن عريضة الحواف بزهورها المجففة في قماش التول، إذ ارتكزت على بطن ثاو، عن تسريحة شعرها. بعد ذلك مسح الغبارَ من مقدمة تنورتها وأعطاها بعض النقود من محفظته.

أخبرت إيڤلن المراسلين الذين قابلوها خارج السجن أن زوجها هاري كيه ثاو بريء. قالت يوما وهي تصعد العربة الكهربائية التي قدمتها لها حماتها الوقورة: محاكمة زوجي هاري كيه ثاو ستثبت أنه بريء. أغلق السائق باب العربة. في عزلة العربة بكت. كانت تعلم براءةَ هاري أكثر من أي أحد. وافقت أن تدلي بشهادته نيابة عنه مقابل مئتي ألف دولار. وسيكون نصيبها من الطلاق أعلى من ذلك بكثير. مررت أناملها على تنجيد العربة. جفّت دموعها. غمرها شعور غريب وقاس، ابتسم قلبُها ابتسامةَ نصرٍ باردة. كبرت تلعب في شوارع

بلدةٍ فحمٍ في بنسلفينيا. كانت التمثال البرونزي الذي وضعه ستاني وايت في قمة برج جنينة ماديسن سكوير، ديانا عاريةً بهيةً، قوسها مشدودٌ ووجهها في السماء.

صادفت هذه الفترةُ من تاريخنا الوقتَ الذي كان يعاني فيه الروائيُّ النّكد ثيودور درايزر بشدّة من المُراجعاتِ الرديئةِ والمبيعاتِ الضئيلةِ لروايته الأولى «الأخت كاري». كان درايزر عاطلا عن العمل ومفلسا يمنعه الشعورُ بالخزيِ من لقاء أي أحد. استأجر غرفةً مؤثثةً في بروكلين وذهب ليعيش فيها. اعتاد على الجلوس على كرسي خشبي في منتصف الغرفة. ذات يوم ارتأى أن كرسيّه في الاتجاه الخاطئ. رفعه بكلتا يديه ولفّه إلى اليمين، وهو يرفع ثِقله عن الكرسي، لكي يحاذيه كما ينبغي. وللحظةٍ ظنّ أن الكرسي في مكانه الصحيح، لكنه بعد ذلك قرّر أن الكرسي ليس كما ظنّ. حرّكه مرة أخرى إلى اليمين. حاول الجلوس على الكرسي بعدئذٍ لكن مكانه ما زال غريبا. لفه من جديد. ومع الوقت أكمل دائرة تامة من دون أن يجد المحاذاة الصحيحة للكرسي. شحب الضوء الساقط على النافذة المتسخة للغرفة المؤثثة. قضى درايزر الليلَ كلّه في تحريك كرسيه في دوائر بحثا عن المحاذاة الصحيحة.

5

لم تكن محاكمةُ ثاو الوشيكةُ الإثارةَ الوحيدةَ في «سجن القبور». فقد صنع اثنان من الحرس في وقت فراغهما سيقانا حديدية ادّعيا أنها أفضل من الجهاز المعتاد. ومن أجل إثبات أفضليتها تحدّيا هاري هوديني عينَه أن يختبرها. وصل الساحرُ ذات صباحٍ إلى مكتب مدير السجن والتُقطت له صورٌ وهو يصافح مدير السجن ويقف بين حارسين مبتسمين يطوّق بذراعيه كتفيهما. تبادل المزاحَ مع الصحفيين. ووزع كثيرا من التذاكر المجانية. أمسك بالسيقان الحديدية تحت الضوء وتفحصها بعناية. قَبِل التحدي. سيفتكّ نفسه من الحديد في عرض الليلة المقبلة في ميدان كيث للسباق. لمّا تجمع رجالُ الصحافة حوله اقترح هوديني تحدّيه الخاص، ألا وهو أن يُعرَّى في ذلك الوقت والمكان ثم يُحبس في زنزانة وتوضع ملابسه خارجها، وبمغادرة الجميع سيتولى هو أمرَ افتكاكِ نفسه من الزنزانة ويظهر بكاملِ لبسه في مكتب المدير خلال خمس دقائق. اعترض مديرُ السجن. أبدى هوديني استغرابه. بعد أن قبل هو، هوديني، تحدّي الحرس من دون تردد، ألم يكن المدير واثقا من سجنه؟ انضمّ

المراسلون إلى جانب هوديني. تنازل مدير السجن لمعرفته بماذا يمكن أن تفعل الصحفُ برفضه مسايرةَ المهرج. اعتقد أن زنازينه منيعةٌ في الواقع. كانت جدران مكتبه مصبوغة بأخضر باهت. رُكزت على سطح مكتبه صورٌ لزوجته وأمه. وعلى طاولةٍ خلف المكتب حاويةُ سيغار وإناءُ ويسكي آيرلندي. التقط هاتفه الجديد ونظر إلى المراسلين نظرة معبرة وهو يمسك بالهاتف بيد وسماعة الأذن بالأخرى.

بعد قليلٍ قِيد هوديني، العاري تماما، عَبْرَ السلالم ستة طوابق صعودا إلى صفّ القتلة في الطابق الأعلى من السجن. في هذا الطابق مساجين أقل وكان هناك إيمان بأن الزنازين تلك أكثر منعة ضد الهرب. وضع الحارسان هوديني في زنزانة فارغة وأقفلا الباب. ألقيا ملابسه في كومة مرتبة في الممشى لكيلا يصل إليها. ثم تراجع الحارسان ومرافقوهما من المراسلين وعاد الجميع، حسبما اتفق عليه، إلى مكتب المدير. كان هوديني يحمل في مناطقَ متفرقةٍ من جسده أسلاكا حديدية صغيرة وقطعا من حديد النوابض. هذه المرة مرر كفّه على باطن قدمه واستخرج من عَقِبِه الأيسر شريطا من الحديد يبلغ عرضُه حوالي ربعَ إنش وطولُه إنشا ونصف. من شعره الكثيف سحب قطعة من السلك الصلب ثبّتها حول الشريط لتعمل مثل عروة. أقحم يده بين القضبان وأدخل المفتاح المؤقت في القفل وأداره ببطء في اتجاه عقارب الساعة. انفتح باب الزنزانة. في تلك اللحظة أدرك هوديني أن الزنزانة التي تقابله مباشرة على الجهة المقابلة من السرداب المظلم مضاءة ومأهولة. جلس فيها سجينٌ ظلّ محدقا إليه. للسجين وجهٌ عريضٌ مسطّحٌ بأنفٍ خنزيريّ وفمٍ واسع وعينين بدتا كبيرتين ومشعّتين بشكل غير طبيعي. شعره أجعد

مصقّف إلى الوراء بدءً من خطّ الشعر الهلالي الغريب. ولأن هوديني ممثّل في مسرحيات هزلية فقد خطر على باله من مرأى السّجين وجهُ دميةِ المتكلّمِ من بطنه. كان السجين جالسا أمام طاولة عليها قماشُ كتان وطقمُ مائدة. وعلى الطاولة بقايا وجبةٍ ضخمة. قُلبت قارورةُ شمبانيا فارغةٌ على رأسها في مبرد. السرير الحديدي كان مغطى بلحافٍ مُبَطّنٍ ووسائد مربّعة. انتصبت أمام الجدار الحجري خزانةُ ريجنسي. زُيّن مصباحُ السقفِ بعاكسِ ضوءٍ من تيفاني. لم يملك هوديني إلا أن ظلّ يحدق. توهّجت زنزانةُ السجين مثل مسرح في عتمة السجن الكهفي السرمديّة. نهض السجينُ ولوّح تلويحا فخما وبانَ على فمه الواسع أثرُ ابتسامة. حالًا شرع هوديني في ارتداء ملابسه. لبس سروالَه الداخلي فبنطالَه فجواربه ثم حذاءه. في الجهة المقابلة من السرداب بدأ السجين ينزع ملابسه. لبس هوديني فانيلته الداخلية وقميصه وياقته. ربط ربطةَ عنقه ووضع دبّوسَ التثبيت. رفع حمّالتي البنطال إلى مكانهما وارتدى معطفه. في هذه اللحظة كان السجين قد تعرى بالكامل كما كان هوديني قبل قليل. خطى السّجينُ إلى مقدّمة زنزانته رافعًا ذراعيه على نحو داعر وصادم ثم دفع وركيه إلى الأمام ودلّى ذكرَه من بين القضبان. هرع هوديني إلى السرداب على عجل وفتح قفل باب الزنزانة بتلعثم ثم أغلقه وراءه.

لم ينوِ هوديني أن يخبر أحدا بهذه المواجهة الغريبة. قضى وقتَ احتفالاتِ انتصارِه البطولي في السجن ليس هادئا وحسب، بل مكبوتا على نحو غير معهود. حتى الصفوف التي وقفت أمام شباك التذاكر تتابع الأخبار في صحف المساء لم تُفلح في إدخال السرور إلى قلبه. لم يمنحه افتكاكُ نفسِه من السيقان الحديدية في ظرف دقيقتين

شعورا بالمتعة على الإطلاق. مرت أيّام قبل أن يدرك أن الممثل البشع الذي رآه في طابق القتلة لا بد وأنه القاتل هاري كيه ثاو. الناس الذين لا يتفاعلون مع فنّ هوديني يضايقونه بشكل عميق. أدرك مع الوقت أن الذي يجمعهم أنهم من الطبقات العليا. دائما ما كانوا يخترقون زيفَ حياتِه ويُشعرونه بالتفاهة. لدى هوديني طموحٌ عالٍ غير مكتمل، وكان كلّ تقدمٍ في المجال التقني يُفقده راحتَه. في وسعه أن يخلق الدهشةَ والرعبَ في الحدودِ الرثّةِ لمسرح ما، بينما الناس هذه الأيام راحوا يركبون طائراتٍ في الهواء أو يتسابقون في سياراتٍ بسرعةِ ستين ميلا في الساعة. رجل مثل روزفلت طاردَ الإسبان في معركةِ مرتفعات سان خوان، والآن يرسل أسطولا من السفن الحربية البيضاء تمخر بحار العالم، سفنا حربيّة ببياض أسنانه. عرف الأغنياء ما هو مهم. ولذلك نظروا إليه على أنه طفل أو أحمق. مع ذلك فقد عكس تدريبُه الذاتي، تفانيه في إتقان عمله، قيمةً أمريكية. حافظ على جسده بأناقةٍ رياضيّ. لم يُدخّن ولم يشرب. عند المقارنة بغيره كان قويا بقوة أي رجل واجهه. في استطاعته أن يقبض عضلاتِ بطنه ويدعو بابتسامةٍ أيَّ شخصٍ مهما كان إلى أن يضربه هناك بأقوى ما يشاء. كان رشيقا مفتولَ العضلات بشكلٍ رهيبٍ ويمتلك شجاعةً مهنيّة. رغم هذا لم يقدّر الأغنياءُ شيئًا من ذاك كلّه.

الجديد في نشاط هوديني افتكاكٌ حرّر فيه نفسَه من خزانةِ مكتبٍ ثم فتح الخزانةَ ليكشف عن المساعد مقيَّدا داخلها بعد أن كان على خشبة المسرح قُبيل لحظات. كان نجاحا باهرا. بعد ذلك العرضِ بليلةٍ واحدة أخبره مدير أعماله أن السيدةَ ستايفيسانت فِش، الساكنة على الشارع الثامن والسبعين، اتصلت تريد أن تحجز

هوديني لحفلة خاصة. كانت السيدة فِش واحدةً من نخبة أمريكا «الأربعمئة». اشتهرت بطرافتِها. رتبت مرةً حفلةً راقصةً على شرف ستانفورد وايت، صديقِها الراحلِ الذي صمم منزلها. صمم منزلها على طراز قصرِ قاضي قضاة البندقية. قال هوديني لمدير أعماله: لا أريد أن أرتبط بأولئك الناس. وحسبما تقتضي مهنتُه هاتَفَ مديرَ أعمالِ السيدة فِش مخبرا إياه أن هوديني مشغول. ضاعفت الأجرة. أقيمت الحفلةُ الراقصةُ مساءَ يوم إثنين. كانت أولى أحداث الموسم الجديد المهمة. في الساعة التاسعة تقريبا استقلّ هوديني سيارة مستأجرة من طراز «السهم النافذ». رافقه مديرُ أعماله ومساعده. تبعت السيارةَ شاحنةٌ تحمل عدّته. حاشيته دُلّوا على المدخل الخلفي.

من دون علم هوديني، تعاقدت السيدة ستايفيسانت فِش أيضا تلك الليلة مع كامل العرضِ الجانبيِّ لسيرك بارنم آند بيلي. أرادت أن تصدم زائريها عتيقي الطراز. أُخذ هوديني إلى ما يُشبه غرفةَ انتظار حيث وجد نفسه محاطا بحشدٍ من غريبي المناظر كان كلٌّ منهم قد سمع عن هوديني وأراد أن يلمسه. مخلوقاتٌ بجلودٍ مكسوة بالصلصال المتقزح وأيادٍ متصلة بالأكتاف، أقزامٌ لهم أصوات هواتف، توأمتان سياميتان متكئتان في اتجاهين مختلفين، رجل رفع الأثقال مستخدما حِلَقا حديدية موصلة بشكل دائم إلى صدره. خلع هوديني معطفه وقبعته وقفازيه الأبيضين ومدّ بها إلى مساعده. ارتمى في كرسي. كانت قبضتاه في انتظار التعليمات. ثرثر غريبو المناظر في كلامهم معه.

لكن الغرفةَ نفسَها كانت في غاية الجمال، بأسقف خشبيةٍ منحوتةٍ ونجودٍ فلمنكية تصوّر مشهد آكتيان الإغريقي تنهشه الكلاب.

في بداية حياته العملية عمل هوديني في سيرك صغير في غرب بنسلفينيا. استذكر ولاءاتِه الآن لكي يستعيد رباطة جأشه. عزلت امرأةٌ من الأقزام نفسها عن البقية وطلبت من الجميع أن يَخْطوا إلى الوراء بضع خطوات. اتضح أنها لافينيا وارن ذائعة الصيت، أرملة الجنرال توم ثمب وأشهر الأقزام على الإطلاق. ارتدت لافينيا وارن ثمب فستانا مهيبا قدمته لها السيدة فِش. كان الهدف منه أن يكون سخرية من عدوة السيدة فِش، السيدة ويليام آستر، التي كانت قد ارتدت الفستانَ نفسه الربيعَ الماضي. سُرّح شعرُ لافينيا ثمب على طريقة آستر وارتدت مجوهراتٍ لمّاعةٍ مقلَّدةٍ كتلك التي كانت ترتديها آستر. قارب عمرُها السبعين عاما ولذا كانت تتحرك بوقار. قُبيل زواجها منذ خمسين سنة استضافها في البيت الأبيض هي والكولونيل ثمب لينكولن وزوجته. شعر هوديني بحاجة إلى البكاء. لم تعد لافينيا تعمل في السيرك لكنها جاءت إلى نيويورك من بيتها في بريجبورت، منزل تغطيه الألواح الخشبية والجملونات وفي سطحه منبسط يطل على البحر مكلف الصيانة. كان هذا السبب الذي دفعها للموافقة على هذه الوظيفة المسائية. عاشت في بريجبورت حتى تكون قريبة من قبر زوجها الذي مات قبل عدة سنوات وأُحيِيَت ذكراه في حجرٍ نُصب على عمود تذكاري في مقبرة جبل غروف. طولُ لافينيا قدمين. تصل إلى ركبتَيْ هوديني. تعمَّق بفعل السنين صوتُها فأمست تتحدث الآن بنبرةِ فتاةٍ عاديةٍ في العشرين. لديها عينان زرقاوان متلألئتان وشعرٌ فضيٌّ وعلى بشرتها البيضاء الصافية تجاعيد دقيقة. ذكّرتْ هوديني بأمّه. قالت لافينيا: هيا يا صبي، قُمْ بحركتين من أجلنا.

سلّى هوديني حشدَ السيرك بخدعةِ اليد وبعضِ الحيل البسيطة. وضع في فمه كرةَ بلياردو ثم أغلقه وفتحه من جديد وإذا بكرة البلياردو قد اختفت. أطبق فمه ثم فتحه مرة أخرى فأخرج كرة البلياردو. غرزَ إبرةَ خياطةٍ عاديةٍ في خدّه وسحبها من الجانب الداخلي. بسط يده فأخرج لهم كتكوتا حيّا. سحب من أذنه شلالا من الحرير الملوّن. ابتهج غريبو المناظر. هتفوا وضحكوا. لما شعر هوديني أنه أنجز مسؤولياته نهض وأخبر مدير أعماله أنه لن يؤدي عرضا للسيدة ستايفيسانت فِش. كانت هناك احتجاجات. اندفع هوديني خارجا من الباب. أعشى عينيه ضوءُ الكريستال. كان في قاعة الرقص الكبرى في قصرِ قاضي قضاة البندقية. كانت أوركسترا وترية تعزف من شرفة. أطّرت ستائرُ ضخمةٌ حمراءُ باهتة النوافذ العالية وكان أربعمئة شخص يرقصون الفالس على أرضية رخامية. رأى هوديني إذ ظلّلَ عينيه السيدةَ فِش بنفسها مُقبلةً عليه، ترتفع من شعرها الملموم كتلةٌ من الريش المرصع بالجواهر، وتتدلى حبال من اللؤلؤ متأرجحة من رقبتها، وتتشكل على شفتيها طرفةٌ مثل بقبقةِ مصروع.

رغم تجارب سابقه كهذه فإن هوديني لم يشكّل قطُّ ما نعتبره وعيا سياسيا. لم يكن قادرا على التفكير بسبب مشاعره المجروحة. سيجهل تماما حتى النهاية هدفَ مهنتِه، خارطةَ الثورة العظيمة التي رسمتها حياته. كان يهوديا. اسمه الحقيقي إيرك وايس. أحبّ أمه العجوز حبّا جمّا، أمه المقيمة في بيته من الحجَر البُنيّ الواقع على غرب شارع 113. في الحقيقة لقد وصل سيغموند فرويد للتوّ إلى أمريكا كي يُلقي سلسلةَ محاضراتٍ في جامعة كلارك في مدينة ووستر

من ولاية مساتشوستس، وهكذا قُدّر لهوديني أن يكون، إضافة إلى آل جولسن، آخرَ أبرز عشّاق الأم الصِّفاق، وهي حركةٌ من القرن التاسع عشر شملت أمثالَ بو وجون براون ولينكولن وجيمس ماكنيل ويسلر. وبالطبع لم يكن تلقّي فرويد الفوريُّ في أمريكا تلقّيا ميمونا. فهم بضعةٌ من أطباء الأمراض النفسية المحترفين، وبالنسبة لأغلب عامة الناس بدا فرويد مجرّد عالِم جنسٍ ألماني يُناصر الحبَّ الحرَّ ويستخدم كلماتٍ منمقة للحديث عن أشياء بذيئة. كان يجب أن يمرّ عقدٌ من الزمان على الأقل قبل أن ينتقم فرويد ويرى أفكاره تبدأ في تحطيم الجنس في أمريكا إلى الأبد.

6

وصل فرويد إلى نيويورك على متن سفينة «جورج واشنطن» التي يملكها لويد. يرافقه تلميذاه يونغ وفيرنزي اللذان يصغرانه ببضعِ سنوات. قابل الثلاثةَ على الرصيف البحري فرويديّان آخران أصغر سنّا، وهما الدكتور أيرنست جونز وأيه أيه بريل. تناول الجميعُ العشاءَ في جنينة سطح مطعم هامرستاين. كان هناك نخلٌ موضوعٌ في أُصُص. عزف ثنائيٌّ بيانو وكمان مقطوعة «النشوة الهنغارية» لفرانتس لست. تحدث الجميعُ من حول فرويد ناظرين إليه باستمرار لقياس مزاجه. أكل حلوى الكاسترد. أخذ بريل وجونز على عاتقيهما أداءَ دورِ المضيفِ أثناء الزيارة. في الأيام التي تلت أخذا فرويد إلى سنترال بارك ومتحف المتروبوليتان والحي الصيني. نظر إليهم الصينيون شبيهو القطط من داخل المحلات المعتمة. كانت هناك ثمار جوز الليتشي معبّأة في خزائنَ زجاجية. تفرّجت المجموعة على واحدٍ من الأفلام الصامتة الرائجة في المتاجر ومسارح السينما الرخيصة المتفرقة في المدينة. علا دخانٌ أبيض من فوّهاتِ البنادقِ وسقط رجالٌ يضعون الرّوجَ وأحمرَ الشفاه إلى الوراء قابضين على

صدورهم. فكّر فرويد، على الأقل هذا فيلم صامت. ما اضطهده في العالم الجديد كانت الضوضاء. الجلبة الفظيعة الصادرة عن الأحصنة والعربات، صرير عربات القطار وصليلها، أبواق السيارات. أخذ بريل فرويد وأتباعه في سيارةٍ من طراز مارمن في جولةٍ حول مانهاتن. في لحظة ما، على الجادة الخامسة، شعر فرويد كما لو أنه مراقَب، وإذ رفعَ عينيه ألفى بعضَ الأطفال يحدّقون إليه من سطحِ باصٍ ذي طابقين.

أخذ بريل المجموعةَ إلى أسفل شرقيّ مانهاتن حيث المسارح اليديشيّة وعربات الباعة والقطارات المعلَّقة. مر قطارٌ معلّقٌ مخيفٌ من أمام نوافذِ مبانٍ مأهولةٍ بالسكان. اهتزت النوافذُ وارتجّت المباني نفسها. احتاج فرويد إلى أن يقضي حاجته وبدا أنْ لا أحدَ يستطيع إرشاده إلى حيث يمكن أن يوجد حمّامٌ عام. اضطروا جميعا إلى أن يدخلوا متجرَ ألبانٍ ويطلبوا كريمةً حامضةً بالخضار بحيث يتمكن فرويد من استخدام الحمّام. لاحقا، في السيارة، توقفوا عند ركنٍ لمشاهدةِ فنانٍ يمارس فنه في الشارع، رجلٍ كبيرٍ في السن يصنع بورتريهاتٍ ظليّةٍ مُصغَّرةٍ باستخدام مقصٍّ وورقٍ فقط ويبيعها مقابلَ بضع سنتات. أمامه وقفت امرأةٌ جميلةٌ متأنقةٌ ليقصّ بورتريها لها. غلّف فيرنزي سريعُ الاهتياج إعجابَه بجمالِ المرأةِ بأن أعلن لرفاقه في السيارة سعادتَه برؤية فنّ اللوحاتِ الظليّةِ العتيق يزدهر على شوارع العالم الجديد. لم يعلّق فرويدُ المثبت أسنانه على سيغاره بإحكام. توقف محرك السيارة. وحده يونغ لاحظ البُنيّةَ ذاتَ المئزر التي تقف وراءَ المرأة الشابة وتمسك بيدها. اختلست البُنيّةُ النظرَ إلى يونغ. نظر يونغ حليقُ الرأسِ، الذي بدأ بالفعل يختلف مع معلمه المحبوب حول

مواضيعَ حساسةٍ معينةٍ، من خلال نظارته السميكة ذات الإطار الحديدي إلى الطفلة الجميلة وشعر بما أدرك أنه صدمةُ اعترافٍ رغم أنه لم يستطع لحظتئذٍ تفسيرَها. ضغط بريل دواسةَ ناقل الحركة واستأنفت المجموعةُ جولتَها. المحطة النهائية كانت كوني آيلاند التي تبعد كثيرا عن المدينة. وصلوا في آخر المساء وحالًا استهلّوا جولةً على الملاهي الثلاثة المشهورة، مبتدئين بمتنزّهِ ستيبلشيس، فمتنزّهِ دريم لاند، ثم أخيرا بحلول الليل أبراجِ وقبابِ ملاهي لونا بارك المرسومةِ بمصابيحَ كهربائية. ركب الزوّارُ الوقورون قاربَ «شوت ذا تشوتز» وأخذ فرويد ويونغ معا قاربا عبر «نفق الحب». لم ينتهِ اليوم إلا حين تعب فرويد وألمّت به واحدةٌ من نوبات الصرع التي صارت تنزل به مؤخرا في حضور يونغ. بعد بضعة أيام سافرت المجموعة بكاملها برّا إلى ووستر من أجل محاضرات فرويد. بانتهاء المحاضرات أُقنع فرويد بالقيام برحلة إلى عجيبةِ شلالات نَياغرا الطبيعية العظيمة. وصلوا إلى الشلالات في يوم غائم. وقف آلافُ الزائرين حديثي الزواج مثْنَى يشاهدون الشلالات العظيمة. ارتفع من مهبط الشلالات ضبابٌ كأنه مطر معكوس. رُبط من شاطئ إلى الآخر حبلٌ عالٍ كان يمشي عليه مجنونٌ يرتدي نَعْل باليه ولباسا ضيقا، محافظا على توازنه باستخدام مظلة. هز فرويد رأسه. لاحقا ذهبت المجموعة إلى كهف الريح. على جسرِ مشاةٍ تحت الأرض هناك، وجّه مُرشدٌ الآخرين إلى طريق الخروج وأخذ بمرفق فرويد. قال المرشد: دعوا الرجلَ المُسنَّ يمشي أولا. قرر الطبيب العظيم ذو الثلاثة والخمسين عاما في تلك اللحظة أنه اكتفى من أمريكا. أبحر مع تلامذته عائدا إلى ألمانيا على متن «سفينة القيصر الألماني». لم يتأقلم فعلا مع طعام أمريكا أو شحّ

المرافق العامة فيها. اعتقد أن الرحلةَ قد دمرتْ معدتَه ومثانتَه. بدا له السكان جميعا مقهورين ومتهوّرين وأجلافًا. وجد الاستلابَ المبتذلَ بالجملةِ للفنّ والمعمار الأوروبيين بصرف النظر عن المرحلة الزمنية أو البلد أمرًا مروّعا. لقد رأى في مزجنا اللامبالي للثروةِ الفاحشةِ والفقرِ المدقعِ فوضى حضارة أوروبية متدهورة لا محالة. في مكتبه الهادئ الحميم في ڤيَنّا جلس مسرورا بعودته. قال لأيرنست جونز: أمريكا خطأ، خطأ جسيم.

بالطبع في حينه كان عددٌ لا بأسَ به من الناس على هذه الشواطئ مستعدا للاتفاق معه. ثمّة ملايين الرجال العاطلين دون عمل. أولئك المحظوظون بما يكفي لأن يجدوا عملا لم يجرؤوا على تشكيل اتحادات. نهرتهم المحاكمُ وضرب رجالُ الشرطة رؤوسَهم وسُجن قادتُهم، فأخذ رجالٌ جددٌ وظائفَهم. اعتُبرَت نقابات العمّال إهانةً للرب. قال أحد الأغنياء إن العامل لن يحميه دعاةُ الفتنة في اتحادات العمال وإنما الرجالُ المسيحيون الذين منحهم الربُّ بحكمته الفائقة الحقَّ في السيطرة على مصالح هذه البلاد. إنْ فشلت كلُّ المحاولاتِ استُدعيت قوّاتُ الشرطة. ظهرت مستودعاتُ الأسلحةِ في كل مدينةٍ من مدن البلاد. في مناجم الفحم يقبض عامل المنجم دولارا وستين سنتا في اليوم الواحد إنِ استطاع أن يستخرج ثلاثةَ أطنان. يعيش في أكشاك الشركة ويشتري طعامه من متجر الشركة. في مزارع التبغ يقشّر الزنوجُ أوراقَ التبغ ثلاثة عشر ساعة في اليوم ويتقاضون ست سنتات في الساعة، سواءً كان العامل رجلا أم امرأة أم طفلا. لم يعاني الأطفالُ من معاملة تمييزية. إنهم محل تقدير أينما اشتغلوا. لا يتذمرون كما ينزع البالغون إلى التذمر. يطيب لأصحاب العمل أن ينظروا إلى الطفل

على أنه الجانُّ السعيد. إن كانت ثمة مشكلةٌ في توظيفِ الأطفال فهي في قُدرتهم على التحمّل. إنهم أخفّ حركة من البالغين لكن كفاءتهم تتضاءل في ساعات اليوم المتأخرة. في مصانع التعليب والمطاحن هذه هي الساعات التي يُرجّح فيها أن يفقدوا أصابعهم أو تُبتر أيديهم أو تُطحن سيقانهم، ولذا يتطلّب الأمر أن يتلقوا تعليماتٍ بأن يظلّوا حذرين. في المناجم يعملون في فرز الفحم وأحيانا يختنقون في مزالق الفحم، ولذا يؤمرون بأن يبقوا على حذر طوال الوقت. كل سنة يُعدَم مئةُ زنجيّ شنقًا. أُحرق مئةُ عاملِ منجمٍ أحياء. بُترت أعضاءُ مئةِ طفل. كأنما كانت هناك حصصٌ مخصصّةٌ لهذه الأشياء. كأنما كانت هناك حصصٌ للذين ماتوا جوعا. كانت هناك اتفاقات لاحتكار إنتاج النفط ومثلها للبنوك ومثلها لخطوط السكك الحديدية ومثلها للحوم الأبقار ومثلها للحديد. أصبح تكريمُ الفقراءِ موضة. في قصور نيويورك وشيكاغو أقام الناسُ حفلاتِ فقرٍ راقصة. يجيء الضيوف مرتدين ثيابا رثة ويأكلون من صحون القصدير ويشربون من أكواب مثلومة الحواف. تُزيَّن قاعاتُ الرقص كيما تبدو مثل مناجم بأشعةٍ ساقطةٍ وسكك حديدية ومصابيح عمّال. تُستأجر شركاتُ ديكورٍ مسرحيٍّ لجعل الحدائق الخارجية تبدو مثل مزارع ترابية، وغرف الطعام مثل معامل القطن. يدخن الضيوف أعقابَ السيغار المقدمة لهم على أطباق من فضة. يغني منشدون بوجوه مسوَّدة. تدعو مضيفةٌ الجميع إلى حفلة حظيرة للماشية. يُلَفُّ الضيوفُ بمرايل طويلة وتُغطى رؤوسهم بقبعات بيضاء. يتناولون العشاء ويرقصون بينما كانت تطوف على مدار الجدران أجسادُ عُجولٍ داميةٍ فوق بَكراتٍ متحركة. تندلق أحشاءٌ على الأرضية. يُخصَّص الرّيعُ للأعمال الخيرية.

• 7 •

بعد يوم من إحدى زياراتها إلى «سجن القبور» حدث أن لاحظت إيفلن نسبت من خلال مرآة العربة الكهربائية أنه لأول مرة منذ أيام لم يكن هناك يتابعها أي من المراسلين. عادة ما يطاردها مراسلو هيرست وبوليتزر في مجموعات.

استجابة لإحساسٍ ما أمرت السائق أن ينعطف إلى الشرق. عبس السائق الذي كان خادما لدى والدة هاري ثاو. لم تلاحظ إيفلن نسبت عبوسَه. مرت العربة في وسط المدينة يهدر محركها في المساء الدافئ. كانت عربة ديترويت إلكتريك سوداء بإطارات مطاطية صلبة. بعد قليلٍ رأت إيفلن من النافذة الباعةَ الجوالين وعرباتِهم في أسفل شرقيّ مانهاتن.

حدجت العربةَ وجوهٌ بعيونٍ داكنة. رجالٌ بشواربَ طويلةٍ انفرجت ابتساماتهم عن أسنان ذهبيّة. افترش عمالُ شوارعِ الأرصفةَ في الحرارة وأخذوا يهفّون على وجوههم بقبعاتهم. ركض أطفالٌ بسراويل قصيرة جوار العربة حاملين على أكتافهم أحمالَ شغلٍ ضخمة. رأت إيفلن متاجرَ تحمل نوافذُها لافتاتٍ بالعِبرية، وقد بدت

الأحرف العِبرية لعينيها مثل عظامٍ مرصوصة. رأت سلالمَ النجاةِ الحديدية لمباني الشقق مثل طوابقَ في سجن. رفعت أحصنةٌ هزيلةٌ في أنيارها رقابَها المخفوضة لتنظر إليها. جامعو الخِرَق بعرباتهم ثنائية العجلات الكبيرة المحمّلة بالخردة، نساء يبعن الخبز من سلالٍ يحملنها في أذرعهن: جميعهم نظروا. كان السائق متوترا. يرتدي كسوة رمادية وسراويل طويلة جلدية سوداء. حشر العربة اللامعة عبر الشوارع الضيقة القذرة. جلست بُنيّة في مئزر وحذاء عال الرباط تلعب في الطين عند الرصيف. فتاة صغيرة متسخة الوجه. قالت إيڤلن: أوقف العربة. دار السائق حول العربة وفتح بابها. نزلت إيڤلن إلى الشارع. جثت على ركبتها. كان للفتاة شعرٌ أسودُ أملسُ ناسبَ رأسها وكأنه خوذة. بشرتها قمحية اللون وعيناها من شدة دكنتهما كأنهما سوداوان. نظرت إلى إيڤلن نظرةً تخلو من الفضول. كانت أجملَ طفلةٍ رأتها إيڤلن في حياتها. رُبطت حول خصرها قطعة من حبل الغسيل. قامت إيڤلن وتتبّعت الحبلَ فوجدت نفسها تنظر في وجه رجل عجوز مجنون بلحية شيباء مقصوصة. نهاية الحبل كانت مربوطةً إلى خصر الرجل العجوز. ارتدى معطفا باليا. كان أحد كُمّيه مُمَزَّعا. ارتدى قلنسوةً وياقةً بربطة عنق. وقف على رصيف المشاة أمام عربة تعرض بورتريهات ظليّة مؤطرة ومثبتة بدبابيس على ستار مخملي أسود. كان فنانَ لوحاتٍ ظليّة. باستخدام مقص وبعض الغراء فقط بإمكانه أن يصنع صورةً لك من خلال قصّ قطعة من الورق الأبيض ووضعها على خلفية سوداء. اللوحة كلها مع إطارها لا تكلّف سوى خمسة عشر سنتا. قال الرجل العجوز: خمسة عشر سنتا يا سيدتي. قالت إيڤلن: لماذا تُبقي على هذه الطفلة

مربوطة بحبل؟ نظر الرجل العجوز إلى أناقتها. ضحك وهز رأسه وحادث نفسه باليديشية. أدار لها ظهره. تجمع حشدٌ عندما توقفت العربة. تقدم عاملٌ طويلٌ إلى الأمام ورفع قبعته احتراما قبل أن يترجم لإيفلن ما قال الرجل العجوز. قال: من أجل الله يا سيدتي، حتى لا تُسرق البُنيّة مني. نما لدى إيفلن إحساسٌ بأن المترجم ربما يعمل دبلوماسيا أيضا. كان الفنان العجوز يضحك بسخرية ويرفع ذقنه باتجاهها، معلقا عليها فيما يبدو. يقول إن السيدة الغنية قد لا تدرك أن الفتيات الصغيرات في الأحياء العشوائية يُسرَقن يوميا من أهلهن ويُبَعن رقيقا. صُدمت إيفلن. قالت إن هذه الطفلة لا يمكن أن يتجاوز سنها العاشرة. أخذ الرجل العجوز يصيح وأشار إلى مبنى شقق في الجهة الأخرى من الشارع، ثم استدار وأشار في اتجاه الركن، ثم استدار وأشار في اتجاه الركن الآخر. من أجل الله يا سيدتي، قال العامل الطويل، نساءٌ متزوجاتٌ وأطفال، كل مَن تستطيع أيديهم أن تقع عليه. يلوّثونهن ثم بعد ذلك تنذر المرأة من العار حياتها للتشرد. تُستخدم منازلُ على هذا الشارع تحديدا لهذا الغرض. استفسرت إيفلن: أين والدا الطفلة؟ في هذه اللحظة كان الرجل العجوز يخاطب الحشد، يخبط صدره ويرفع إصبعه في الهواء. هزت امرأةٌ تتلفع بشالٍ أسود رأسَها وتنهدت في تعاطف. نزع الرجل العجوز قلنسوته وجذب شعره. حتى العامل الطويل نسي أن يترجم، إذ حركت روايةُ الفنانِ مشاعره. أخيرا قال: من أجل الله يا سيدتي، هذا الرجل نفسه هو والد الطفلة. أشار إلى كُمّ الفنان المُمَزَّع. حتى زوجته أرخصتْ نفسَها كي تطعمهما فطردها من منزله والآن يرثيها كما نرثي الموتى. شابَ رأسه في الشهر الماضي. عمره اثنان وثلاثون سنة.

التفت الرجل العجوز إلى إيڤلن، وهو يبكي ويعض شفته، ورأى أنها جاشت مشاعرها الآن أيضا. وللحظة شاركه كل مَن وقف هناك في الركن محنته: إيڤلن، العامل الطويل، امرأة الشال الأسود، المتفرجون. بعد ذلك مشى أحدهم مغادرا. ثم آخر. تفرق الحشد. مشت إيڤلن إلى البُنية التي ما زالت جالسة على الرصيف. انحنت، وعيناها غائمتان، فنظرت في وجه الفتاة جافّة العينين. قالت لها: هيه يا يقطينة.

هكذا نشأ اهتمامُ إيڤلن نسبت بالفنان الشائخ ذي الاثنتين وثلاثين سنة وابنته. حمل الرجل اسما يهوديا طويلا لم تستطع نطقَه لذا أخذت تدعوه تاته، وهو الاسم الذي كانت تناديه به البُنيّة. تاته هو رئيس تحالف الفنانين الاشتراكيين في أسفل شرقيّ مانهاتن. كان رجلا فخورا. اكتشفت إيڤلن أنه ما من طريقةٍ للتقرب إليه سوى أن تجلس وتطلب منه أن يرسم بورتريها ظليّا لها. خلال أسبوعين نفّذ الرجل العجوز مئةً وأربعين بورتريها ظليا لإيڤلن. بعد كل واحدٍ تمد له خمسة عشر سنتا. أحيانا تطلب بورتريها للبُنية. نفّذ تاته أكثر من تسعين من تلك اللوحات، واستغرق في تنفيذها وقتا أطول. ثم طلبت منه إيڤلن لوحاتٍ مشتركةٍ لها وللبنت الصغيرة. عندها نظر الرجل العجوز إليها مباشرة وبدا أن عينيه تشعان ظنّا عِبريا فظيعا. مع ذلك نفّذ ما طُلب منه. مع مرور الوقت اتضح لإيڤلن أنه بينما يتوقف الناس أحيانا لمشاهدة الرجل العجوز يعمل، قليل منهم فقط يطلبون أن يصنع لهم بورتريهات. بدأ يصنع لوحات ظلية معقدّة أكثر فأكثر، كاملة التفاصيل بخلفيات، لإيڤلن، للبنت الصغيرة، لحصان رسول البيرة يمشي متثاقلا، لخمسةِ رجالٍ بياقات متصلّبة

في سيارةٍ مكشوفة. رسم بمقصّه ليس الحدود الخارجية فحسب ولكن الملامس، الأمزجة، الشخصيات، اليأس. معظم هذه اللوحات موجودة اليوم في مجموعاتٍ خاصة للمقتنَيات. كانت إيڤلن تأتي تقريبا كل ظهيرة وتبقى من الوقت ما استطاعت. ترتدي من الملابس ما لا يجعلها بارزة قدر المستطاع. دفعت مبالغَ ضخمة للسائق لتشتري صمته على عادة ثاو. بدأ كتّابُ أعمدة الشائعات يستنتجون من غيابات إيڤلن أنها متورطة في علاقات غرامية متهوّرة وارتبط اسمها بعشرات الرجال في المدينة. كلما قلّ ظهورها ازدادت التقارير افتراءً وتشهيرا. لم تكترث. استمرت في التسلل إلى ولعها الجديد في أسفل شرقيّ مانهاتن. ارتدت فوق رأسها شالا وفوق بلوزتها سترة سوداء ممزقة أكلتها العثة؛ كان السائق يحتفظ لها بهذه القطع تحت بساط السيارة. كانت تذهب إلى ركن تاته، تجلس من أجل أن ينفذ لوحتها بينما تثبّت عينيها على البُنية التي ينتهي إليها حبل الغسيل. كانت مفتونة. وطوال هذه المدة لم يكن في حياتها رجلٌ سوى زوجها المجنون هاري كيه ثاو. هذا إن لم تشأ أن تحسب معجبَها السري، الشاب ذي الوجنتين البارزتين والشارب الأشقر الذي ظلّ يتبعها أينما ذهبت. رأته للمرة الأولى عند ركن تاته، يقف على الجهة المقابلة من الشارع ويشيح عينيه كلما تحدّته بنظرتها. كانت تعرف أن حماتَها وظّفت مُخبرين خاصين لكنها أدركت أن مفرط الخجل هذا لن يكون مخبرا خاصا. عرف أين تقيم وما هو روتينها اليومي، لكنه لم يتقرّب قطُّ إليها. لم تشعر أن حضورَه يخيفها وإنما يحميها. غريزيا أحسّت بإعجابه مثل حماسة في أنفاسها. حلمت في منامها بالبنت الصغيرة فاستيقظت ثم فكرت فيها. أومضت في ذهنها خططٌ للمستقبل مثل

ألعابٍ ناريةٍ واختفت سريعا. كانت قلقةً ومجهَدةً ومُثارةً وسعيدةً بشكل غير قابل للتفسير. ستدلي بشهادتها نيابةً عن زوجها وستنجح. كانت متفائلة أن يُدان فيُسجن طوال حياته.

أمسكت البُنيةُ ذات المئزر بيدها لكنها لم تقل لها شيئا. حتى تاته لم تكن تحادثه إلا لماما. قال تاته لا أحد يندبُ مثل طفلٍ، ولا حتى المحبّ. أدركت إيڤلن أن كبرياءَ الرجل العجوز كان سيطردها منذ وقت طويل لولا أنه أدرك أن اهتمامها بالطفلة الصغيرة كان مفيدا. أتت إيڤلن ذات يوم من أجل لوحتها ولم تجد الأب في مكانه ولا البنت. لحسن الحظ كانت تعرف أين يقيمان، على شارع هستر، فوق حمّام عام. ذهبت إلى هناك تحث الخُطى من دون أن تجرؤ على التفكير في سبب غيابهما. كان شارع هستر سوقا مزدحما للباعة الجوالين الذين يبيعون الفواكه والخضروات والدجاج والخبز من عربات مصفوفة على امتداد الرصيف. أرصفة المشاة مكتظة بالمتسوقين، وصفائح القمامة الطافحة تصطفّ بجانب سلالم مدخل كل بيت، والشراشفُ معلقة على سلالم النجاة. بسرعة صعدت إيڤلن سلالمَ حديديةً ثم عبرت رواقا معتما كريه الرائحة بشكل لا يصدق. عاش تاته والبنية في الطابق العلوي في حجرتين صغيرتين في الخلف. طرقت الباب. أعادت الطرق ثانية. بعد لحظة انفرج الباب قليلا، إذ كان مقفلا بمزلاج مسلسل. قالت إيڤلن: ما الأمر؟ دعني أدخل.

صُدم تاته بزيارتها. وقف بقميصه وبنطاله ترفعه الحمالتان وكان يرتدي شبشبا منزليا. أصر على أن يظل الباب الأمامي مفتوحا على رغم الرياح العاصفة التي هبّت في السلالم، وارتدى معطفه وحذاءه سريعا. على عجلٍ رتب سريرَه المتنقل وغطّاه بفوطةٍ زاهيةٍ

الألوان. استلقت البُنيةُ على سريرٍ نحاسيٍّ في الحجرة الأخرى. طرحتْها الحُمّى. أضاءت الحجرتين شمعة. كانت عتمةُ حجرة النوم، على رغم أن لها نافذة، تضاهي عتمةَ الحجرة الأمامية. كانت تطلّ على منور. المكان بأكمله لا يتجاوز سعة خزانة. مع ذلك، حالما عوّدت إيفلن عينيها على العتمة أدركت أن المنزل نظيفٌ نظافةً تامة. سبّب مجيئُها عاصفةً من الذعر في الفنان العجوز الذي أخذ يذرع المكان على ضوء الشمعة من دون أن يعرف ماذا يصنع بها. وفي ذروة اهتياجه أشعل سيغارة أمسك بها بين إبهامه وسبابته بينما بسط راحة اليد إلى الأعلى على الطريقة الأوروبية. أصرّت إيفلن: سأبقى مع الطفلة بينما تذهب أنتَ إلى العمل. أخيرا استسلم الرجلُ العجوزُ فقط من أجل تفادي الضغطِ الفظيعِ الذي شكّله عليه حضورُها في منزله. اندفع إلى الخارج ومعه حاملُ العرضِ بستاره المخملي الأسود مطويا على ذراعه والصندوق الخشبي الشبيه بحقيبة الذي يحتفظ فيه بأدواته. أغلقت إيفلن الباب وراءه. نظرت إلى الخزانة الزجاجية، إلى بضعة الأكواب والصحون الفخارية المتشظية. تفحصت فراشَ الأدراج، طاولة البلوط الممسوحة والكراسي التي تأكل عليها العائلة. كانت هناك كومةٌ من السراويلِ غير المنتهيةِ على آلة خياطة لدى نافذة حجرة النوم. للآلة مدوسٌ حديديٌّ مزركش. تلألأت نافذةُ حجرةِ النوم بانعكاسِ الشمعة. لمعَ نحاسُ السريرِ الصغيرِ الضيق. شعرت إيفلن بصلةِ قرابةٍ قويةٍ تجمعها بالأم الراحلة. نظرت إليها الفتاةُ من بين الوسائد من دون أن تبتسم أو تقول شيئا. خلعت إيفلن شالها وسترتها البالية ثم وضعتهما على كرسي. في صندوق تَعْبِئَة مقلوب على وجهه إلى جانب السرير مثل طاولة صغيرة، رُصت كتبٌ يديشيةٌ رصّا

محكما. كانت هنالك كتبٌ إنكليزية أيضا، عن الاشتراكية، وكراريس على أغلفتها مشى عُمّال بسواعدَ قويةٍ ومتصلةٍ في مسيرة. لم يشبه أيٌّ منهم تاته الأشيب الهزيل. خلتِ الجدرانُ من أيّ مرايا أو صور للعائلة أو للزوجة والأم المفقودة. عثرت في الحجرة الأمامية على حوضٍ من القصدير المطلي بالزنك. وجدت سطلا ونزلت عبر السلم وملأت السطلَ ماءً من حوض المغسلة الموجودة في الطابق الأرضي. سخّنت الماء على موقد الفحم في الحجرة الأمامية ثم أخذت الحوضَ وسطلَ الماء ومنشفةً خفيفةً منشّاة إلى حجرة النوم. تشبثت البُنية في الأغطية من حولها. نزعت إيڤلن الغطاءَ برفق وأجلستها على حافة السرير ثم رفعت قميص نومها وأنزلتها وسحبت القميص من فوق رأسها، شاعرةً بزفراتِ جسدِها الغضّ دافئةً مثل الشمس. قالت: تعالي وقِفِي لحظةً في الحوض، ثم انحنت أمام الفتاة وحمّمتها في الماء الدافئ، تغرفه بيديها وتمسح الطفلة بماء يديها ثم تعيد الكرّة، على كتفيها المصفرّين، على حلمتيها المتبرعمتين اللتين لهما لونُ البندق، على وجهها، على ظهرها الأملس، على فخذيها النحيلين، على منحدر بطنها الناعم، على عورتها، يتساقط الماء المتدفق من جسدها الغضّ المحموم تساقُطَ المطرِ في الحوض إذ تحمّمها إيڤلن بيديها. ثم ربتتْ بالمنشفةِ المطويةِ البنيةَ تنشّفها وألبستها من جديدٍ قميصا آخرَ وجدتْه في الدرج، قميصا قطنيا واسعا هذه المرة، ضحكت الفتاة من شدّة اتساعه عليها. مهّدت إيڤلن غطاءَ السرير ونفخت الوسائد ثم أعادت الفتاة إلى السرير وتحسّست جبهتها فوجدتها باردة. لمعت عينا البنية الداكنتان في العتمة. مشطت إيڤلن شعرَها الأسود ولمست وجهها واتكأت عليها، فلفّت البنية ذراعيها حول رقبة إيڤلن وقبّلتها على

شفتيها.

في ذلك اليوم فكرت إيڤلن نسبت في اختطاف البنية وترك تاته يواجه مصيره. لم يسأل الفنان العجوز قطُّ عن اسمها ولم يعرف شيئا عنها. في استطاعتها القيام بهذا. عوضا عن ذلك ألقتْ بنفسها في حياة العائلة بجهدٍ مضاعف، مُحضِرةً الطعامَ والقماشَ وكل ما استطاعت تمريره من خلال كبرياء الرجل المعذَّب. خلبتْ لبَّها رغبتُها في أن تصبح فردا من العائلة واستدرجت تاته إلى الكلام وتعلمت من الفتاة كيفيةَ خياطةِ السراويل. لمدة ساعات يوميا، كل مساء، عاشت حياةَ امرأةٍ في الأحياء اليهودية الفقيرة، وكان يأخذها إلى البيت سائقُ تاو من مكان متفق عليه يبعد بضعةَ شوارع، وهي دائما في قنوط. كانت تحب بيأسٍ شديدٍ بحيث لم يعد يمكنها الرؤية بوضوح، لقد حدث شيءٌ لعينيها، فكانت تطرفُ باستمرارٍ كما لو أنها تريد أن تزيل عنهما غشاوة. كانت ترى كل شيء من خلال غشاءٍ من الدموع المالحة، وأصبح صوتُها أجشّ لأن حلقها يستحمّ في البكاء المتواصل والمتعذر كبحُه الذي تثيره سعادتها.

. 8 .

دعاها تاته ذات يومٍ إلى اجتماعٍ أقيم برعاية تحالف الفنانين الاشتراكيين في أسفل شرقيّ مانهاتن مع سبعِ منظماتٍ أخرى. كان حدثا مهما. لم يكن المتحدثُ الرئيسُ سوى **إيما گولدمن**. أوضح تاته بعنايةٍ أنه على الرغم من اختلافه القاطع مع غولدمن، كونها أناركية وهو اشتراكي، يكنّ كثيرا من الاحترام لشجاعتها الشخصية ونزاهتها، وبناءً على هذا وافق على أنّ من المستحسن عقدُ اتفاقٍ مؤقتٍ بين الاشتراكيين والأناركيين، لو يدوم ذلك المساء فقط، لأن التبرعات التي جُمعت للمناسبة ستذهب لصالح صانعي القمصان المُضربين آنذاك، وعمّال الحديد في ماكيسبورت في بنسلڤينيا المُضربين أيضا، والأناركي فرانسيسكو فيرير الذي كانت الحكومة الإسبانية في طريقها إلى إدانته وإعدامه بداعي تهييجِ إضرابٍ عامٍّ في إسبانيا. في خمس دقائق وجدت إيڤلن نفسها مغمورةً باللغوياتِ المنعشةِ للمثاليةِ الراديكالية. لم تجرؤ على الاعتراف لتاته أنها لم تكن تعلم إطلاقا أن الاشتراكية والأناركية ليسا الشيء نفسه، أو أن فكرةَ رؤيةِ سيئةِ السمعةِ إيما غولدمن أفزعتها. سحبت شالها على رأسها وتبعت تاته، تقبض بإحكامٍ على

يد البنية. مشى شمالا نحو قاعة العمال على شرق الشارع الرابع عشر. لكنها التفتت في لحظةٍ ما كيما ترى ما إذا كان معجبُها الغريبُ الخجولُ يلاحقها، وكان كذلك فعلا، على بُعد بضعة مبان، يختفي وجهُه الضامر في ظلّ طاقية القش.

موضوعُ إيما غولدمن كان المسرحيَّ العظيمَ إبسن الذي توجد في كتاباته بحسبِ قولها كلُّ الأدوات التي يتطلبها تحليلُ المجتمعِ تحليلا راديكاليا. لم تكن امرأةً يثير جسدها الإعجاب، كونها قصيرة متينة الخصر بوجه رجولي عريض الفكين. ارتدت نظارةً صدفيةَ الإطارِ كبّرت عينيها وأعطت انطباعا بالغضب الدائم في روحها ضد المَشاهد التي رأتها. تتمتع بحيويةٍ فائقةٍ ولصوتها رنينٌ، وبعد أن تجاوزت إيفلن ارتياحَها باكتشاف أن غولدمن امرأةٌ بيساطة، بل امرأةٌ صغيرة، جرفتها خطابةُ الأفكارِ القويةِ التي رفعت ذهنَها مثل نهر. في الحرارة والاهتياج الدائم الصاعد من الجمهور سمحت لشالها أن يطيحَ على كتفيها. كان هناك حوالي مئةٍ من الحاضرين، جميعهم جالسون على المقاعد أو واقفون على امتداد الجدران، بينما تتحدث غولدمن خلف طاولة في أقصى القاعة. رَكَزَ قسمُ الشرطة بعض رجاله بشكل بارز لدى الأبواب وفي لحظة معينة حاول ضابطُ شرطةٍ إيقافَ خطابِ إيما مدّعيا أنها أخذت تتحدث عن إبسن على عكس ما أُعلن أنها ستتحدث عن الدراما. أجبرته هتافاتُ السخريةِ وصيحاتُ الاستهجانِ على مغادرة القاعة. على رغم ذلك لم تنضمّ غولدمن إلى الضاحكين وقد خبَرَت عن تجربةٍ ما تفعله قوات الشرطة حين تُوضع موضعا محرجا. عندها أسرعت في الحديث وطافتْ عيناها بينما تتحدث الحضورَ بلا هوادة، متوقفةً مرارا وتكرارا عند الوجه المرمري

لإيفلن نسبت التي جلست بين تاته والبُنية في الصف الأول على اليمين، وهو موقع شرف يناسب منصبَ تاته باعتباره رئيس تحالف الفنانين الاشتراكيين. هتفت غولدمن: الحبُّ في الحرية! أولئك الذين دفعوا دمائهم ودموعهم مثل السيدة آلفنغ مقابل صحوتهم الروحانية رفضوا الزواج باعتباره مفروضا، زيفا سطحيا وفارغا. صاح بعض الجمهور، بما فيهم تاته: لا! لا! قالت غولدمن: أيها الرفاق والإخوة، هل يمكنكم أيها الاشتراكيون تجاهل العبوديةِ المزدوجةِ لنصفِ العِرقِ البشري؟ هل تعتقدون أن المجتمع الذي يسلبكم جهدكم ليس له صالحٌ في الطريقة التي تؤمرون بأن تعيشوا بها مع النساء؟ ليس من خلال الحرية ولكن من خلال العبودية؟ يتحدث المُصلحون جميعهم اليومَ عن مشكلة العبودية البيضاء. ولكن إنْ كانت العبوديةُ البيضاءُ مشكلةً فلِمَ لا يكون الزواجُ مشكلة؟ أليس هناك ارتباطٌ بين مؤسسة الزواج ومؤسسة الدعارة؟ عند ذكرِ هذه الكلمةِ ملأت القاعة صيحات: عار! عار! وضع تاته يديه على أذني بنته وضغط رأسها على جنبه. نهض رجلٌ وصاح. رفعت غولدمن يدها أنِ اهدأ. أيها الرفاق، دعونا نختلف بطبيعة الحال، لكن ليس بفقدان ذوقنا إلى المدى الذي يُعطي الشرطة حُجّة في مقاطعتنا. وبالفعل رأى الناس الملتفتون في مقاعدهم دزينةً من رجال الشرطة في الحشد عند الأبواب. واصلت غولدمن حديثها بسرعة: الحق أن النساء لا يحقّ لهن الآن التصويت، لا يحق لهن أن يُحبِبن من يشأن، لا يحق لهن أن يُنمّين عقولهن وأرواحهن، لا يحق لهن أن ينذرن حيواتهن لمغامرة الحياة الروحانية، لا يحق لهنّ يا رفاق! ولماذا؟ هل تنحصر موهبتُنا في أرحامنا؟ أليس في وسعنا أن نؤلف كتبا وأن ننتج معرفة علمية وأن

نعزف الموسيقى وأن نقدم نماذجَ فلسفيةً لما فيه خيرُ البشرية؟ هل يجب أن يكون قَدَرنا دائما جسديا؟ تجلس بيننا هذا المساء واحدةٌ من أذكى النساء في أمريكا، امرأةٌ أرغمها هذا المجتمعُ الرأسماليُّ على أن تجد موهبتها في ممارسة جاذبيتها الجنسية-ولقد قامت بذلك، يا رفاق، إلى درجةٍ جعلتها موضعَ حسدِ بيربونت مورغن وجون دي روكفيلر. ومع ذلك اسمها عارٌ بينما يتلو اسميهما بتبجيلٍ واحترامٍ مشرّعو هذا المجتمع المتملقون. أصاب إيڤلن فتور. أرادت أن ترفع الشال إلى رأسها لكنها خشيت أن تلفت إلى نفسها الانتباهَ. جلست في سكونٍ تامٍّ تحدق إلى يديها في حضنها. على الأقل كان يُحسب للمرأة فضلُ أنها لم تكن تنظر في اتجاهها وهي تتحدث. الناس من الجمهور الذين مدّوا رقابهم محاولين تحديد مَن تقصد غولدمن بتعليقها حرفتْهم الآن صيحةٌ جاءت من آخر القاعة. تكدست حول الأبواب كتيبةٌ من المعاطف الزرقاء. كانت هناك صرخة. ثم فجأة استحالت القاعة هرجا ومرجا. كانت ختاما نموذجيا لأي خطابٍ تلقيه إيما غولدمن. ملأ رجالُ الشرطة ممرَّ المنتصف. وقفت الأناركيةُ هادئةً خلف طاولتها ووضعت أوراقها في حقيبتها. أحسّت إيڤلن نسبت بوجود عينيْ تاته فالتفتت لتصبح هدفَ حملقةِ ظنّه. أخذ ينظر إليها كما رأته ينظر إلى صرصور قبل أن يطأه. ثم بدا وجهه العجوز ينهار إلى مجموعة أخرى من التجاعيد والخطوط أكثر تعقيدا، وكأن كامل وجوده استقر في آخر عمر قبل الممات. ترجمت لها عيناه، من أعماق جمجمته العتيقة، عبارةً يديشيةً مهموسةً أتت من شفتيه المتشققتين. كان هذا ما قاله: لقد دنستْ حياتي العاهرات. وإذ التقط يدَ البُنية ذات المئزر اختفى في الحشد.

وقفت إيڤلن محدقةً فيهما. شعرت بالضوء ينسحب من عينيها. امتدت يدها باحثةً عن شيء تُمسك به. قال في أذنها صوتٌ أصبح الآن مألوفا عندها: من هنا، تعالي معي، وكانت يدُها في قبضة غولدمن نفسِها. كانت قبضةً من حديد. قادتها غولدمن عبر باب صغير خلف طاولة المتحدث وقبل أن يُغلق البابُ بثانيةٍ التفتت إيڤلن إلى الوراء، وهي تطلق عويلا رفيعا وحادّا من حلقها، فرأت ظلّها الشابَّ الخجولَ الأشقرَ يشقّ طريقه بشراسة في اتجاهها. قالت إيما غولدمن وهي تقودها في سلّم معتم: أنا خبيرةٌ في هذا. هذا مجردُ مساءٍ عادي. أفضى السلمُ إلى الشارع القريب من مدخل قاعة الاجتماع. تجاوزتهما عربةٌ للشرطة يرن جرسها وانعطفت عند الزاوية. قالت إيما غولدمن: تعالي، رابطةً ذراعها وأخذت إيڤلن على عجلٍ في الاتجاه المعاكس.

لمّا بلغ الخالُ الأصغرُ الشارعَ تمكن من رؤية المرأتين تعبران من تحت إشارة مرور على بُعد مُربّعين سكنيّين. حث الخُطى في إثرهما. كان المساء باردا. أصابه عَرقُ رقبته بقشعريرة. خَفَقَ نسيمٌ بنطالَه. اقترب من المرأتين مقدارَ بنايةٍ أو اثنتين وظلّ يتبعهما على هذه المسافة بضعة دقائق. انعطفتا فجأةً وصعدتا الدرَج الحجري لمنزل من الحجر البُني. حينها ركض وحينما بلغ المنزل رأى أنه دارُ ضيافة. دخل وبهدوءٍ صعدَ الدرج، من دون أن يدري عن أيّ غرفة يبحث لكنه متأكد أنه سيعثر عليها. في الطابق الثاني تراجع إلى تجويفِ معتمٍ لباب. عبرت غولدمن وهي تحمل طشتا في طريقها إلى الحمام. سمع صوتَ الماء يتدفق ووجد بابَ غرفةِ غولدمن مواربا. كانت غرفةً صغيرةً، وإذ استرق النظرَ من الباب رأى إيڤلن نسبت جالسةً على

السرير تضع وجهها في يديها. يهز التنهّدُ جسدها. كان لون الجدران ليلكيّا باهتا. مصدر الإنارة الوحيد مصباحٌ كهربائي على جانب السرير. لما سمع الخالُ الأصغر غولدمن عائدةً وثب بخفةٍ واندسّ في خزانة الغرفة. ترك باب الخزانة مفتوحا بعض الشيء.

وضعت غولدمن طشتَ الماء على منضدة السرير ونفضت منشفةَ وجهٍ خفيفةً منشّاة. قالت: فتاة بائسة، فتاة بائسة. لِمَ لا تدعيني أُريحك قليلا. أنا ممرضة، كما تعلمين، هكذا أساعد نفسي. لقد تابعتُ قضيتَك في الصحف. من البداية وجدتُ نفسي معجبةً بك. لا أفهم السبب. فكّت رباطَ حذاءِ إيفلن العالي وخلعته. قالت: ألا تريدين أن ترفعي قدميك؟ هكذا. اضطجعت إيفلن على الوسائد تفرك عينيها برسغ يدها. أخذت المنشفةَ التي قدمتها لها غولدمن. قالت: أوه، كم أكره أن أبكي. يجعلني البكاء بشعة. بكت في المنشفة. واصلت غولدمن: على كل حال، لستِ إلا عاهرا ذكية. قبلتِ بالظروف التي وجدتِ نفسك فيها وانتصرتِ. لكن أيّ نصرٍ كان ذلك؟ إنه انتصار العاهر. وماذا كانت عزاءاتك؟ عزاءات الخوف، الازدراء، احتقار الذكر البشري. سألتُ نفسي: لماذا ينبغي أن أشعر بقوّة بشعورِ الأختِ تجاه هذه المرأة؟ على أية حال، لم أقبل الاستعبادَ قطّ. كنتُ حرة. ناضلتُ طيلة حياتي من أجل أن أكون حرة. ولم أصحب رجلا قطّ إلى السرير من دون أن أحبه، من دون أخذِه في الحب باعتباره إنسانا حرا، مساوية له، معطية وآخذة بالقدر نفسه في الحب والحرية. ضاجعتُ على الأرجح رجالا أكثر مما فعلتِ. أحببتُ رجالا أكثر مما أحببتِ. وأراهن على أنه سيصدمك أن تعرفي كم كنتُ حرة، في أي حريةٍ عشت حياتي. لأنك مثل كل العاهرات تقدّرين الاحتشام. أنت

صنيعةُ الرأسمالية بأخلاقياتها الفاسدة والمنافقة جدا بحيث لا يتعدى جمالُك جمالَ الذهب، مما يعني أنه زائفٌ وفاترٌ ومهدور.

ما من كلماتٍ غير هذه الكلمات أقدرُ على إيقاف دموع إيڤلن. أرخت المنشفة عن وجهها وحدقت إلى الأناركية القصيرة الجريئة التي كانت حينها تذرع الغرفةَ جيئة وذهابا أمام السرير بينما تتحدث. لماذا إذنْ كان ينبغي عليّ أن أشعر بهذه العلاقة القوية بيننا؟ أنت تجسيدٌ لكل ما آسَفُ عليه وأمقته في امرأة. عندما رأيتك في الاجتماع كنتُ مستعدة لقبول القاعدة الصوفية لكل التجارب. أنت أتيتِ لأنه بمثل هذه الطرق التي يعمل بها الكون، كان مقدَّرا لحياتك أن تتقاطع مع حياتي. عبر الأعماق الدنيئة لوجودك قادك قلبُك إلى الحركة الأناركية.

هزّت نسبت رأسها. قالت: أنت لا تفهمين. اغرورقت عيناها بالدموع من جديد. أخبرت غولدمن عن البُنية ذات المئزر. أخبرتها عن تاته وعن حياتها السرية في الأحياء الفقيرة. قالت: والآن فقدتُهم. لقد فقدتُ بُنيتي الصغيرة. بكت بحرقة. جلست غولدمن في الكرسي الهزاز إلى جوار السرير ووضعت يديها على ركبتيها. مالت نحو إيڤلن نسبت. حسنا، لو لم أُشِرْ إليك في تعليقي ما كان لتاته هذا أن يفرّ. ولكن ماذا في ذلك؟ لا تقلقي. الحقيقةُ خيرٌ من الأكاذيب. عندما تجدينهما من جديد ستكونين قادرة على أن تتعاملي معهما بصدق، كما أنتِ حقا. وإن لم تجديهما فقد يكون ذلك من صالحك. مَن يستطيع أن يحدّد الوسائلَ من الناس؟ أيّنا يسبّب، ويعيش في الآخرين ليسببوا، وأينا مقدَّر له أن يعيش؟ هل تعلمين أني مشيتُ في مرحلةٍ من حياتي في الشوارع كي أبيع جسدي؟ أنتِ أولُ شخص أُسِرّ

إليه بهذا على الإطلاق. لحسن الحظ اكتُشِفتُ بسبب أنني مبتدئة وأُعِدت إلى البيت. كان ذلك على الشارع الرابع عشر. حاولت أن أبدو مثل مومس ولم تنطلِ خدعتي على أحد. لا أظن أن اسم ألكساندر بيركمن يعني لك شيئا. هزّت إيڤلن رأسها. عندما كنّا أنا وبيركمن في أوائل العشرينات من العمر كنا عاشقيْن وثوريين معا. حدث إضرابٌ في بتسبيرغ. في مصنع هومستد للصُّلب الذي يملكه السيد كارنيغي. اعتزم السيد كارنيغي أن يحلّ نقابة العمال. وهكذا فرّ في إجازة إلى أوروبا وأوكل بالمهمة إلى قائده اليوم، الحثالةِ سيئ الذكر هنري كلاي فريك. استورد فريك جيشا من وكالة بنكرتون للشرطة السرية. كان العمال مضربين احتجاجا على تقليص الأجور. يقع المصنع على نهر موننغاهيلا، ولذا سحب فريك جيشَ بنكرتون عبر الماء وأنزلهم إلى المصنع من النهر. دارت هناك معركةٌ ضارية. كانت حربا. لما انتهت كان عشرةٌ قد قُتلوا وجُرح العشراتُ والعشرات. قِيد رجالُ بنكرتون إلى ديارهم. ثم استطاع فريك بعد ذلك أن يحصل على خدمات الحكومة فحضرت ميليشيا الولاية وأحاطت بالعمال. في هذه المرحلة اتفقنا أنا وبيركمن على محاولة الاغتيال. أردنا أن نرفع معنوياتِ العمال المحاصَرين. أردنا أن نجعل نضالهم ثوريا. أردنا أن نقتل فريك. لكننا كنا في نيويورك ولم نكن نملك مالا. احتجنا إلى نقودٍ من أجل تذكرةِ القطار ومسدس. كانت تلك اللحظة التي ارتديتُ فيها ملابس داخلية مطرزة ونزلت إلى الشارع الرابع عشر. أعطاني رجلٌ عجوزٌ عشرة دولارات وأمرني أن أعود إلى البيت. اقترضتُ الباقي. لكني كنت سأفعلها لو اضطررت. كانت من أجل الاغتيال. كانت من أجل بيركمن والثورة. عانقتُه في المحطة. خطط لرمي فريك بالرصاص في

يوم محاكمته ثم الانتحار. ركضتُ خلف القطار المبتعد. لم نملك من النقود ما يكفي لأكثر من تذكرة واحدة. قال إن المهمة تتطلب شخصا واحدا فقط. اقتحم مكتبَ فريك في بتسبيرغ وأطلق على ابن الزنا ثلاث طلقات. في الرقبة، في الكتف. كان هناك دم. انهار فريك. هرع الناس إلى المكتب. أخذوا المسدس. كان يحمل سكينا. طعن فريك في ساقه. أخذوا السكين. وضع شيئا في فمه. ثبتوه على الأرض. فضّوا فكّيه. كانت كبسولةَ فلمينات الزئبق المتفجر. كل ما كان عليه فعله هو قضم الكبسولة لتتفجر الغرفة بكل مَن فيها. أمالوا رأسه إلى الخلف. انتزعوا الكبسولة. أوسعوه ضربا حتى فقد وعيه.

انتصبت إيڤلن في السرير رافعة ركبتيها إلى صدرها. حدقت غولدمن إلى الأرض. قالت: ظل في السجن ثماني عشرة سنة جُلّها في الحبس الانفرادي، في زنزانة. زرتُه مرةً واحدة. لم أحتمل قطُّ أن أزوره مرة أخرى. وفريك ابن الزنا ذاك نجا من الموت وأصبح بطلا في الصحافة وانقلب الناس على العمّال وأنهى الإضراب. قِيل إننا أعدنا الحركةَ العماليةَ الأمريكيةَ أربعين سنة إلى الوراء. كان هناك أناركي آخر، رجل عجوز أوقّره اسمه موست. شجبني أنا وبيركمن في صحيفته. في المرة التالية التي رأيت فيها موست في اجتماعٍ كنت مستعدة. اشتريت سوطَ خيول. سُطتُه أمام الجميع. ثم كسرت السوطَ ورميته في وجهه. لم يخرج بيركمن من السجن سوى العام الماضي. راح شعرُه. غدا له لونُ ورقِ المخطوطات. أما رجُلي وحبيبي الشاب فيمشي محدودبَ الظهر. عيناه مثل حفرتَي فحم. نحن صديقان من حيث المبدأ فقط. لم يعد قلبانا يخفقان بالنغمة نفسها. الذي قاساه في ذلك السجن لا أستطيع إلا تخيله. عاش في

الظلام والبلل، مقيدا ومتروكا للنوم في قذارته. امتدت ذراع إيڤلن إلى المرأة التي تكبرها فأخذت غولدمن يدها وضمتها بقوة. كلتانا نعلمُ ماذا يعني أن يكون لنا رجلٌ في السجن، أليس كذلك؟ نظرت المرأتان إلى بعضهما. ران صمتٌ لبضع دقائق. قالت غولدمن: بالطبع رجُلك منحرف، عالة، عَلَقة، شهواني قذر يثير الاشمئزاز. ضحكت إيڤلن. قالت غولدمن: خنزير معتوه بعقلية خنزير صغير منحرف ومنكمش. هنا ضحكتا معا. صاحت إيڤلن: أجل، إنني أكرهه. أطرقت غولدمن رأسها متأملة. لكن هناك توافقاتٌ كما ترَيْن، تتوافق حيواتنا، تتلامس أرواحنا مثل نوتاتٍ موسيقيةٍ في انسجام، وفي مُجمل القدر الإنساني نحن أختان. هل تفهمين ذلك يا إيڤلن نسبت؟ وقفت ولمست وجه نسبت. هل تفهمين ذلك يا فتاتي الجميلة؟

بينما كانت غولدمن تتحدث، استجابت عيناها إلى شيء في وقفة إيڤلن. سألتْ من فورِها: هل ترتدين مِشَدّا؟ أومأت إيڤلن. يجدر بك أن تشعري بالعار من نفسك. انظري إليّ، على رغم جسدي لا أرتدي من الملابس الإضافية قطعةً واحدة، أرتدي كلَّ ما هو فضفاض ومتدفق، أمنح جسدي حريةَ أن يتنفس وأن يكون. هذا ما أعنيه؛ أنت مخلوقةٌ من صنيعهم. لا تحتاجين إلى مِشدّهم أكثر مما تحتاجه حوريةُ الخشب. أخذت يدا نسبت وأجلستها على حافة السرير. تحسست خصرَها. يا إلهي، مِشدٌّ كأنه الحديد. خصرك مقبوضٌ أضيقُ من سلسلة شنطة يد. انهضي. قامت إيڤلن بإذعانٍ وفكّت غولدمن بخبرةِ ممرضةٍ وبسرعةٍ أزرارَ قميصها وأزالته. حلّت تنورةَ إيڤلن وأمرتها بأن تخطو خارجها. ثم فكّت خيوطَ تنورتها الداخلية ونزعتها. رفع أعلى المشد صدرَها. أدناه كان موصولا بأحزمةٍ

مرّت من بين فخذيها. كان المشد معقودا برياط من الخلف. قالت غولدمن وهي تجر الرباط من حلقات المشد مُرخية القطعة وساحبة إياها عن ساقي إيڤلن: من المفارقة أنك يُنظر إليك في منازل أمريكا كلها باعتبارك اللعوبَ الداعرةَ الفاحشة. اخطي خارجه. أطاعتها إيڤلن. ظل رداؤها الداخلي ملتصقا بجسدها من عند رباط المشد. أمرت غولدمن: تنفسي، ارفعي ذراعيك، ابسطي ساقيك وتنفسي. أطاعت إيڤلن. خلعت غولدمن الرداء الداخلي رافعة إياه من فوق رأسها. ثم انحنت وسحبت سروالَ إيڤلن التحتي ذا أطراف الدانتيل إلى قدميها. اخطي خارجه، قالت آمرةً ففعلت إيڤلن. وقفت الآن على ضوء المصباح عاريةً إلا من جوربيها القطنيين الأسودين المطرزين المشدودين إلى أعلى الفخذين بواسطة أحزمةٍ مطاطة. برمت غولدمن الجوربين إلى الأسفل وخرجت إيڤلن من جوربيها. وضعت ذراعيها فوق نهديها. وقفت غولدمن وأدارتها تتفحصها بوجهٍ عابس. انظري إلى هذا، رائع أن الدمَ يدور في جسدك ما يزال. ظهرت أماراتُ المشد العمودية كأنها سيورٌ حول خصر نسبت. يمكن أن يُرى أثرُ أربطةِ الجوربين خطوطا حمراء تجري حول أعلى فخذيها. قالت غولدمن: النساء يقتلن أنفسهن. قلبت غطاءَ السرير. أخذت من فوق المنضدة حقيبةً سوداءَ صغيرةً من النوع الذي يحمله الأطباء. جسدٌ فاتنٌ مثل هذا وانظري ماذا تفعلين به. استلقي. جلست إيڤلن على السرير ونظرت إلى ما هو خارجٌ من الحقيبة السوداء. قالت غولدمن: على بطنك. كانت تمسك بقارورةٍ وتميل مُحتواها في كفّ يدها المقعر. انبطحت إيڤلن على بطنها ومسحت غولدمن السائلَ فوق آثار المشدّ على لحمها المحمرّ. صاحت إيڤلن: آو، إنه يلسع!

أوضحت غولدمن بينما تفرك ظهر إيڤلن وردفيها وفخذيها: هذا محلولُ العَقُول؛ أول ما يقوم به استعادةُ الدورة الدموية. أخذت إيڤلن تتلوى وجعل جسدُها ينكمش مع كل مرة يُدهن فيها. دفنت وجهها في الوسادة كيما تخفي بكاءَها. أعرف، أعرف، قالت غولدمن، لكنك ستشكرينني. تحت فركِ غولدمن القوي بدا أن جسد إيڤلن يثبُ إلى أقصى تشكلاته. كانت ترتجف وكان ردفاها مقبوضان تحت برد المحلول العَقول المنعش. ضغطت ساقيها معا. حينها أخذت غولدمن من حقيبتها قنينةَ زيتِ مساج وشرعت تدلّك رقبة إيڤلن وكتفيها وظهرها، فخذيها وعراقيبها وأخمص قدميها. ارتخت إيڤلن تدريجيا وارتعش جسدها واهتزّ تحت مهارة يدي غولدمن الرائعة. فركت غولدمن الزيتَ على بشرتها حتى وجد جسدُها كينونته البيضاء المتوردة الطبيعية وبدأ يضجّ بالتصور الذاتي. انقلبي، أمرت غولدمن. كان شعر إيڤلن منكوشا ومتفرقا على الوسادة من حول وجهها. كانت عيناها مغلقتين وشفتاها ممطوطتين في ابتسامة تلقائية بينما تدلّك غولدمن نهديها وبطنها ثم ساقيها. نعم، حتى هذا، قالت إيما غولدمن، وهي تمرر يدها برشاقةٍ فوق العانة. عليك أن تتحلّي بالشجاعة من أجل أن تعيشي. بدا أن ضوءَ مصباح جانب السرير خفتَ لحظة. وضعت إيڤلن يديها على نهديها ودار كفاها فوق حلمتي صدرها. انزلقت يداها إلى الأسفل حيث خاصرتيها. فركت وركيها. استدقّت قدماها مثل قدمي راقصة والتوت أصابع قدميها. ارتفع حوضها عن السرير كما لو أنه يطلب شيئا في الهواء. كانت غولدمن في هذه اللحظة أمام المنضدة تغطي قوارير مستحضرات الترطيب، ظهرها إلى إيڤلن، بينما بدأت المرأة الشابة تتموج فوق السرير مثل

موجةٍ على البحر. عندئذٍ صدرت من الجدران صرخة غريبة غليظة واندفع باب الخزانة مفتوحا، وسقط الخال الأصغر في الغرفة، وجهه ملتو في نوبةٍ من طقسٍ كبحِ الشهواتِ الوَرِعِ. كان يقبض بيديه على ذَكَرٍ هائجٍ كما لو أنه كان يحاول أن يخنقه. على الأرض خفقه ذكره، الذي ازدرى نواياه، مضيفا إلى صيحات النشوة أو اليأس التي أطلقها دفقاتٍ مخيطةٍ من المنيّ تتابعت في الهواء مثل رصاصٍ واستقرت ببطء على إيڤلن في سريرها كأنها شريط ورقي.

9

في نيو روتشيل ظلت الأم تفكّر مليّا في أخيها. طلبها على الهاتف من نيويورك مرة أو مرتين، غير أنه لم يخبرها لماذا ابتعد ولا أين يقيم ولا متى سيعود. كان يغمغم. كان صموتا. حنقت عليه. لم يردّ على غضبها. اتخذت منذ اتصاليْه الخطوةَ المتطرفةَ بدخولها غرفته والبحث فيها. كالعادة كانت مرتبة. هناك طاولته وعليها ماكينةُ خياطةٍ أوتارِ مضاربِ التنس. على أرفف الحائط مجاديفه. كان يصون غرفته فلم تكن فيها ذرة غبار حتى في غيابه. فُرش الشعر على سطح المنضدة. لسان نعلِه العاجيّ. صدفة صغيرة على شكل كشتبان بحبات رمل ملتصقة بها، لم ترها قط. صورة من مجلة مدبَّسة على الجدار، رسمة تشارلز دانا غبسن للمخلوقة التي تدعى إيفلن نسبت. لم يحزم شيئا، تملأ قمصانُه وياقاتُه الدُّرج. أوصدت الباب شاعرةً بالذنب. كان شابا غريبا، لم يصادق أحدا قط، وحيدا وجامدَ العاطفة ما عدا نزعة الكسل التي إما أنه لم يستطع إخفاءها أو أنه لم يكترث لإخفائها. تعرف أن الأب يُقلقه ذلك الكسل. ومع ذلك فقد قام بترقيته إلى مسؤولياتٍ أكبر.

لم تشارك مخاوفَها الجدَّ الذي أنجب الشابَّ في عمرٍ متأخر وأمسى الآن معزولا عن أيّ فهمٍ عمليٍّ للحياة. الجد في التسعينات من عمره. كان بروفيسورا متقاعدا في اليونانية واللاتينية درّس أجيالا من تلاميذ اللاهوت الأسقفي في كلية شيدي غروف في وسط أوهايو. كان ريفيا متخصصا في الكلاسيكيات. عرفَ جون براون يومَ أن كان صبيا في مقاطعة هدسن في المحمية الغربية وسيخبرك بهذا عشرين مرة في اليوم إن سمحتَ له. منذ مغادرة الأب أخذت الأم تفكر بتزايدٍ في مسكن أوهايو القديم. الأصيافُ هناك حُبلى بالوعود والشحاريرُ حُمرُ الأجنحةِ تطير من مروج القش. أثاثُ المنزل مقتصدا ومصنوعا في الريف. كراسٍ بظهور عالية من خشب الصنوبر. أرضيات خشبية مصقولة بألواح عريضة مثبتة بالمسامير. تحب ذاك المنزل. كانت تلعب هي والخال الأصغر على الأرض على ضوء النار. في ألعابهما كانت دائما ما توجّهه. في الشتاء يُربط حصانهم بيسي إلى المزلقة وتُعلّق أجراسٌ في عنقه ثم يتزلجان فوق جليد أوهايو الكثيف والرطب. تذكرت أخاها عندما كان أصغر من ابنها الآن. كانت تعتني به. في الأيام الممطرة يلعبان ألعابَ تظاهرٍ سريةٍ في مخزن الغلال، في الدفء العذب، والخيول تشخر وتصهل من تحتهم. في صباح الأحد تلبس فستانها الوردي وأنصع البنطلونات بياضا وتذهب إلى الكنيسة بقلب يدق إثارة. كانت طفلة بعظام عريضة ووجنتين مرتفعتين وعينين رماديتين منحرفتين قليلا. عاشت في شَيدي غروف طوال حياتها ما عدا أربع سنواتٍ قضتها في مدرسة داخلية في كليفلند. طالما افترضت أنها ستتزوج من أحد دارسي اللاهوت. لكن في سنتها الأخيرة في المدرسة التقتِ الأب. كان مسافرا عبر الوسط الغربي لإجراء اتصالات محلية

لمبيعات نشاطه التجاري المتعلق ببيع الأعلام وأقمشتها. زارها في شيدي غروف في رحلتي عمل متتاليتين. عندما تزوجا وجاءت إلى الشرق أخذت أباها معها. ثم انضم الأخ أيضا إلى المنزل في نيو روتشيل بعد أن لم يستطع الاستقرار. والآن في هذا الفصل من الحياة، في بيتها الحديث المسقوف في قمة ربوة على جادة برودڤيو العصرية، وحيدةً إلا من ابنها الصغير وأبيها الهَرِم، تشعر بالخذلان من جنس الذكور والحنق على نفسها بسبب الحنين الذي يجرفها دونما إشعارٍ في أي ساعةٍ من الليل أو النهار. وصلت من اللجنة الجمهورية الافتتاحية رسالةٌ تسأل عمّا إذا كانت الشركة ترغب في الدخول في مناقصة على عقد الديكور والألعاب النارية للمسيرة الافتتاحية وحفلة الرقص في يناير القادم، حيث يُتوقع أن يخلفَ السيدُ تافت السيدَ الرئيسَ روزڤلت. كانت لحظة تاريخية بالنسبة للنشاط التجاري ولكن لا الأب موجودٌ ولا الخال الأصغر. هربت إلى الحديقة تسلّي نفسها. كان الوقت آخر سبتمبر وكل الأزهار الثقيلة المتمايلة مبرعمة، أزهار القويضة والأقحوان والقطيفة. مشت حول حدود الفناء مشبوكة اليدين. من نافذةٍ في الطابق العلوي راقبها الصبي. لاحظ أن الحركة الأمامية لجسدها كانت تنتقل إلى ملابسها بشكل أفقي. يتثنّى هدبُ تنورتها من جانبٍ إلى جانبٍ ماسّا أوراق العشب. أمسك في يده برسالة من أبيه قد أُرسلت من كيب يورك في شمال غرب غرينلاند. أعيدت إلى الولايات المتحدة عبر سفينة المؤَن «إيريك» التي نَقلت إلى غرينلاند خمسة وثلاثين طنا من لحم الحيتان لكلاب الضابط روبرت بيري. نسخت الأم الرسالة ورمتِ الأصل في القمامة لأنها تفوح برائحة الحوت الميت. استعاد الصبي الرسالة وبمرور الوقت انتقل

نَزُّ بقعِ الزيت على الظرف إلى كل ليفٍ من أليافِ الورقة بفعل يديه الصغيرتين. غَدَتِ الورقةُ الآن شفافة.

بينما راقب الصبي أمه خرجتْ من ظل أشجار القيقب المرقَّط، وتوهج مثلُ الشمسِ شعرُها الذهبي الذي كانت تجمعه فوق رأسها وفقا للموضة. توقفت لحظة كأنما تصغي إلى شيء ما. رفعت يديها إلى أذنيها وجثت ببطء على ركبتيها عند حوض الأزهار. ثم جعلت تنبش الأرض. غادر الصبيُّ النافذة ونزل الدرج مسرعا. عبَرَ المطبخ وخرج من الباب الخلفي. وجد نفسه يتبع الخادمة الآيرلندية التي كانت تقطع الفناء راكضة وهي تمسح يديها على مريلتها.

حفرت الأم فاستخرجت شيئا. كانت تنفض التراب عن قِماطٍ تضعه في حضنها. أطلقت الخادمة صرخةً ورسمت الصليب على صدرها. حاول الصبي أن يلقي نظرة عليه، أيّا يكن، لكن الأم والخادمة كانتا على الأرض تنفضان التراب، ولوهلة لم يستطع تجاوزهما. شحب وجه الأم كثيرا وعانى انفعالا شديدا حتى أن عظامَ وجهها بدا وكأنها كبرت وصدمه أن المرأةَ وافرةَ الجمال التي طالما وقّرها قد أمستْ هزيلةً هزالَ عجوز. بينما كانتا تنفضان التراب رأى أن القِماطَ إنما يلفّ رضيعا، التراب في عينيه، في فمه. بدا ضئيلا ومتغضّنا وكانت عيناه مغمضتين. كان طفلا أسمر ملفوفا بإحكام في دِثار قطني. حررت الأم ذراعيه. أطلق صرخةً صغيرةً واهنةً فضحكت المرأتان ضحكا هستيريا. هرعت الخادمة إلى المنزل. لحق الصبي أمه إلى المنزل راكضا بمحاذاتها بينما تدلّت ذراعا الطفل الأسمر في الهواء.

غسلت المرأتان الطفلَ في حوض على طاولة المطبخ. كان طفلا حديثَ الولادة ملطخا بالدم وغير مغسول. تفحصت الخادمةُ حبلَه

السري وقالت إنه مقصوص بأسنان. لفّتاه في مناشفَ وركضت الأم إلى القاعة الأمامية كي تهاتف الطبيب. راقب الصبيُّ الرضيعَ عن كَثَبٍ كيما يرى ما إذا كان يتنفس. كان ساكنا تقريبا. ثم تشبثت أناملُه الصغيرة بالمناشف. دار رأسُه ببطء كما لو أنه رأى بعينيه المطبقتين شيئا يُرى.

لما جاء الطبيب في سيارة من طراز فورد أُخِذَ إلى المطبخ. وضع سماعته على القفص الصدري الضئيل الناتئ. فتح الفمَ وأقحم إصبعه في الحلق. قال: يا لهؤلاء الناس. هز رأسه. شدت عضلاتُ خديه زاويتَي فمِه. وصفت له الأمُ ظروفَ الاكتشاف: كيف سمعتْ صرخةً آتيةً من قدميها، من الأرض، وفكرت في اللحظة التي سمعتها أنها لم تسمعها على الإطلاق. قالت لنفسها: وماذا لو واصلتُ المشي. طلب الطبيب بعض الماء الحار. أخرج أداةً من حقيبته. قبضت الخادمة بقوةٍ على الصليب الصغير الذي تدلى من رقبتها في سلسلة. رنّ جرسُ الباب وتبعها الصبي إلى القاعة الأمامية. وصل رجالُ الشرطة. خرجت الأم وشرحت الظروفَ مرة ثانية. سأل الشرطي عما إذا كان يستطيع استخدام الهاتف. كان الهاتف على طاولة قريبة من الباب الأمامي. نزع خوذته والتقط الهاتفَ ووضع السماعة على أذنه وانتظر المشغّل. غمز الصبيَّ.

في غضون ساعةٍ عُثر على امرأة سوداء في قبو منزل في المربع السكني المجاور. كانت امرأة تعمل غسّالة في الحي. جلست خارج المنزل في سيارة إسعاف الشرطة وجاءت الأم بالطفل إليها في الخارج. عندما أخذت المرأةُ الطفلَ بين ذراعيها بدأت تبكي. صُدمت الأم من شبابها. لها وجهُ طفل، وجهٌ أسمرٌ جميلٌ وبريء. لها لونُ الشوكولاتة

الداكنة وبدا شعرُها مقصوصا وغير مُعتنًى به. قامت ممرضةٌ على رعايتها. خطت الأم إلى الوراء في الرصيف. سألت للطبيب: أين ستأخذونها. قال: إلى دار الرعاية. وفي النهاية ستتحمل التهمَ التي ستوجّه إليها. قالت الأم: أيّ تهم؟ حسنا، محاولة القتل كما أظن. قالت الأم: ألديها عائلة. قال الشرطي: كلا يا سيدتي. على حدّ علمنا ليس لها عائلة. سحب الطبيب حافةَ قبعتِه إلى الأسفل وسار إلى سيارته فوضع حقيبته على المقعد. أخذت الأم نفسا عميقا. قالت: سأتحمل المسؤولية. أرجوك هاتِها إلى الداخل. ولم تبدّل رأيها رغم نصائح الطبيب المُخلِصة واحتجاجات الشرطة.

هكذا خُصِّصت للمرأة السمراء الشابة وطفلها غرفةٌ في أعلى طابق. أجرت الأم عددا من المكالمات الهاتفية. ألغت اجتماعها في دائرة الخدمة الاجتماعية. ذرعت ردهتها جيئة وذهابا شديدة التوتر. شعرت بشدةٍ بغيابِ زوجها ولامت نفسَها على تأييد رحلاته بسهولة. لم يكن هناك سبيلٌ للتواصل معه بخصوص أيٍّ من مشاكل حياتها وهمومها. لن تسمع منه جوابا حتى الصيف المقبل. حدقت إلى السقف كما لو أنها ترى من خلاله. نقلتِ الفتاةُ الزنجيةُ وطفلها إلى المنزل إحساسا بالنحس، بالفوضى، والآن استقر هذا الإحساس هنا كأنه ضَربٌ من ضروب التلوث. كانت خائفة. ذهبت إلى النافذة. كل صباح تصعد هؤلاء الغسّالات الربوةَ قادماتٍ من خط عربات الترام على جادة نورث وينتشرنَ في البيوت. يشذب بستانيّون إيطاليون متنقلون مروج العشب. يمشي رجال الثلج إلى جوار عرباتهم، تجهد من خلفهم خيولهم وهي تسحب عربات الثلج الصارَّة صاعداتٍ بها الربوة.

تلك العشية كمنت الشمس عند غروبها في أسفل الربوة وكأنها تدحرجت إلى هناك. كانت قانيةً بلون الدم. وفي الليل استيقظ الصبيُّ فوجد أمه جالسة إلى جوار السرير تنظر إليه، شعرها الذهبي مضفرٌ وصدرها الكبير طريّ إذ مسَّ ذراعه حين مالت لكي تقبّله.

10

في الواقع كتب الأب يوميًا خلال أشهر الشتاء الطويلة رسائلَ للإرسال المتأخر أخذتْ شكلَ تدويناتٍ في دفتر اليوميات. بهذه الطريقة استطاعَ قياسَ تدفقِ ظلامِ الشفق الذي لا ينقطع. عاش أعضاءُ الرحلة في راحة مدهشة على متن «روزڤلت» التي رفعتها في مرساها طوافي الشتاء الجليدية حتى استقرت مثل حبةِ جوزٍ فوق كريمة تزيين الكيك. عاش بيري في أقصى رفاهية. لديه بيانو آليّة في قاعته. كان رجلا ضخما بجذعٍ ثقيل وشعرٍ كثيفٍ أحمر آخذ في الشيب وشارب طويل. في رحلة سابقة فقد أصابعَ قدميه. يمشي مشيةً غريبةً كأنما يجرّ قدميه دافعا إياهما على الأرض من دون أن يرفعهما. يدوس مكابح البيانو بقدمين مبتورتي الأصابع. يحمل معه اسطواناتٍ من أفضل ما عزف ڤيكتور هيربرت ورودلف فريمل إضافة إلى مزيج من أغاني بودوين كولدج ونسخة من معزوفة فريدريك شوبان «الفالس المصغّرة» يستطيع أن يضغطها في ثماني وأربعين ثانية. لكن أشهر الشتاء لم تخصَّص للبطالة. كانت هناك غاراتُ صيدٍ لثور المِسك، وثمّة زلاجات تُصنع، ولابد من تجهيز المعسكر الرئيسي على

بُعد تسعين ميلا في خليج كولمبيا، النقطة التي ستنطلق منها فعليّا الطلعةُ القطبيةُ عبر البحر الجليدي. كان على الجميع أن يتعودوا على التعامل مع فِرق الكلاب وبناء الملاجئ الثلجية. أشرف مساعدُ بيري الزنجي، ماثيو هنسن، على التدريب. بعد عدد من الرحلات أسّس بيري نظاما. كلّ تفصيلٍ من تفاصيل حياتهم في القطب الشمالي يمثّل قراراته المدروسة وجزءً من النظام. مواد الزلاجات وتصميماتها، الطعام المستهلك، العُلب التي يحفظ فيها الطعام، الطريقة التي تربط بها العُلب على الزلاجات، نوع الملابس الداخلية والخارجية التي تُلبس، أساليب تسريج الكلاب، أنواع السلاح والسكاكين التي تُحمل، أنواع أعواد الثقاب وطرق الحفاظ عليها جافة، الخطة التي يستخدمها أفراد الحراسة للوقاية من عمى الثلج، وهلمّ جرا. كان بيري يحب أن يناقش تفاصيلَ نظامه. لم يكن نظام بيري في أساسياته، بعبارة أخرى استخدام الكلاب والزلاجات وارتداء ملابس الفرو والعيش على لحوم الحيوانات المحلية، سوى استعارةٍ لأسلوبِ عيش الإسكيمو. أدرك الأب هذا الشيء من اليوم الأول. حَدَثَ أن كان واقفا على سطح مؤخر السفينة يراقب بيري وهو يوبخ بصوتٍ عالٍ أحدَ رجال الإسكيمو لأنه لم يقم بعمله المحدد كما ينبغي. ثم مشى بيري متثاقلا على سطح السفينة ولمّا تجاوز الأب قال له: إنهم أطفالٌ ويجب أن يعامَلوا معاملةَ الأطفال. مال الأب إلى الاتفاق مع هذا الرأي، إذ بدا أن هناك إجماعا عليه. تذكّر ملاحظةً قيلت في الفلبين قبل عشر سنوات حيث حارب تحت إمرة الجنرال ليونارد وود ضدّ عصابات المورو. قال ضابطُ أركانٍ وهو يضع دبوسا من دبابيس الحملات على خريطة: على إخوتنا السُّمر الصغار أن يتعلموا درسا. ما من

شكٍ أن رجال الإسكيمو بدائيون. كانوا حنونين ودمثين وعاطفيين وجديرين بالثقة ومازحين. كانوا يحبون الضحك والغناء. في أوج الشتاء من الليل المتواصل، عندما تشقّ العواصفُ الرهيبةُ جلاميدَ الصخر من الجروف، عندما تعول الريح، وكان الجو باردا وكئيبا لدرجة أن الأب هلوس أنّ بشرته تحترق، يلجأ بيري ومعظم الرجال إلى التأملات النظرية في نظامه وبهذا كانوا يحمُون أنفسهم من خوفهم. عانى الإسكيمو، الذين لم يكن لهم نظامٌ وعاشوا هنا ببساطة، من أهوالِ كونهم. أحيانا كانت نساء الإسكيمو يشققن ثيابهن بشكل غير قابل للتفسير ويجرين في العواصف السوداء يعوين ويتدحرجن على الثلج. اضطرّ أزواجهن إلى أن يكبحوهن قبل أن تُهلكن أنفسهن. سيطر الأب على نفسه بفضل الكتابة في دفتر يومياته. كان هذا نظاما أيضا، نظام اللغة والتصور. يثبت أن بني الإنسان، من خلال الإدلاء بشهاداتهم، يضمنون لوجودهم أماكنَ وأزمنةً غير ذينك الزمان والمكان اللذين كانوا يعيشون فيهما.

لكن في هذه الليلة الشتوية الجليدية يبدو أن هناك قوةً تجذبك من عنقك وتواجهك بها. عاش الإسكيمو متناثرين على السفينة بعد أن نصبوا خيامهم على سطوحها وفي حصون الحمولة. لم يكونوا متحفّظين في جِماعهم. تضاجعوا من دون حتى أن يخلعوا ملابسهم، من خلال فتحات في ثياب الفرو، وكان لهم أثناء ذلك نخيرٌ وصيحاتُ متعةٍ عنيفة. ذات يومٍ مرّ الأب على زوجٍ وصدمته رؤيةُ الزوجة ترفع وركيْها إلى الأعلى مع رهزاتِ زوجها. جاءت من حلقها أغنيةٌ حيوانيةٌ غير عادية. كان هذا شيئا لا يستطيع كتابته في دفتر يومياته إلا عن طريق الترميز. كانت المرأة في الواقع ترهز هي الأخرى. أذهله أنها

تستجيب على هذا النحو. هذه المرأة الإسكيمو الفاحشة الدرداء ذات الجبين المسطح والعينين اللتين تدفعهما عظام وجنتيها إلى الأعلى، تغني أغنيتها وترهز. فكر في حساسيةِ زوجته الشديدة، مغازلتها وذكائها، فوجد نفسه حانقا على استحقاق هذه المرأة البدائية أنوثتها.

أتى الربيع أخيرا، فكان ماثيو هنسن مساعدُ بيري هو من صاح بالأب صباحا وأشار ناحية مؤخّر السفينة. ثمّة في السماء الجنوبية شعاعُ ضوءٍ ضئيل. في الأيام التي تلت كان من الممكن تمييز أنواع الظلام التي أصبحت ملاحظتها أسهل شيئا فشيئا. أخيرا ذات صباح ارتفعت من فوق الأفق شمسٌ قانيةٌ دونها غشاوة، ليست مستديرة ولكن بيضاوية بشكل غريب، مثل شيءٍ مولودٍ للتوّ. سعد الجميع. ارتسمت على القمم الجليدية ألوانٌ زاهية، وردية وخضراء وصفراء، ونذر العالم المهيب البارد بأكمله نفسَه لمن يأخذه. تحولت السماء تدريجيا إلى الزرقة وقال بيري إن الوقت قد حان لغزو القطب.

في اليوم الذي سبق انطلاقَ الرحلة ذهب الأب مع ماثيو هنسن وثلاثة من الإسكيمو إلى جروف الطير مسيرةَ نصف يوم من الساحل. تسلقوا الجروفَ تتعلّق على أكتافهم حقائبُ من جِلدِ الفقمة، وجمعوا عشراتٍ من البَيْض، أشهى الطعام في القطب الشمالي. عندما طارت الطيور إلى أعلى، تطوف وتزقزق، كان الأمر كما لو أن جلمودا من الجرف الصخري قد انشق وسقط. لم يشاهد الأب في حياته مثل هذا العدد الكبير من الطيور. كانت من طيور الفلمار والأوك. حمل الإسكيمو بينهم شبكةً وطارت الطيور في اتجاه الشبكة ونشبت في الشَّرَك. شُدت الشبكة من أركانها فأصبحت أكياسا من الريش الثقيل الذي لا يتحرك ينقّ ببؤس. عندما أمسك الرجال بكل

ما يستطيعون حملَه نزلوا وذبحوا الطيور من فورهم. طيور الفلمار، بحجم النوارس تقريبا، لُويت رقابها. لكن ما أثار استغرابَ الأبِ هو الكيفية التي قُتلت بها طيور الأوك الصغيرة المسالمة. يُنكز القلبُ الضئيلُ في صدر الطير ببساطة. شاهد الأبُ هذه القتلة ثم حاول بعد ذلك أن يقترفها بنفسه. أمسك بطير أوكٍ في يدٍ وبرفقٍ عصر بإبهامه الصدرَ الخافق. انهار رأسُه ولفظ أنفاسه. يحبّ الإسكيمو صغار الأوك وعادة ما يخلّلونها في جِلد الفقمة.

في طريق العودة إلى المعسكر ناقش الأب وماثيو هنسن ما يناقشه الرجال تحت إمرة بيري عادة، ألا وهو مَن سيحظى بشرف مرافقته في النهاية إلى القطب. قبل التحرك من نيويورك أعلن القائدُ للجميع بجلاءٍ أنه هو وحدَه مَن سيستكشف القطب، وسيكون مجدُهم في دعمه. قال بيري: لقد أفنيتُ عمري في التخطيط لتلك اللحظة وسأفوز بها لنفسي. بدت هذه للأب وجهةَ نظرٍ منطقية. كانت تعوزه الثقة بالنفس التي يفتقر إليها الهاوي أمام المحترف. لكن ماثيو هنسن ارتأى أنه يجب أن يرافق القائدَ إلى القمةِ شخصٌ آخر إلى جانب الإسكيمو وفي رأيه، مع كامل الاحترام، أن ذاك الشخص سيكون ماثيو نفسه. في الواقع اعتقد الأبُ أن هنسن على حقّ. لقد لازم هنسن بيري في رحلاته السابقة وكان في حد ذاته مستكشفا فطنا وهائلا للقطب. كان يعرف كيف يقود الكلاب بنفس دراية الإسكيمو تقريبا، يعرف كيف يصلح الزلاجات، بناء المخيمات، يتمتع بقوة جسدية عظيمة ويتباهى بمهارات عدة. لكن الأب وجد نفسه يمقت بشكل لا يفسَّر افتراضَ هنسن وسأل الزنجي كيف تسنّى له أن يعرف أنه سيُختار. واجهوا نتوءً جبليا على امتداد الطريق وتوقفوا ليُريحوا

الكلابَ لحظة بينما أطلّوا على سهلٍ جليدي أبيض فسيح. حينها شقت الشمسُ الغيومَ وومضت الأرضُ بالكامل مثل مرآة. قال ماثيو هنسن مبتسما: حسنا يا سيدي، أعرف وحَسْب.

في اليوم التالي انطلقت الرحلةُ شمالا عبر الثلج القطبي. رُتبوا في جماعات منعزلة تتكون من رجل أبيض أو اثنين ومجموعة من صبيان الإسكيمو وقطيع من الكلاب وأربع زلاجاتٍ أو خمس. كل جماعة، ما عدا جماعة بيري، تقود لمدة أسبوع في طليعة الرحلة تشق الدربَ للبقية. في النهاية تنحرف كل مجموعة وتعود إلى اليابسة بحيث يمكن لبيري وصِبيانه أن يقطعوا آخر مئة ميل تقريبا في حالة منعشة مرتاحة نسبيا. كان ذاك هو النظام. أكثر الجهد مشقة كان في شقّ الدرب. كان عملا مُضنيا قاصما للظهر. يتعيّن أن تُزال نتوءات الجليد بمعول، وُتسحب المزالج الثقيلة وتُدفع في مرتفعات الثلج ثم تُمسك في المنحدرات شديدة الوعورة. تحمل كل مزلجة ما يربو على ستمئة رطلٍ من الأدوات والزّاد. عندما تنكسر، يجب تفريغها وإصلاحها من خلال ربط الأجزاء المكسورة معا، وهو عمل يتطلّب يدا لا يكسوها قفّاز. هناك أحمالُ ماء ينبغي أن يُعبر بها أو يُصبَر عليها حتى تفرغ. تلتحم الطوافي الجليدية بصُدوع كبيرة، مثل صوت مدفع، وتقعقع تحت الأقدام كأنها صوت المحيط نفسه. حجب الشمسَ ضبابٌ متعذر التعليل. أحيانا لا يكون ثمة ما يُمكن فعله سوى الزحف على صفائحَ رقيقةٍ من الجليد المتشكل: لا أحد يودّ أن يُحتجز على طافيةٍ جليديةٍ منجرفة. كان الطقس عذابا دائما، تهب الرياح الهوجاء في طقسٍ بمقدار خمسين أو ستين درجة تحت الصفر بحيث يبدو الهواء نفسه وكأنه بدّل طبيعته الفيزيائية، متحولا الآن

إلى بلّورات لا تندمج في رئتي المرء. يترك كل نَفَس رواسبه الصلدة على اللحية أو الحواف المتجمدة لقلانِسِ الفرو. يرتدي الجميع أحذية جلد الفقمة الطرية المخصصة للرحلة، سراويل فرو الدببة، معاطف الوعول ذات القلانس، لكن حتى هذه المواد الطبيعية تضعف في الصقيع. في ذلك الوقت من العام تستقر السماء فوق الأفق أربعا وعشرين ساعة في اليوم. في نهاية يوم من المسير، حوالي خمسة عشر ميلا من الجهد الشاق، تُقيم المجموعة التي في الطليعة المعسكر، تبني ملاجئ ثلجية للرحلة القادمة، تطعم الكلاب، تجرف الثلج الذي يغطي الآثار، تشعل فرن الكحول لطبخ الشاي، وتشرع في إعداد وجبة من اللحم المجفف المجمد ورقائق البسكويت. خلال شهر مارس شقت رحلة بيري رويدا طريقها شمالا. تبادلت المجموعات المواقع الخلفية، متكفلة بمهمة تعميق درب العودة قدر المستطاع كي تسهل المتابعة على المجموعات اللاحقة. يقلص بيري المسافة على المسار المغادر كل يوم ويأوي مباشرة إلى واحد من الملاجئ الثلجية يبنيه له هنسن. في الوقت الراهن يعتني هنسن بكلاب بيري ويصلح الزلاجات المكسورة ويعدّ العشاء ويتولى أمور الإسكيمو الذين أصبح التعامل معهم صعبا. حدد بيري مناقبَ الإسكيمو بالولاء والطاعة، وهي تقريبا المناقب نفسها التي يتوخاها المرء في الكلاب. عندما حان أوانُ الطلعة الأخيرة نحو القطب، الذي صار على بُعد مئة ميل فقط، اختار بيري فعلا هنسن لمرافقته، واختار هنسن من جانبه الإسكيمو الذين كانوا في تقديره أفضلَ الصبيان، أكثرهم ولاء وإخلاصا للقائد. أعيد بقية المجموعة وأُرسلوا إلى ديارهم.

عاد الأب منذ وقت طويل. كان من ضمن المجموعة الطليعية

في الأسبوع الأول. أثبت أنه ليس أقوى عضوٍ في الرحلة. لم يكن بسبب نقص في الشجاعة، كما أخبره بيري قبل إرساله إلى الديار، ولكن بسبب ميلِ أطرافِه إلى التجمد بسهولة. على سبيل المثال، يتجمد كعبُ الأب الأيسر يوميا مهما فعل الأب لحمايته. كان يذيبه بألم مساء في المعسكر ويعالجه على أفضل وجه ممكن، وفي الصباح يتجمد من جديد. والمثل كذلك مع إحدى ركبتيه ومنطقة صغيرة في أعلى يده. تجمدت أجزاء الأب بصورة متقطعة وقال بيري إن هذا قَدَر بعض الرجال في الشمال وألّا شيء يمكن فعله حيال الأمر. لم يكن بيري قائدا تعوزه الرحمة وكان يحب الأب. خلال أشهر الشتاء الطويلة على متن «روزفلت» اكتشفا أنهما كانا عضوين في الأخوية الجامعية الوطنية، ولم تكن هذه رابطة سهلة بينهما. لكن بعد عُمرٍ من الجهد نفد صبرُ بيري في انتظار إنجاز مهمته. دفعت جمعية الأب مبلغا محترما لصالح صندوق بيري، ولهذا السبب حصل الرجلُ على تقديره المستحق. قبل أن يغادر الأب أهدى القائدَ عَلما أمريكيا صنعه خصيصا لهذه المناسبة. كان من الحرير الخالص ومناسب الحجم، إلا أنه حين يطوى لا يتعدى حجمُه حجمَ منديل كبير. شكره بيري ثم وضع العلم في ثنية الفرو وأرسل الأب، بعد حضّه على البحث عن الآثار، في رحلة العودة إلى «روزفلت» بمعيّة ثلاثة من رجال الإسكيمو سيئي المزاج.

لكن الآن بيري على بعد مسيرةِ يومٍ من هدف حياته. إذ قاد هنسن وصبيان الإسكيمو بلا رحمة، رفض أن يدعهم ينامون أكثر من ساعةٍ أو ساعتين في نهاية كل يوم شاق. أشرقت الشمس بتألق وكانت السماء صافية. كان هناك بدرٌ في السماء الزرقاء ونتأت قطع

الأرض الجليدية وارتجفت وارتفعت في اتجاه القمر. في منتصف ليلة التاسع من إبريل طلب بيري استراحةً توقف. أمر هنسن ببناء ملجأ ثلجي ليقيَه بينما يدوّن ملاحظاته. استلقى بيري على بطنه وبدأ يحدّد موضعه، مستخدما حوضَ زئبق وآلةَ سدسٍ لقياس الزوايا وبعضَ الأوراق وقلمَ رصاص. لم يحصل على نتيجة مُرضية. مشى على امتداد الطافية واتخذ موضعا آخر للملاحظة. لم يُقنعه هذا المرصدُ أيضا. ظل بيري يمشي طوال اليوم على الثلج تارةً إلى الوراء وتارةً إلى الأمام، مِيلا في اتجاه واثنينِ في اتجاه آخر، مدوّنا ملاحظاته. لم تُقنعه أية ملاحظة. يمشي بضع خطوات إلى الشمال فيجد نفسه متجها إلى الجنوب. على هذا الكوكب المائي يأبى البحر المنجرف أن يستقر. لم يستطع العثور على المكان الذي يقول عنه هذه هي النقطة، هنا تحديدا، القطب الشمالي. مع ذلك ما من شكٍ أنهم كانوا هناك. كل الملاحظات في مُجملها تشير إلى هذه الحقيقة. نادى هنسن: مَرْحَى يا صبي! دعنا نركُز العَلَم. هتف هنسن والإسكيمو أمام العَلم لكن صوتهم لم يسمع في الرياح المُعوِلة. اهتز العلم واضطرب خافقا. أوقفَ بيري هنسن والإسكيمو أمام العلم والتقط صورةً لهم. ظهرت في الصورة خمسةُ أجساد بدينةٍ ملفوفةٍ في الفراء، وقد نُصب العلم على قمة جليدية خلفهم تعطي انطباعا بقطب حقيقي محسوس. لا يمكن تمييز الوجوه بسبب الضوء، إذ تُرى مثل فراغاتٍ سوداءَ في إطارٍ من فرو الوعول.

. 11 .

في الديار كانت الولايات المتحدة تمر بتغيّر مهم. جاء رئيسٌ جديدٌ، وليم هاورد تافت، تسلّم كرسي الرئاسة وهو يزن ثلاثمئة واثنين وثلاثين رطلا. بدأ الرجال في كل أنحاء البلاد ينظرون إلى أجسادهم. اعتادوا على شُرب كمياتٍ كبيرةٍ من البيرة. يلتهمون باستمرارٍ أرغفة الخبز ويأكلون بنهمٍ لحومَ النقانق المصبوبةِ من الأمعاءِ والفضلاتِ الملقاة على مناضد الغداء في الصالونات. يستهلك بيربونت مورغن المهيب عادةً أعشيةً تتكون من سبعةِ أو ثمانيةِ أشواط. يتناول إفطارا من شرائحِ اللحم وأضلاعِه والبيضِ والفطائر والسمك المسخَّن وأقراص الخبز والزبدة والفاكهة الطازجة والقشدة. كان استهلاك الطعام طقسا مقدّسا للنجاح. يُنظر إلى الرجل الذي يحمل كرشا أمامه على أنه في تمام الصحة. أُخذت النساءُ إلى المستشفيات ليمُتن من جرّاء المثانات المنفجرة والرئات المنهارة والقلوب المنهكة والأعمدة الفقرية الملتهبة. ازدحمت الطرق المؤدية إلى المنتجعات الصحية وينابيع الكبريت الحارّة، حيث يحظى مُسهّل الأمعاء بالتقدير باعتباره محفّزا للشهية. كانت أمريكا دولةً ضارطةً عظمى. كل هذا بدأ يتغير

عندما انتقل تافت إلى البيت الأبيض. أثقل انضمامُه إلى المكتب الأسطوري الأوحد في المخيّلة الأمريكية الجميعَ. كانت بُنْيَته العظيمة تعبّر بجلاء عن تأليه الرجال ذاك الأسلوب. ذهبت الموضة بعد ذلك في الاتجاه الآخر فأصبح الفقراءُ وحدهم بُدناء.

في هذا الصدد، كما في أغلب الشؤون الأخرى، كانت إيڤلن نسبت سابقةً لعصرها. كان عشيقُها الأساسي السابق ستانفورد وايت قويَّ البنية بطريقة عصرية، وزوجها هاري كيه ثاو على رغم أنه لم يكن بالضخامة نفسها فلم يترهل أو يسمن، لكن عشيقها الجديد، الخال الأصغر، فكان هزيلا وصلبا مثل شجرة شابة. تضاجعا ببطءٍ وتلوٍّ يرهز كل منهما الآخر في حالات مطواعة من النشوة لدرجة أنهما لم يجدا مسوغا للحديث في باقي الوقت الذي يكونان فيه معا. من سمات إيڤلن أنها لا تستطيع أن تقاوم مَن ينجذب إليها بقوة. أخذت الخال الأصغر إلى أسفل شرقيّ مانهاتن للبحث عن تاته والبُنية من دون جدوى. هُجِرت الشقةُ الواقعة على شارع هستر. اشترت إيڤلن عقدَ الإيجار ودفعت لمالك الدار مالا مقابل الأثاث البائس. قضت ساعاتٍ تجلس أمام النافذة المجاورة للمنور. تلمس الأشياء، بطانية، طبقا، مثل عمياء تحاول أن تقرأ بأصابعها. ثم تنهار فيهدئها الخال الأصغر في السرير النحاسي الضيق.

لما بدأت محاكمةُ هاري كيه ثاو التُقطت لإيڤلن صورٌ لدى وصولها إلى المحكمة. في قاعة المحكمة، حيث لا يُسمح للمصورين بالدخول، رسمها فنانون رسومات تقريبية. تسمع خدشَ أقلام الحديد. اعتلت منصّة الشهود وأخذت تصف نفسها في الخامسة عشرة تحشر ساقيها في فستان مخمليّ أحمر بينما حبسَ مهندسٌ

معماريٌّ ثريٌّ أنفاسَه لمرأى ربلتَيْ ساقيها المكشوفتين. كانت حازمة وأبقت رأسها مرفوعا. كانت ترتدي ملابس بذوقٍ محتشم. خلقت شهادتها أولَ إلاهةٍ للجنس في تاريخ أمريكا. أدرك هذا الأمر عنصران من المجتمع. أولهما مجتمع رجال الأعمال، تحديدا مجموعة من المحاسبين وصانعي العباءات والبدل الرسمية الذين انخرطوا أيضا في الصور المتحركة أو عروض الصور كما كان يطلق عليها. رأى بعض أولئك الرجال الطريقة التي ساهم بها وجهُ إيفلن على الصفحة الأمامية لجريدةٍ في بيع كل النسخ. أدركوا أن هناك عملية تضخيم أسست أخبار الصحف من خلالها أفرادا معيّنين في الوعي الجمعي باعتبارهم أكبرَ من الحياة. كان هؤلاء الأفراد الذين مثّلوا صفة بشرية واحدة مرغوبة على حساب باقي الصفات جميعها. تساءل رجال الأعمال عن إمكانية أن يصنعوا أفرادا مشابهين ليس من حوادث الأخبار ولكن من خلال الإنتاج المدروس لوسيلتهم الخاصة. لو استطاعوا فسيجعلون أناسا أكثر يدفعون مالا من أجل عروض الصور المتحركة. هكذا ألهمت إيفلن مفهومَ صناعةِ نجومِ السينما وقدمت النموذج المثالي لكل إلاهةِ جنسٍ بدءً من ثيدا بارا حتى مارلين مونرو. تألفت المجموعة الثانية التي أدركت أهمية إيفلن من قادة النقابات المهنية والأناركيين والاشتراكيين، الذين صدقت نبوءتُهم بأن تهديدها لمصالح العمّال سيفوق على المدى البعيد تهديدَ مُلاّك المناجم ومصنّعي الحديد الصُّلب. على سبيل المثال، تحدثت إيما غولدمن في سياتل إلى واحدٍ من اتحاد العمال العالمي وجاءت على ذكر إيفلن نسبت باعتبارها ابنةَ الطبقة العاملة التي كانت حياتها درسا للطريقة التي استُخدمت بها بنات الفقراء وأخواتهم من أجل متعة الأغنياء.

قهقه جمهورُها من الرجال وصاحوا بتعليقاتٍ خليعةٍ ثم انفجروا ضاحكين. كانوا هؤلاء عمالا مناضلين أيضا، اتحاديين راديكاليين يعُون وضعَهم. أبرقت غولدمن برسالة إلى إيفلن: غالبا ما يُطرح عليّ سؤال كيف يسمح الجموعُ لأنفسهم بأن يستغلهم القِلّة؟ الجواب: من خلال إقناعهم بأن يتماهوا معهم. يؤوب العامل بجريدةٍ تحمل صورتك إلى المنزل حيث زوجته البارزة عروقُ ساقيها مثل حصانِ عملٍ منهك، وبدلا من أن يحلم بالعدالة يحلم بالثراء.

لم تعلم إيفلن ماذا تصنع بتعليقاتٍ مثل هذه. واصلت الإدلاء بشهادتها كما اتُّفق عليه. ظهرت مع عائلة ثاو وقدمت صورة للزوجة عبر النظرات وإيماءات الإخلاص الصغيرة. صوّرت هاري على أنه ضحية نزعةٍ جامحةٍ لصونِ شرفه وشرف عروسه الشابة. أدّت الشهادة من دونما خطأ. سمعت خدشَ أقلام الرسم الحديدية مرارا. مسّ رجالُ القانون المتفرجون بنظاراتِهم وياقاتِهم شواربَهم. لبس كلٌّ من في قاعة المحكمة ملابس سوداء. تعجبت من هذه المؤسسة الضخمة من رجال القانون الذين وقفوا منتظرين في حياتهم من أجل اجتماعات مثل هذا. قضاة ومحامون وحجبة محاكم ورجال شرطة وآمرو سجون ومحلفون: كلّهم علموا أن هناك محاكمة في انتظارهم. سمعت الخدوش. في الأروقة كان أطباء الأمراض العقلية يتجهزون للشهادة بأن هاري كان مجنونا. هذه عبارة الدفاع الوحيدة التي لم يكن ليَسمح بها. لم يستطع إقناع نفسه على القبول بها. أمه المهيبة أرادت منه أن يقدم تلك الحجة. خشيتْ أنه إن لم يفعل فسيذهب إلى الكرسي الكهربائي. راقبته إيفلن على طاولة المُرافعة. تساءلت عمّ يمكن أن يريح ذلك القلب الغاضب حقا. حافظ هاري

على تعبيرات وجهه متوائمة مع الشهادة. كلما ورد شيءٌ مثير للضحك تبسّم. كلما ورد شيءٌ مُحزن أرخى عينيه. عندما ذُكر اسم ستانفورد وايت قطب جبينه. اتخذ وضعيات الندم وبدّل بينها وبين الثقة المتيقظة بل وحتى الاستقامة المشتعلة. تطلّب هذا النشاطُ كاملَ تركيزه. كان هادئا ومهذبا في دخوله إلى قاعة المحكمة وخروجه منها، مقدما بهذا صورة عقلانية.

خطر لإيفلن ذات يوم أن هاري ربما أحبها فعلا. استولى عليها الذهول. حاولت أن تحسم أمر حقيقة علاقتهما بصدق. علاقتهم ثلاثتهم. لأول مرة تخبُر بوضوحٍ إحساسَ موتِ ستانفورد وايت، فقدانِ ستاني. كان سيكون في وسعه أن يخبرها عن الحقيقة. كان سيصنع منها نكتة. تلك طريقته. كان رجلا لعينا مفعما بالحيوية ويحب الضحك. تستطيع أن تُخرجه عن طوره، تماما مثلما كان يستطيع أن يُخرج هو هاري عن طوره. لكنها تشعر بارتياحٍ أكثر مع ستاني وايت. يتركها لوحدها ويخرج لبناء شيء ما، بينما لم يكن هاري يغادرها البتة لأنه لم يكن لديه سواها ما يفعله. كان هاري ثريّا فحسب. احتاجت بشدة إلى أن تحادث أحدًا والشخص الوحيد الذي كانت قادرة على محادثته هو الرجل الذي هي مسؤولةٌ مسؤوليةً مباشرةً عن موته. كاتبت إيما غولدمن على ورق رسائل أزرق طُبع عليه بحروف طويلة: «السيدة هاري كيه ثاو». قالت في الرسالة: ما الذي فعلتُ؟ أتى الرد من كاليفورنيا حيث كانت غولدمن تجمع التبرعات للدفاع عن المناضلين الأخوين ماكنامارا اللذين اتُّهما بتفجير مبنى صحيفة التايمز في لوس أنجلس. لا تبالغي في تضخيم دورِك في العلاقة التي كانت بين هذين الرجلين.

في الوقت الراهن ذهبت محاكمة هاري إلى هيئة المحلفين. لم يستطيعوا التوصّل إلى حكم. صدر أمرٌ بمحاكمةٍ جديدة. أدلت إيڤلن بشهادتها مرة أخرى، مستخدمةً الكلماتِ نفسها والإيماءات نفسها. عندما انتهى كل شيء أُمر بحبسِ هاري كيه ثاو حبسا احتياطيا إلى أجل غير مسمى في مستشفى ماتياوان للمجانين المجرمين. في الحال بدأ محاموه مفاوضاتِ طلاقه. كانت إيڤلن مستعدة. كان سعرها مليونَ دولار. بعد ذلك تقدم المخبرون الخاصون بسجلّهم بخياناتها مع الخال الأصغر وآخرين اختلقوهم وأُسدل الستارُ على الطلاق بهدوءٍ بدفع خمسة وعشرين ألفا إلى إيڤلن. جلست إيڤلن على السرير في جناحها الفندقي الذي ستضطر الآن إلى تركه وحدقت إلى نعلها الذي حملته في يدها. في هذه المناسبة تحديدا جعلتها تودّداتُ الخال الأصغر باردة الإحساس. تذكرتْ ما قالته لها إيما غولدمن في زيارتها الأخيرة إلى نيويورك. أي مبلغٍ تحصلين عليه من ثاو فهو ما أراد أن يعطيك إياه فقط. إنه قانون الثروة؛ هؤلاء الناس وحدهم يستفيدون من المال الذي يؤخذ منهم. إنها الطريقة التي تسير بها الأمور. بطريقةٍ ما كل دولار دُفع إليك يعود عليه بالفائدة. وسوف تُتركين بمبلغ محدود من المال تصرفينه وتبددينه حتى تعودي فقيرة كما بدأتِ. عرفتْ أن هذا صحيح. حتى المال الذي كانت تملكه، الجزء الأكبر من ثروتها، تركها بمشاعر غريبة ومترددة. سيدّعي رجلٌ ما حُبّها ويسرق المال ويفطر قلبها. مقابل هذه المعرفة المُرّة لم يكن هناك من تشكره سوى غولدمن التي رسمت لها صورتين: واحدة للطمع والوحشية، للجوع والجور والموت، كما في المؤسسات الوطنية الحالية لرأس المال الخاص، وأخرى للهدوء الطوباوي، كما في الجماعات الحرّة

غير المحكومة التي تجمع أقرانا متساوين يتشاركون عملهم وثروتهم بُرشدٍ بعضهم مع بعض. تبرعت إيڤلن ببعض المال لصالح مجلة غولدمن الأناركية «مَذَر أيرث» لضمان استمرار صدورها. دعمت المطالبات الراديكالية التي أتت إليها من كل أنحاء البلاد لمّا شاع سرا أنها انغمست في السياسة. منحت مالا للدفاع القانوني لقادة العمّال الذين أُودِعوا السجون. أعطت مالا لآباء الأطفال الذين بُترت أعضاؤهم في المطاحن والمصانع. بفتورٍ تصدقتْ بثروتها التي كسبتها بصعوبة. لم يعرف العامةُ عن هذا لأنها كانت تصرّ على إخفاء اسمها. لم تكن سعيدة. نظرت في المرآة فرأت ملامحَ الأنوثة تزحف على وجهها الطفولي. بدت لها رقبتُها الطويلة الجميلة مثل جذعٍ أخرقَ يجثو عليه رأسٌ سخيفٌ حزين العينين لعاهرة ولّى شبابها. تمنّت فرصةً تتكرفسُ فيها في جسدٍ مثل جسد ستانفورد وايت. في تلك الأثناء وقف الخال الأصغر بوقارٍ وبأسلوبِه الكلبيّ الصامت منتظرا إياها. لم يعرف معنى الراحة. لم يكن يمازحها أو يحادثها حديثَ الأطفال. لم يكن يخبرها كيف تنظرُ إلى الماسةِ أو يصحبها إلى مطعم حيث يتزلف إليه كبيرُ النُّدل. كل ما كان يفعله أنه نذر حياتَه لحياتها وعمل على إشباع أدنى نزواتها. أحبّته لكنها أرادت واحدا يعاملها بشكلٍ مؤذٍ وتستطيع أن تبادله المعاملة نفسها. تاقتْ إلى مَن يتحدى فطنتها، تاقتْ إلى أن تُبعث طموحاتها من جديد.

. 12 .

وماذا عن تاته وابنته الصغيرة؟ بعد الاجتماع جلس الفنانُ العجوزُ ذات ليلة في شقته ولم يأكلْ أو يقلْ شيئا، ساهما يدخّن سجائرَ سوبراني بلا توقف، يفكر في حظ حياته القاسي. يُلقي كل حين نظرةً إلى طفلته، وكلما رأى الدمار الأكيد لجمالها الخارق من جرّاء استغلاله المستمر ضمّها إليه وامتلأت عيناه بالدموع. في هدوءٍ أعدّت البُنية وجباتِهما المتواضعة بطرقٍ ذكّرته كثيرا بحركات زوجته إلى حدّ أنه ضاق ذرعا بالوضع. رمى ملابسهما القليلة في حقيبة بالية كان حزامها قد بَلِيَ منذ وقت بعيد، فربطها بقطعة من حبل الغسيل، وأخذ الفتاة من يدها وغادر الشقة ذات الحجرتين الواقعة على شارع هستر إلى الأبد. مشيا إلى الركن واستقلا عربة القطار رقم 12 المتجهة إلى ميدان يونيون سكوير. انتقلا في يونيون سكوير إلى العربة رقم 8 وانطلقا شمالا على شارع برودواي. كان أولُ المساء دافئا فكانت نوافذ العربة مخفضة. ازدحمت الشوارع بسيارات الأجرة والمركبات التي تواصل سائقوها عبر الأبواق. سارت العربات معا جماعاتٍ تقرع أجراسها، تفرقع فلاشات الكهرباءِ من مجمع التيار على امتداد

الأسلاك العلوية في تكثفات صغيرة لبرق الحرارة الذي سوّى السماءَ فوق المدينة المكفهرّة المختنقة. لم يكن تاته يعلم إلى أين هو متجه. تشبثت البُنية بيده. حدقت عيناها الداكنتان بوقار إلى مواكب الناس يتجولون في شارع برودواي على مهل، الرجال في طواقي خوصٍ وستراتٍ زرقاء وسراويل قطنية بيضاء والنساء في فساتينَ صيفيةٍ بيضاء. المصابيح الكهربائية لكل مسرح من مسارح العروض الهزلية تدور إضاءتها في نسق معين. دار طوقٌ من الضوء حول حافّتي بؤبؤيها. بعد ثلاث ساعات كانا على متن عربة ترام تسير شمالا على جادة وبستر في برونكس. ظهر القمر وانخفضت درجة الحرارة وصارت العربة على امتداد هذه الجادة الفسيحة بوقفات متقطعة. مروا بأراضي معشبة تتخللها مربعات سكنية من منازل متراصّة ما تزال تحت الإنشاء. أخيرا اختفت الأضواءُ تماما وأدركت البنية أنهما يسافران بمحاذاة مقبرةٍ كبيرةٍ على جانب تلّ. أوحتْ إليها الأحجارُ والقناطرُ الواقفة أمام صفحة السماء الليلية الباردة بقدَرِ أمها. لأول مرة سألت تاته إلى أين هما ذاهبان. أغلق النافذة أمام الرياح الباردة التي أخذت الآن تصفر عبر العربة المهتزة. كانا الراكبَيْن الوحيدين. قال لها: صَه. أغمضي عينيك. كانت مدخراتُ حياته موزعةً على جيوبه وفي حذائه، ما ينيف على ثلاثين دولارا. لقد قرر أن يغادر نيويورك، المدينة التي دمرت حياته. كان في تلك الأيام من تاريخنا نظامٌ متقدمٌ لخطوط سكة الحديد فيما بين المناطق الحضرية. في استطاعة المرء أن يسافر مسافات طويلة على كراسي القصب القاسي أو مقاعد خشبية عبر الصعود مع كل خطٍّ إلى محطته النهائية ثم الانتقال إلى التالي. تاته لم يكن يعرف شيئا عن المسارات. اكتفى بأن خطّط للاستمرار في المضيّ

إلى أبعد ما يمكن أن تأخذه أي عربة يستقلها.

في الساعات الأولى من أولّ فجر لرحلتهم تجاوزا حدَّ المدينة إلى ماونت ڤيرنون في ولاية نيويورك، وهناك علما أن الرحلة القادمة لن تبدأ حتى يأتي النهار. وجدا حديقةً عامةً صغيرةً وناما في المظلة. في الصباح غسلا نفسيهما في حمّام عام وانتعشا. لما ارتفعت الشمس استقلا عربةَ قطارٍ لونها أحمر وأصفر فاقع، وحياهما محصّل التذاكر بمرح. دفع تاته خمسة سنتات أجرتَه، وسِنتين أجرةَ الطفلة. على أرضية العربة الخشبية في الخلف رُصَّت صناديق مملوءة بقوارير حليب بسعةِ ربع غالون نديّة ولامعة. عرض تاته أن يشتري واحدة. نظر المحصّل إليه ثم إلى الطفلة وأمره أن يُخرج واحدة لكنه لم ينتظر ليقبض ثمنها. سحب حبلا فقرع جرسُ العربة التي انطلقت مترنّحة. أخذ المحصّل يغني. كان رجلا قويا كبير البطن بصوت منغم. شُدَّت إلى حزامه آلة نقود معدنية. بعد قليل دخلت العربةُ مدينةَ نيو روتشيل في ولاية نيويورك وسلكت طريقها ببطء على شارعِ مَين. كان المرورُ أكثر ازدحاما الآن والشمسُ في الأعلى والمدينة الصغيرة مزدحمة. وُضّح لتاته أن لو أراد أن يواصل طريقه فإن عليه أن ينتقل إلى خط بوست رود شور عند زاوية جادة نورث. كل هذا ممكن بدفعِ سنتٍ إضافي في كل مرة ينتقلان فيها. ترجّل تاته والبنية عند تقاطع شارع مَين بجادّة نورث وانتظرا عربة الترام القادمة. مرّ من أمامهما صبيٌّ وأمه. نظرت البُنية إلى الصبي. كان أشقر الرأس. يرتدي قميصَ بحّار وسراويل كحلية محزوقة عند الركبتين وجواربَ بيضاء وحذاءً أبيضَ لامعا. يده في يد أمه وإذ مرّ من أمام البنية الواقفة مع والدها العجوز، نظرت عينا الصبي إلى عينيها. في هذه اللحظة ظهرت عربة

بوست رود ومشى تاته دون أن تُفلت قبضتُه معصم البنية في الشارع ثم صعد إلى العربة. لمّا انطلقت العربة راقبت الطفلةُ الصبيَّ يمرّ إلى الوراء في بصرها. وقفت على منصة عربة الترام الخلفية وظلّت تراقبه حتى لم تعدْ تراه. لعينيه لونٌ داكنٌ من الأزرق والأصفر والأخضر كمثلِ مجسَّمِ كرةٍ أرضيةٍ مدرسيّ. سلكت عربة الترام بوست رود على امتداد شاطئ لسانِ لونغ آيلاند إلى حدّ ولاية كونكتيكت. في غرينويتش من ولاية كونكتيكت انتقلا إلى عربة أخرى. أخذتهما هذه شمالا عبر مدن ستامفرد ونورووك ثم إلى بريجبورت حيث دُفن توم ثمب. أصبحا الآن يعرفان عندما تقترب عربةٌ من نهاية مسارها. يمشي المحصّل في ممرّ العربة ويعكس اتجاه المقاعد الفارغة، جاذبا العرى الملحقة بظهور المقاعد من دون أن يتوقف في مشيته. في بريجبورت غيّرا عربتهما من جديد. ابتعدت السكك الحديدية عن الشاطئ إلى داخل اليابسة. توقفت العربة ليلا في نيو هافن من ولاية كونكتيكت. ناما في منزل يؤجّر غرفا وتناولا الإفطار في غرفةِ طعامِ صاحبة المنزل. نفض تاته سراويله ومعطفه وقبعته بغضب قبل أن ينزل إلى الطابق السفلي. ربط حول ياقته المهترئة ربطة عنق القوس. تأكد من أن البنية ارتدت مئزرها النظيف. يستأجر غرف المنزل طلاب الجامعة الذين كان بعضهم على الطاولة. يلبسون نظارات ذهبية وسترات صوفية ضيقة الرقاب. بعد الفطور مشى الفنان العجوز وابنته إلى سكة حديد عربة الترام واستأنفا رحلتهما. أقلّتهما عربةٌ من صُنع شركة «سبرنغفيلد تراكشن» إلى نيو بريتن ومنها إلى مدينة هارتفورد. تأرجحت العربة ببطء عبر شوارع هارتفورد الضيقة، وبدت بيوت المدينة المصنوعة من الألواح قريبة بما يكفي لأن يمد

المرء يده ويلمسها. بعد ذلك كانا في الضواحي، مسرعين شمالا في اتجاه سبرنغفيلد في ولاية ماساتشوستس. تمايلت العربة الخشبية الضخمة من جانبٍ إلى آخر. هبت الرياح في وجوههم. أسرعوا على أطراف الحقول المنبسطةِ التي تطيرُ منها الطيور ثم تحطّ إذ يمرون من جانبها. رأت البنية قطعانا من الأبقار الراعية. رأت أحصنةً بُنّية عادياتٍ في ضوء الشمس. استقرت طبقةٌ رقيقةٌ من غبار الطبشور على وجهها مثل قناع، مبيّضة لون بشرتها، مبرزة عينيها الكبيرتين النديتين، حمرة فمها، فصُدم تاته لوهلةٍ لمرأى بلوغها. انطلقت العربة بسرعة على مسارها إلى جانب الطريق، وكلما اقتربت من تقاطعٍ انطلق بوقُها الهوائي. في إحدى المرات توقفت وحملت شحنةً من المنتجات الغذائية. حشد الركابُ الممر. انتظرت البنية العربة أن تسرع من جديد على أحرّ من الجمر. أدرك تاته أنها سعيدة. أحبّت الرحلة. إذ أمسك تاته الحقيبة على ركبتيه بيد واحدة فقط، وضع اليد الأخرى حول طفلته. وجد نفسه يبتسم. هبّت الرياح في وجهه وملأت فمه. أنذرت العربةُ بأن تحيد عن السكة. قرقعت من جانب إلى جانب فضحك الجميع. ضحك تاته. رأى قرية شبابه تمرّ الآن، بضعة كيلومترات وراء المرج. كانت هناك قبة كنيسة تُرى فوقَ تل. في طفولته أحبّ العربات، أحبّ مشاوير العربات المفتوحة تحت ضوء القمر الصيفي، أجساد الأطفال ساقطة واحدا فوق الآخر في العربات الصلبة المرتجة. نظر حوله إلى الركاب في المقصورة ولأول مرة منذ مجيئه إلى أمريكا فكّر أنه من الممكن العيش هنا. في سبرنغفيلد اشتريا خبزا وجبنا ثم استقلا عربةَ «ووستر إلكتريك ستريت ريلوي» الحديثة الخضراء. أدرك تاته أنّه الآن سيذهب على الأقل إلى بوسطن. حَسَبَ

تكلفةَ جميعِ الأُجَر التي دفعها. تصل إلى دولارين وأربعين سنتا له، وأعلى من دولار بقليل للطفلة. همهمت العربةُ على الطرق الترابية، والشمس من خلفها تغرب في مرتفعات بيركشايرس. ألقتْ صفوفُ أشجارِ التنوبِ ظلالا طويلة. تجاوزا رجلا وحيدا يجدف في مركبٍ على جدول هادئ وعريض. شاهدا ناعورة ضخمة تقطر وهي تدور بتمهّل فوق نُهَيْر. كثفت الظلال. نامت البُنية. تشبث تاته بالحقيبة في حضنه وسمّر عينيه على السكة أمامه وهي تلمع تحت الشعاع الوحيد لمصباح الكشاف الكهربائي القويّ في مقدمة العربة.

. 13 .

سِكك! سِكك! بدا للحالمين الذين كاتَبوا المجلاتِ الشعبيةَ أن المستقبلَ يكمن حيث تنتهي القضبان الحديدية المتوازية. كانت هناك سككُ قاطراتٍ حديديةٍ للمسافات الطويلة وسككٌ كهربائيةٌ بين المدن وسككٌ حديديةٌ للشوارع وسككُ قطاراتٍ معلقة، كلها تضع أشرطتها الحديدية على الأرض، متقاطعات مثل نسيجِ حضارةٍ لا تكلّ ولا تملّ. في بوسطن ونيويورك كانت هناك أيضا سككٌ حديديةٌ تحت الشوارع، شبكاتُ مترو النقل السريع الجديدة التي تنقل آلاف البشر يوميا. في نيويورك، في الواقع، خلق نجاحُ مترو مانهاتن حاجةً إلى خطٍّ يصل إلى بروكلين. وعليه حدثت معجزة هندسية، ألا وهي إنشاءُ نفقٍ تحت النهر الشرقي من بروكلين إلى حديقة «ذي باتري» العامة. خلف درعٍ هيدروليكي شق العمّال، الذين أطلق عليهم مسمى خنازير الرمل، طينَ قاعِ النهر إنشا إنشا، ينصّبون وهم يمشون قطعا مترابطة من أنابيب الحديد الصلب. كانت حُجرة الحفر مملوءة هواء مضغوطا يضُخّ إلى داخلها من السطح. كان العمل خطيرا. اعتبر الرجالُ الذين قاموا بالعمل، خنازيرُ الرمل، أبطالا. كانوا معرَّضين إلى أقدار فظيعة

بعملهم تحت النهر. الانفجار أحد المخاطر النموذجية، حالةٌ يجد فيها الهواء المضغوط ضعفا في سقف النفق فيخرج في فورةٍ عنيفة. ذات يوم دوّى انفجارٌ بلغ تدميره من الشدّة أنه ابتلع أربعةَ عمّال من النفق قاذفا بهم عبر عشرين قدما من الطمي ثم رماهم عبر النهر نفسه أربعين قدما في الجو على قمة مِرجَل. لم يبقَ على قيد الحياة منهم إلا واحد. الحادثة الغريبة وجدت طريقها إلى العناوين الرئيسية في كل الصحف، وعندما قرأ هاري هوديني وقائعها وهو يتناول قهوة الصباح ارتدى ملابسه على عجلٍ وتوجه إلى مستشفى بيلوفي في وسط المدينة حيث قِيل إن الرجل الناجي يعالج هناك. أخبر موظفي الاستقبال: أنا هاري هوديني، ويجب أن أرى خنزير الرمل ذاك. تشاورتْ ممرضتان من وراء المكتب وبينما هما كذلك اختلس نظرة إلى جداول غرف المرضى وصعد السلم. زجرتْه ممرضةٌ صارمةٌ بينما كان يخطو في جناح مليء بالرجال المرضى والمحتضِرين: لا يمكنك أن تصعد من هنا! انحدرت من نوافذ الجناح العالية المتسخة شلالاتٌ من ضوء شمس الصباح المبهجة كأنها دعائم مبنى. تحلّقت حول سرير خنزيرِ الرملِ البطلِ عائلتُه، زوجةٌ وأمٌّ عجوزٌ تلبس غطاءَ رأسٍ وابنان عملاقان. كان أحد الأطباء حاضرا. لُفَّ الرجلُ الراقدُ في السرير بضماداتٍ جبسيةٍ من رأسه إلى أخمص قدميه. ذراعاه المضمدتان موثوقتان بحاملٍ إلى الأعلى، وكذلك إحدى ساقيه. كل بضع لحظات يصدر من ضمادة رأسه أنينٌ واهنٌ أو ربما كانت مجرّد أنّاتٍ مُحتشمة. تنحنح هوديني. قال للعائلة: أنا هاري هوديني، أعيش من عروض الافتكاك، وتلك مهنتي فأنا فنانُ افتكاك. لكن دعوني أخبركم أني لم أفتكّ نفسي قطُّ ببراعةٍ تساوي هذا الافتكاك. وأشار إلى السرير. نظر أفراد العائلة إليه

تخلو وجوههم السلافية المتبلدة من أي تعابير. قالت الجدة من دون أن ترفع نظرها عن هوديني شيئا بلغة أجنبية- كان سؤالا، لأن أحد الابنين أجاب بطريقة مشابهة وذكر اسم هوديني. استمرّوا في النظر إليه. قال هوديني: جئت لأقدّم احترامي. كانت لهم جميعا وجوهٌ مسطحة، جباهٌ عريضة، أعينٌ متباعدة. لم يردّوا ابتسامته بمثلها. قال الطبيب: كيف جئتَ إلى هنا؟ قال هوديني: لن أبقى هنا سوى دقيقة واحدة، فقط أريد أن أسأله عن شيء. قال الطبيب: أظن أنه ينبغي عليك أن تغادر. التفت هوديني إلى العائلة. أريد أن أعرف ما الذي فعله حتى عاد إلى السطح. كان الوحيدَ الذي نجا. لا بدّ وأنه قام بشيء ما. أريد أن أعرف، يهمّني كثيرا أن أعرف. استلّ محفظتَه وأخرج منها بعضَ الأوراق النقدية. أظن أنه ربما يمكنكم استخدام هذه. هيا خذوها، أريد أن أساعد. استمرت العائلة في التحديق إليه. انبعث صوتٌ من الشخص الراقد على السرير. مال أحدُ الابنين وخفض أذنه. استمع لحظة وهزّ رأسه. ذهب إلى الابن الآخر وقال له شيئا. كانا ضخمين، يتجاوز طولهما ستّ أقدام، للواحد منهما صدرٌ كأنه برميل. قال الطبيب: على رِسلكما. وجد هوديني نفسه معلّقا في الهواء من ذراعيه يُمشى به على ممرّ الجناح وقدماه تفشلان في ملامسة الأرض. اتخذ قرارا بألاّ يُقاوِم. كان يعرف حِيَلا للدفاع عن النفس، ثمة طرقٌ يمكنه بها أن يغلبَ هذين الأحمقين، لكنه كان في مستشفى في نهاية الأمر.

مشى هوديني في الشوارع. اتّقدت أذناه من شدة الشعور بالعار. كان يرتدي قبعة قُلبت حافتها ومعطفا من الكتّان ضيقا ومزدوجا ويدسّ يديه في جيبي المعطف. ارتدى بنطالا وحذاء مدببا أبيضَ

وبُنّيا. كان مساء خريفيا باردا وارتدى معظمُ الناس معاطف. تحرك بخفة عبر شوارع نيويورك المكتظة. رشاقته لا تُصدَّق. كان هناك نوع من العرض يستخدم العالم الواقعي مسرحا له. لم يستطع أن يقترب منه. في كل إنجازاته كان مخادِعا، محتالا بارعا، مجرد ساحر. أيّ معنى لحياته إنْ كان الناس يغادرون المسرح وينسونه؟ العناوينُ الرئيسية على كشك الصحف قالت إن بيري وصل إلى القطب. العرض الواقعي كان هو ما وجد طريقه إلى كتب التاريخ.

قرر هوديني أن يركّز على أعماله البطولية في الهواء الطلق. في جولته التالية افتكّ نفسه من صندوق تعبئة أغلق بالمسامير ورُبط بالحبال ثم أُنزل في نهر ديترويت المتجمد. لقد غُمس في أنهارٍ في بوسطن وفيلادلفيا يطفو عليها الثلج. تمرّن على افتكاكاتِ الأنهار المتجمدة بالجلوس في حوض استحمامٍ في بيته مع قطعٍ من الثلج ألقاها في الحوض بائعُ الثلج. لكن لم يتغير شيء. قرر القيامَ بجولة أوروبية. انطلقت بدايتُه من أوروبا حينما لم يكن قادرا على أن يخترقَ الدوائر المهمة للمسرحيات الهزلية في الولايات. ما زال يشعر أن الناس في أوروبا يفهمونه بطريقةٍ فريدةٍ أكثر مما يفهمه أبناءُ موطنه. قبل مغادرته ببضعة أيام وافق على أن يؤدي عرضا خيريا للسحرة القدامى ورجال المسرح المتقاعدين. أراد أن يفاجئهم بافتكاكٍ جديد. استأجر فريقا من المرضين من مستشفى بيلوڤي لكي يصعدوا المسرح ويلفّوه من رأسه حتى أخمص قدميه بالضمادات. فعل هذا. بعد ذلك قاموا بلفّه في عدد من المُلاءات ثم أوثقوه بحزام إلى سرير مستشفى. ثم صبوا الماء عليه ليُثقلوا الضماد. افتكّ هوديني نفسه. جُنّ جنون المسرحيين القدامى. لكن هذا لم يُشعره بالرضا.

نوى هوديني الإبحار إلى أوروبا على متن «الإمبراطور»، سفينة ألمانية ضخمة بتمثالٍ في مقدمتها، وهو أمر غريب بالنسبة لسفينة ركاب حديثة ثلاثية المداخن. التمثال لنسرٍ إفريقي يغرز مخالبه في الكرة الأرضية. جاءت أم هوديني العجوز، السيدة وايس، إلى رصيف الميناء لتشيّعه. امرأة قصيرة مرتّبة تلبس الأسود. قبّلها وعانقها وقبّل يديها ثم صعد سلّم السفينة. نزل السلم عائدا وقبّلها من جديد، ممسكا بوجهها بين يديه ومقبّلا عينيها. هزت رأسها وربتت عليه. صعد السلم مسرعا ولوّح بيديه. لم يكن على يقينٍ من أنها تراه. حينما تحركت السفينة العظيمة إلى الوراء في النهر وقف على حاجزها ولوّح بيديه. لوّح بقبعته كيما يلفت انتباهها. كان جليّا أنها لا تستطيع رؤيته. صاح على نحو مثير للسخرية لأن محركات السفينة كانت تخضّ ماء النهر. واصل مراقبة جسدها الأسود الصغير، ثم استدار حول رصيف الميناء بينما تُدير زوارقُ السَّحْب السفينةَ في اتجاه الماء. وقفت على الرصيف، سيدةً عجوزا ضعيفة لطيفة، وراقبت السفينة تبتعد تدريجيا عن نظرها. كانت تستمتع بحماس ابنها. أتى إليها مرة وجعلها تشدّ مريلتها إلى الأمام. ألقى في داخل المريلة خمسين دولارا ذهبيا لامعا. كان صبيا خيّرا. أعادتها سيارة أجرة إلى منزلها على شارع 113 لتنتظره.

افتتح هوديني جولتَه الأوروبية في مسرح هانسا في هامبورغ. كان الجمهور متحمسا. فردت له الصحفُ كثيرا من المساحة. لم يعرف مشاعر الاستياء قطُّ. تعجب لماذا كرّس حياته للترفيه الطائش. هتف الجمهور. عقب كل عرضٍ دائما ما كان هناك جمعٌ صغيرٌ على مدخل المسرح. كان قصيرا بينهم. ثم في أحد الأيام حضر العرضَ العموميَّ

لطائرةٍ فرنسيةِ الصنع تدعى «فويسن»، طائرة ثنائية السطح جميلة بأجنحةٍ مصندقةٍ وموجّهِ مقصورة وعجلاتِ دراجةٍ هوائيةٍ ثلاثٍ مثبتةٍ بدعائم. طار بها الطيار فوق مضمار سباق ثم حطّ بها في الميدان الداخلي، وفي اليوم التالي وصفت الصحف عمله البطولي. حسم هوديني أمره. خلال أسبوعٍ غدا مالكَ طائرة «فويسن» جديدة ثنائية السطح. كلّفته خمسة آلاف دولار. جاءت مكتملة مع ميكانيكيٍّ فرنسي أعطاه تعليمات حول فن الطيران. تمكّن من حجزِ ميدانِ استعراضٍ عسكري خارج هامبورغ للاستخدام. في كل الدول التي أدّى عروضه فيها كانت علاقاته مع الجيش دائما على ما يرام. أُعجب به العسكرُ في كل مكان. في كل فجرٍ يذهب إلى ميدان الموكب ويجلس على مقعد طائرة «فويسن» بينما يُحاضر عليه الميكانيكي الفرنسي حول وظيفة المقابض والدواسات الموجودة في متناول يد قائد الطائرة وأغراضها. كان يتحكم في الطائرة من خلال مقودٍ طويلٍ ثُبت على الوضع العمودي وأُلحق عبر عمودٍ بالموجّه الأمامي. جلس قائدُ الطائرة خلف الموجه الأمامي على مقعدٍ صغيرٍ بين الجناحين. خلفه المحرك، وخلف المحرك كانت المروحة. صُنعت طائرة «فويسن» من الخشب. غُطي الجناحان بقماش شُدّ شدًا محكما ثم طُلي بالورنيش. كُسيت الدعامات التي تصل الجناحين المزدوجين بالمادة نفسها. بدت طائرة «فويسن» مثل طائرة ورقية مشرّعة. أمر هوديني بأن يُصبغ اسمُه بأحرف كبيرة على الألواح الخارجية للجناحين وعلى ذيل الطائرة. تحرّق شوقا إلى رحلته الأولى بالطائرة. درّبه الميكانيكي الصّبُور على العمليات المختلفة اللازمة للتحليق بالطائرة والسيطرة عليها أثناء الطيران والهبوط. كل ليلة يؤدي هوديني عروضه وكل صباح يذهب

لدروسه عند الفجر. أخيرا ذات صباح عندما كانت السماء الحمراء صافية وقدّر الميكانيكي أن حالة الرياح مناسبة، دفعا الطائرة خارج سقيفتها ووجّهاها في اتجاه النسيم. تسلق هوديني مقعد قائد الطائرة ولفّ قبعته إلى الوراء وشدّها بقوة على رأسه. قبض على المقود. ضيّق عينيه في تركيز، ضغط على فكه بشدة وأدار رأسه ثم أومأ إلى الميكانيكي الذي أدار المروحة الخشبية. اشتغل المحرك. كان من طراز إنفيلد بقوة 80 حصانا، ويفترض أنه أفضل من ذاك الذي استخدمه الأخوان رايتس. زاد هوديني من سرعة المحرك وهو يتنفس بصعوبة، ثم عطّله ثم زاد من سرعته من جديد. في الأخير رفع إبهامه. تـوارى الميكانيكي تحت الجناحين وسحب أوتادَ العجلات. تحركت الطائرة ببطء إلى الأمام. تسارعت أنفاس هوديني بارتفاع سرعة طائرته. سرعان ما كانت تسير مرتجّة على الأرض وكان في وسعه أن يشعر بالجناحين الحساسين يتبنّيان إدراكا خاصا بهما وكأن كائنا بلا جسدٍ قد انضمّ إلى المغامرة. أقلعت الطائرة عن الأرض. ظنّ أنه في حُلم. كان عليه أن يكبح مشاعره عمدا، آمرا نفسه بصرامةٍ أن يحافظ على توازن الجناحين وأن يوائم باستمرارٍ بين ضغطه على دواسة الوقود وبين سرعة الطيران. داست قدماه على الدواسات وقبض على عجلة التحكم فمال الموجّه الذي أمامه إلى الأسفل وارتفعت الطائرة في السماء. تجاسرَ على النظر إلى الأسفل: كانت الأرض على بُعد خمسين قدما تحته. لم يعد يسمع المحرك المهتز خلف أذنه. أحس بالرياح في وجهه واكتشف أنه كان يصيح. بدت الأسلاك تغني، والجناحان الكبيران فوقه وتحته مالت وانحنت وعزفت في الهواء بذكائها اللطيف الذي لا يصدق. كانت عجلات الطائرة تدور ببطء،

بلا هدف في النسيم. حلّق فوق مجموعة أشجار. إذ اكتسب الثقةَ وضع الطائرة في مناورةٍ صعبة، ألا وهي الميلان جانبا. رسمت طائرة «فويسن» دائرةً عريضةً فوق الميدان العسكري. ثم كان في استطاعته أن يرى الميكانيكي واقفا بعيدا عند السقيفة، رافعا كلتا ذراعيه مُحيّيا. بهدوء ساوى هوديني الجناحين فانزلق تحت نسيمه وبدأ في الهبوط. في اللحظة التي لمست العجلاتُ فيها الأرضَ أزعجته خشونةُ الصدمة. وعندما هدر المحرك حتى توقف لم يكن يريد سوى أن يعود إلى الجو مرة أخرى.

في رحلات لاحقة بقي هوديني في الجو مدة عشر دقائق أو اثنتي عشرة دقيقة. كان هذا من أجل تحدي قدرة الطائرة على استيعاب الوقود. بدا في بعض المرّات أنه يطفو كما لو كان معلّقا من الغيوم التي فوق رأسه. كان بإمكانه أن يرى في الأسفل قُرًى بأكملها لابداتٍ في الريف الألماني، وأن يتابع ظلّه عبْر طرقٍ شديدةِ الاستقامة مسيَّجة. ذات مرة حلق عاليا بما يكفي ليتمكن من رؤية أفق هامبورغ العتيقة مع ومضات لنهر إيلبي. كان فخورا أشدَّ الفخرِ بطائرته. أراد أن يصنع تاريخ الطيران. بدأ ضباطٌ شبّانٌ من الثكنة المحلية في المجيء إلى الميدان العسكري لمشاهدة هوديني وهو يطير. صار يعرف بعضهم بالاسم. ثم سأله القائد الذي كان يأخذ موافقته لاستخدام ميدان الاستعراض العسكري عما إذا كان هوديني مهتما بإلقاء بضعِ محاضراتٍ على الضباط الشبان حول فن الطيران. وافق الساحر على الفور. رتّب جدوله بناء على هذا الأساس واستهلّ سلسلة من المحاضرات غير الرسمية. أعجبه الضباط الشبان. كانوا يتمتعون بذكاء عال ومحترمين جدا. ضحكوا على نكاتِه. بدت لغته الألمانية

ركيكة وملوّثة باليديشية لكن لم يبدُ أنهم قد لاحظوا.

ذات صباح بعد رحلة درّج هوديني طائرتَه إلى السقيفة ولاحظ أن في انتظاره سيارة مرسيدس تحمل كبار ضباط القوات الألمانية الإمبريالية. قبل أن يترجّل وقف صديقُه القائدُ من مقعده في السيارة فحيّاه وطلب منه على نحوٍ رسمي ما إذا كان لا يمانع في الإقلاع بطائرة «فويسن» من جديد في رحلة توضيحية. نظر هوديني إلى الرجلين المسنين كثيري الأنواط الجالسين في مقصورة السيارة الخلفية. أومَأ إليه. كان في المقعد الأمامي إلى جوار السائق رجل مجند يجلس متأهبا، يرتدي خوذة شائكة ويمسك ببندقية قصيرة فوق ركبتيه. في هذه اللحظة توقفت ببطء خلف السيارة عربة لندوية بأربع عجلات بيضاء من طراز ديملر بمقصورة ركاب مغلقة. تجهيزاتها النحاسية مصقولة صقلا شديدا وحتى أسلاك عجلاتها الخشبية البيضاء نظيفة. من رفرف السيارة الأمامي الأيمن خفق عَلَمٌ ذهبيٌّ الأهداب. لم يكن هوديني يرى ما في داخل مقصورة الراكب. قال: بالطبع. أمر الميكانيكي بإعادة تعبئة الوقود، وخلال بضع دقائق كان يحلّق ثانيةً في الأعلى، مُميلا الطائرة ميلاتٍ عريضة فخمة حول الميدان. حاول أن يتخيل الكيفية التي يبدو بها من الأرض. شعر بانفعال الأداء. أثار أزيزا فوق السيارتين على ارتفاع مئة قدم ثم أعاد الكرّة على ارتفاع خمسين قدما هازّا جناحيه وملوّحا. حلق من أجل مَن كان في تلك السيارة البيضاء أيّا يكن.

لما هبط اصطُحب إلى عربة ديملر الكبيرة. فتح السائق البابَ ووقف متأهبا. في السيارة كان الأرشيدوق فرانز فرديناند، وريث العرش النمساوي الهنغاري، جالسا. كان الأرشيدوق مرتديا زيّ

مارشال في الجيش النمساوي. حمل في طيّةِ ذراعه خوذة مُرَيَّشة. كان شعره مقصوصا بحيث بدا قصيرا ومسطَّحا من الأعلى مثل فرشاة. له شاربان طويلان مشمّعان انعقا إلى الأعلى ونظر إلى هوديني بعينين بليدتين غليظتَي الأجفان. إلى جواره جلست زوجته، الكونتيسة صوفي، امرأة مهيبة تتثاءب برقّة من وراء كفّ بقفّاز. لم يبدُ أن الأرشيدوق فرانز فرديناند يعرف هوديني. هنأه على اختراعِ الطائرة.

II

14

عندما عاد الأب إلى نيو روتشيل صعد درجات منزله الأمامية، وسار تحت أشجار القيقب النرويجي العملاقة وألفى زوجته ممسكةً برضيعٍ أسمر في ذراعيها. في الأعلى انطوت الفتاة السمراء على نفسها. نزع الحزنُ من عضلاتها القوة. لم تقوَ على حملِ رضيعها. جلست طوال اليوم في غرفة العلية تراقب ألواح النوافذ الماسيّة وهي تلمّ الضوء وتتوهج به ثم تتخلى عنه. نظر الأب إليها من خلال الباب الموارب. تجاهلته. تمشى في المنزل وعثر في كل مكانٍ على أماراتِ إقصائه. لدى ابنه الآن مكتبٌ يلائم التلاميذ الشبّان. ظن أنه سمع رياحا من القطب الشمالي لكنها كانت الخادمة بريجيت تدفع فوق سجادة الردهة مكنسةً كهربائية شافطة. أغربُ الأشياء كانت مرآة حمّامه: عكست وجها نحيلا ملتحيا لشخص منبوذ، رجلا يفتقد منزلا. لم تكن مرآةُ الحلاقة في سفينة «روزفلت» تكشف عن هذا الرجل. خلع ملابسه. صدمته خطوطُ جسده الأبيض الضعيف، الضلوع والترقوة، الحوض الناتئ، العضو المتدلي هناك أشدّ احمرارا من أي شيء آخر. ليلا في السرير أمسكته الأم وحاولت أن تدفئ ظهره الصغير، لفّته في

جوفها وهي تضطجع ضاغطةً جسمها على ظهره ومحتويةً برودَه الغريب. كان واضحا لهما أنه أطال هذه المرة الغيابَ عن المنزل. في الأسفل وضعت بريجيت أسطوانة في فونوغراف ڤكترولا، أدارت ذراع الجهاز وجلست في الردهة تدخّن سيجارة وتستمع إلى جون ماكورماك يغني «أسمعك تناديني». كانت تقوم بما في وُسعها لتخسر وظيفتها. فقدت كفاءتها وتهذيبها. لاحظت الأم هذا الاختلاف منذ وصول الفتاة السمراء. ربط الأبُ الأمرَ بدرجات الدوران في الكوكب الأخلاقي. لقد شاهد في كل مكان هذا الموسم الجديد وأثار دهشته. في مكتبه أخبروه أن الخيّاطة في قسم الأعلام انضمت إلى نقابة عمّال في نيويورك. ارتدى من خزانته ملابس انتفخت حول جسده فضفاضةً مثل الفرو الذي ارتداه سنة كاملة. أحضر إلى المنزل هدايا. أعطى ابنه زوجا من أنياب حصان البحر وسنَّ حوتٍ عليه نقوش إسكيمو. أهدى زوجته فروَ دبٍّ قطبي أبيض. أخرج من حقيبته كنوزا من القطب الشمالي -دفاترَ مذكراته اليومية وقد تلوّت حوافّها وتيبّست صفحاتها وكأنما لحقها بلل، وصورةً موقّعة للضابط بيري، ورأسَ رمحِ صيدٍ من العظم، وثلاثَ أو أربعَ علبٍ من الشاي غير المستخدم- كنوز لا تصدق من الشمال، لكنها هنا في الردهة ممتلكاتُ متوحّشٍ مثيرةٌ للإحراج. وقف أفراد العائلة وراقبوه جاثيا على ركبتيه. لم يكن عنده ما يقوله لهم. على القوس الشمالي من العالم كان الظلامُ وبرودٌ تسلق جسده حتى انحنى كتفاه. أثناء انتظاره أن يعود بيري إلى «روزڤلت» سمع الرياح تعوي ليلا وعانق بحبٍّ وامتنانٍ الجسدَ الكريهَ، مثل سمكة مُنتِنة، لامرأةٍ من الإسكيمو. رمى جسده في السمكة المنتنة. التعبير الأنغلوساكسوني القديم الذي لم يجرؤ يوما على التفكير فيه. ذلك

ما فعل. الآن في نيو روتشيل شمّ في نفسه زيتَ كبد السمك، سمك في أنفاسه، سمك في منخريه. دعكَ جسمه حتى احمرّ. نظر إلى عيني الأم ليطلب العدلَ في جزائه. بدلا من ذلك وجد امرأة فضولية ومحترسة من وجوده الجديد. أدرك أنهما ناما في السرير نفسه في كل ليلة منذ رجوعه. بطريقة ما لم تكن على احتشامها النشيط السابق. استقبلت نظرته. جاءت إلى السرير وشعرها غير مُضفر. مسحت يدها ذات ليلة صدره فاستقرت تحت قميص نومه. أحسّ أن الله قد خبأ له عقوبات مراوغة جدا بحيث لم يكن من المعقول التنبؤ بها. انقلب وهو يتأوه ناحيتها فوجد أنها متهيأة. لم يشعر كفّاها بالدموع وهما تسحبان وجهه إلى وجهها.

لكن المنزل بنوافذه المنفتحة إلى الخارج وحوافه المشطوفة ونوافذ أسقفه المائلة برز من الفناء مثل سفينة. رُبطت مظلاته المطوية في النوافذ. وقف على الرصيف في صباح يوم مشرق من نوفمبر. غطى الثلجُ الأوراقَ الساقطة فاستقرت حول المنزل كأنها أمواجٌ متراصفة. هبّت الرياح. عاد بمصباح ضعيف. فكر في التجهيز لخطاب عودته الذي سيلقيه أمام نادي مستكشفي نيويورك. ورأى أنه يفضّل الجلوس في الردهة، يُدني قدميه من مدفئة كهربائية صغيرة. عامله كلُّ أفراد العائلة وكأنه يقضي فترةَ نقاهة. قدم له ابنه حساءَ البقر. لقد طال الصبي وخسر بعض الوزن. غدا مقتدرا وصالحا. ناقش موضوعَ مُذنّب هالي بذكاء. أحس الأب بأنه طفلٌ أمامه.

في الجريدة نُشرت أخبارُ رحلة السفاري التي قام بها تيدي روزفلت إلى إفريقيا. صادَ أبرز المنادين بالحفاظ على الطبيعة سبعةَ عشر أسدا، وأحد عشر فيلا، وواحدا وعشرين رأسا من وحيد القرن،

وثمانية من أفراس النهر، وتسع زرافات، وسبعة وأربعين غزالا، وتسعة وعشرين حمارا وحشيا، وما لا يحصى من البقر الوحشي والظباء والوعول والخنازير والأيائل.

أما فيما يتعلق بالشُّغل في غياب الأب فيبدو أن الأمور كانت تسير على ما يرام. أصبح في استطاعة الأم أن تتحدث بطلاقة عن شؤون مثل تكلفة الوحدة والجَرْد والإعلان. أخذت على عاتقها تولّي مهامّ إدارية. لقد أحدثت تغييرات في بعض إجراءات الفواتير وأبرمت عقودا مع أربعة وكلاء مبيعات في كاليفورنيا وأوريغون. كل ما قامت به صمد أمام اختبار الوقت. لقد ذُهل. على طاولة الأم الجانبية حِذاءَ السرير كان هناك مجلد عنوانه «معركة السيدات» من تأليف مولي إيليوت سيويل. وجد أيضا كتيّبا حول موضوع القيود العائلية ألّفته الثائرة الأناركية إيما غولدمن. في المحل، لقيَ الخالَ الأصغر منكبّا على طاولة رسم تحت نافذة شفافة. شعر الخال الأشقر قد أخذ في التساقط. بدا شاحبا وضامرا وأكثر صمتا من ذي قبل. كان الملفتُ للنظر الوقتَ الذي أمسى يقضيه الآن في العمل، اثنتا عشرة إلى خمس عشرة ساعة في اليوم. اضطلع بإدارة قسم الألعاب النارية من الشّغل وصمّم عشرات الصواريخ والعجلات النارية الجديدة ونوعا استثنائيا من المفرقعات محشوّا في حاويات ليست أسطوانية بل كروية الشكل. ولأن فتيلَ هذا النوع يبدو مثل جذعٍ فقد سُمّي بقُنبلة الكرز. ذهب الرجلان ذات صباحٍ إلى ميدان التجريب الذي يستخدمه الخال الأصغر عند نهاية خط عربات الترام، في أهوار الملح. ارتدى كلٌّ منهما معطفا أسود ثقيلا وقلنسوة. وقف الأب على حافة العشب في ربوة. وفي سهلٍ طيني متشقق على بُعد خمسين ياردة انحنى الخال

الأصغر وجهّز عَرْضَه. كان قد اتفق مع الأب على أن يشعل المفرقعات العادية أولا ثم قنبلة الكرز ثانيا. نهض فجأة ورفع إحدى ذراعيه عاليا ثم ابتعد متراجعا بضعَ خطوات. سمع الأب فرقعة الألعاب النارية المنخفضة بعد أن رأى خيطَ دخان محتْه الرياح. بعدئذٍ تقدم الخال الأصغر إلى الأمام من جديد، أسرع هذه المرة. رفع ذراعيه. ثم حدث بعد ذلك انفجارٌ مثل قنبلة. فجأة أخذت النوارس تحوم في الجو وشعر الأب بما بعد الصدمة على هيئةِ طنينٍ في أذنيه. ساوره شيءٌ من القلق. عندما انضم إليه الخال الأصغر كان وجهه جافلا وكانت عيناه تلمعان. أشار الأب إلى أن حشوةَ البارود ربما كانت أقوى من اللازم وقد تسبّب إصابات. قال: لا أريد أن أبيع شيئا قد يفقأ عينَ طفل. لم يقل الخال الأصغر شيئا واكتفى بالمشي إلى أرضية التجريب وأشعل قنبلة كرز أخرى واقفا هذه المرة على بُعد خطوة أو خطوتين من الفتيل. وقف كما لو كان في دشّ حمام رافعا رأسه في اتجاه الماء. فرد ذراعيه. انفجرت القنبلة. حامت الطيور في دوائر تتسع، محلقة فوق الصوت، ومنقضّة على ذؤابات الأمواج ثم مرفرفة فوق الرياح.

كان الرجل الشاب في كَمَد. تدريجيا أخذت إيفلن نسبت تُشعره باللامبالاة تجاهه وعندما تمسّك بحبه أصبحت عدائية معه. في الأخير غادرت ذات يوم مع راقص راغتايم محترف. تركت رسالة. كانا يخططان لتأليف مسرحية معا. جلب الخال الأصغر إلى غرفته في نيو روتشيل صندوقا خشبيا مليئا ببورتريهات ظلية وزوجِ حذاءٍ صغير من الستان البيج كانت إيفلن قد رمتْه. مرة وضعت يديها على فخذيها وحدقت إليه من فوق كتفها، وهي عارية إلا من ذلك الحذاء وجوربين أبيضين مطرزين. استلقى في سريره أياما بعد عودته. أحيانا كان

يمسك نفسه كما لو كان يجتثّ قضيبه من جذوره. كان يذرع غرفته ويضع يديه على أذنيه ويهمهم بصوت عال عندما كان يسمع صوتها. لم يستطع النظر إلى البورتريهات. نوى أن يحشو قلبه بالبارود ثم يفجّره. من دون سابق إنذار استيقظ ذات فجر برائحتها في منخريه. كانت هذه الذكرى الأكثر وحشية من بين ذكرياته. هبط السلم وألقى بكومة البورتريهات الظليّة وحذاء الستان في حاوية القمامة. ثم حلق ذقنه وخرج إلى مصنع الأعلام والألعاب النارية.

استعاد ابنُ أخته البورتريهات الظليّة.

15

يحمل الصبي تقديرًا لكل ما يُرمى. حصل على تعليمه بطريقة استثنائية وعاش حياة ثقافية سريّة بالكامل. وضع عينيه على مذكرات أبيه في القطب الشمالي لكن لم يحاول أن يقرأها ما لم يتوقف الأب عن الاهتمام بها. في رأيه يُدْرَكُ معنى الشيء من خلال إهماله. قلّب البورتريهات الظلية متفحصا إياها بعناية، وانتقى واحدة منها ليعلّقها على الجانب الداخلي من باب خزانة ثيابه. كانت رسمةً أولية لأكثر الموديلات تكرارا في لوحات الفنان، فتاةٍ بشعر كأنه خوذة تقفُ وقفةَ مَن يمكن أن تهرب في أية لحظة. ترتدي حذاءً عالي الرباط باليا وجوارب مترهلة يرتديها أطفالٌ فقراء. أخفى بقية مجموعة البورتريهات في العلية. كان متنبّها ليس للأشياء المهملة فحسب ولكن أيضا للأحداث والمصادفات غير المتوقَّعة. لم يتعلم شيئا من المدرسة لكن كان ينجح لأنه لم يكن يُطلب منه شيء. معلمته امرأة مصففة الشعر درّبت تلامذتها على الخطابة وكانت تصفق بيديها بينما هم يتمرنّون في مذكراتهم على الخطوط المنحنية التي كان يُعتقد أنها تساعد على تحسين الخط. في المنزل أبدى ولعا بكتب «موتور بويز»

ونادرا ما فوّت عددا من مجلة «وايلد وست ويكلي»، ولسببٍ ما ارتاحت العائلة لهذه الأذواق التي اعتبرتْها استثنائية. شكّت الأم في أنه طفل غريب رغم أنها لم تشارك شعورها هذا مع أحد، ولا حتى مع الأب. كانت تسرّي عنها أيّة دلالة على أن ابنها طبيعي. تمنّت لو يكون له أصدقاء. ما زال الأب غريبا عن نفسه أما الخال الأصغر فكان شديدَ الهوس بمشاغله بحيث لا فائدة تُرجى منه، ولذا تُرك الأمر للجدّ كيما يصقل ما اعتُبر غرابةَ الصبي أو استقلالَه الروحي.

كان العجوز ناحل الجسم محدودب الظهر تنبعث منه رائحةُ عفن، ربما لأن ملابسه قليلة ويرفض شراء أي جديد أو القبول به. إضافة إلى ذلك كانت عيناه تذرفان على الدوام. لكنه كان يجلس في الردهة ويقرأ على الصبي قصصا من أوفيد. قصصا لأناس أصبحوا حيوانات أو أشجارًا أو تماثيل. قصصا عن التحوّل. تتحول النساء إلى زهور عبّاد الشمس وعناكب وخفافيش وطيور، ويتحول الرجال إلى أفاعٍ وخنازير وحجارة بل وحتى نسمات هواء. لم يكن الصبي يعلم أنه كان يستمع إلى أوفيد، وما كان الأمر سيُحدث فارقا لو علم. كشفت له قصصُ الجد عن أن أشكالَ الحياة متقلبةٌ وأن كل شيء في العالم يمكن أن يصبح بسهولةٍ شيئا آخر. غالبا ما كان سردُ العجوز ينحرف من الإنكليزية إلى اللاتينية من دون شعوره، وكأنه يقرأ على واحد من صفوفه قبل أربعين سنة، وهذا برهانٌ على أنه لا شيء مُستثنًى من مبدأ التقلب، بما في ذلك اللغة.

نظر الصبي إلى جدّه باعتباره كنزا مُهمَلا. وسلّم بالقصص على أنها صورٌ للحقيقة، وبالتالي افتراضات يمكن أن توضع موضعَ التمحيص. وجد برهانا في تجربته الخاصة عندما يتعلق الأمر بعدم

استقرار الأشياء والناس على السواء. كان في وسعه أن ينظر إلى فرشاة الشعر على المنضدة فتنزلق أحيانا على الحافّة وتسقط على الأرض. إذا رفع نافذة غرفته قد تُوصد من تلقاء نفسها في اللحظة التي يعتقد فيها أن الغرفة أصبحت باردة. كان يفضّل الذهاب إلى عروض الصور المتحركة في وسط المدينة في مسرح نيو روتشيل على شارع مَين. ألمّ بمبادئ التصوير الفوتوغرافي لكنه أيضا أدرك أن الصور المتحركة تعتمد على قدرة البشر والحيوانات والأشياء على فقدان أجزاءٍ من أنفسهما، بقايا من الظل والضوء يتركونها خلفهم. كان يصغي بافتتانٍ إلى جهاز الڤكترولا مشغّلا الأسطوانة نفسها مرةً تلوَ المرة، أيا كانت موسيقاها، كما لو كان يمتحن قدرته على احتمال حدثٍ متكرر.

ثم أبدى ولعا بمراقبة نفسه في المرآة، ربما مترقّبا تغيّرا قد يحدث أمام عينيه. لم يفلح في ملاحظة أنه أطول مما كان عليه قبل بضعة أشهر أو أن شعره آخذ في الاسوداد. تنبهّت الأم إلى اهتمامه الجديد بنفسه وفسّرته على أنه خيلاءُ صبيٍّ بدأ يعتقد أنه غدا رجلا. لقد تجاوز بالطبع مرحلة قمصان البحّار. ولأنها كتومٌ كالعادة لم تقلْ شيئا. لكنها شعرت بسرورٍ كبير. في الواقع واصل سلوكه ليس بدافع الخيلاء ولكن لأنه اكتشف المرآة باعتبارها أداةً لنسخ الذات. كان يحدق في نفسه حتى يكون هناك اثنان يقابل أحدهما الآخر، من دون أن يكون لأحدهما الحقُّ في ادّعاء أنه الشخص الحقيقي. كان الإحساسُ إحساسَ الانفصال عن الجسد. لم يعدْ على الإطلاق محددا ودقيقا باعتباره شخصا. لديه شعور مشوش بالانفصال عن نفسه بلا نهاية. كان يفتن نفسه بعمقٍ شديدٍ في هذه العملية بحيث لا يعود قادرا على الخروج منها على الرغم من صفاء ذهنه. كان عليه

أن يعتمد على محفّز خارجي، ضجيجٍ عالٍ أو تغيّرٍ في الضوء القادم من النافذة، لكي يستحوذ على انتباهه ويعيده كليّا من جديد.

وماذا عن أبيه، الرجل الشديد الواثق في نفسه الذي غاب ثم عاد هزيلا محدودبا ملتحيا؟ أو عن خاله المتساقط شعره وعن كمده؟ في نهاية ربوة جادة برودڤيو أزاح الآباءُ في المدينة ذات يوم الستارَ عن تمثال برونزي لحاكمٍ هولندي عجوز، رجلٍ شرسِ المظهر بقبعة مربعة ومعطف مفتوح وسروال وحذاء محزّم. حضرت العائلة بأكملها من أجل تلك المناسبة. هناك تماثيل أخرى في حدائق المدينة والصبي يعرفها جميعا. كان يؤمن بأن التماثيل واحدةٌ من طرق تحوّل الناس وفي بعض الأحيان الخيول. مع ذلك حتى التماثيل لم تبقَ على حال واحدة بل تحوّلت ألوانها أو فقدت أجزاء منها.

اتضح له أن العالم يشكّل نفسه ويعيد تشكيل نفسه باستمرار في عملية لا نهائية من عدم الرضا.

اشتدّ بردُ الشتاء وجفافه فغدت بِرَك نيو روتشيل مثالية للتزلج. راحت الأم والخال الأصغر والصبي يتزلجون في أيام الأسبات والآحاد على بِركةٍ في الغابة في أقصى شارع باين المحاذي لبرودڤيو. يتزلج الخال الأصغر لوحده آخذا على الجليد خطواتٍ طويلةٍ رصينةٍ ورشيقة، واضعا يديه خلف ظهره ومطأطئا رأسه. ترتدي الأم قبعة من الفرو ومعطفا أسود طويلا وتحشر كفيها في شال وبريٍّ وهي تتزلج إلى جوار ابنها الممسك بذراعها، ترجو أن تُلهيه عن انشغالاته الداخلية الوحيدة. كان مشهدا بهيجا حيث الأطفال والبالغون من كل الأحياء يتزلجون فوق الجليد الأبيض، تتدلى من أعناقهم أوشحة طويلة ملونة، وخدودهم وأنوفهم حمراء. يسقط ناس ويضحكون

ويساعدهم آخرون على النهوض. تعاني الكلاب في الحفاظ على توازنها وهي تلاحق الأطفال. هناك باستمرار صوتُ شفراتِ المزالجِ تقصّ الجليد. تُحضر بعض العائلات كراسي خوص على سجاجيد لكبار السن أو مَن لا يجسرون على التزلج، وهؤلاء كانوا يُدفعون بحرص. لكن عيني الصبي لم تكن ترَيان سوى الآثار التي تتركها المزالج، آثار تُمحى سريعا من اللحظات السابقة والرحلات المأخوذة.

16

تلك السنة دخل الشتاء على تاته وابنته وهما في مدينة لورنس في ولاية مساتشوستس. وصلا إلى هناك الخريف الذي قبله بعد أن سمعا بوجود وظائف فيها. وقف تاته أمام دولاب النَّوْل لمدة ست وأربعين ساعة في الأسبوع. يتقاضى راتبا أدنى من ستة دولارات بقليل. عاشت العائلة في شقة خشبية على هضبة. لم يكن في الشقة جهازُ تدفئة. سكنا في غرفةٍ مطلّةٍ على زقاقٍ يرمي فيه السكان عادةً نفايتهم. خشي أن تقع ضحية سكان الحي من الطبقة المتدنيّة. رفض أن يُلحقها بالمدرسة -تفادي السلطات هنا أسهلُ منه في نيويورك- وجعلها تجلس في البيت عندما لا يستطيع أن يكون معها ويأخذها إلى الخارج. بعد الدوام يمشي معها مدةَ ساعة في الشوارع المعتمة. أصبحت رصينة. تمشي مثل امرأة بكتفين مستقيمين. كان يعذب نفسه بانتظار بلوغها. في هذه السن عندما تصبح الفتاة امرأةً تحتاج إلى أمٍّ توجهها. هل كان عليها أن تعبر هذا التحوّل الصعب بمفردها؟ في المقابل، لو وجد مَن يتزوجها كيف ستتقبل الشخصَ الجديد؟ قد تجده أسوأ شيء في العالم.

تنتظم الشقق الخشبية الكئيبة في صفوف لا نهائية. قطن فيها كلُّ الأوروبيين: الإيطاليون والبولنديون والبلجيكيون واليهود الروس. لم تكن الجماعات المختلفة على وفاقٍ فيما بينها. في أحد الأيام وزع أكبرُ المصانع، الشركة الأمريكية للصوف، مظاريفَ بالرواتب ناقصةً فسرى شغبٌ بين العمّال في المصنع. ترك عدةُ عمّال إيطاليون آلاتِهم. ساروا في المصنع داعين لإضرابٍ عن العمل. أخذوا يسحبون أسلاكا ويرمون كتلا من الفحم عبر النوافذ. تبعهم آخرون. انتشر الغضب. في أرجاء المدينة ترك الناس آلاتهم. أولئك الذين لم يتخذوا قرارا هيّجهم زخمُ التظاهر. خلال ثلاثة أيام أُغلقت كافة مصانع النسيج في لورنس.

كان تاته مبتهجا. قال لابنته: كنا سنموت إمّا جوعا وإمّا بردا. الآن سنموت بالرصاص. لكن أفرادا من اتحاد العمال العالمي متمرسين في إدارة الإضراب جاؤوا من نيويورك ونظّموا الأمور. شُكلت لجنةُ إضراب تمثّل كل الأعراق وأُشيعت رسالةٌ لكل العمّال: لا عنف. أخذ تاته ابنته وانضمّ إلى آلاف المرابطين الذين طوّقوا مبنى المصنع القرميدي الضخم الممتد لأكثر من تقاطع. تزاحموا تحت السماء الرمادية الباردة. قطعت عرباتُ الترام الشارع، يتلفّت سائقوها إلى منظر آلاف المرابطين الزاحفين بصمتٍ فوق الثلج. فوقهم كانت أسلاك الهاتف والتليغراف تتدلى من ثقل الثلج. حرست ميليشيا مدججةٌ بالسلاح بواباتِ المصنع بتوتّر. ارتدى جميعُ أفراد الميليشيا معاطف.

وقعت حوادث كثيرة. أصيبت عاملةٌ بالرصاص في الشارع. لم يكن هناك مَن يملك سلاحا سوى الشرطة والميليشيا، لكن ألقي

القبضُ على قائدي الإضراب، إيتور وجيوفانيتي، بتهمة التواطؤ في إطلاق النار. أودعا السجنَ في انتظار محاكمتهما. كان متوقعا حدوثُ شيء من هذا القبيل. ذهب تاته إلى محطة القطار ليكون حاضرا في استقبال بديلَيْ إيتور وجيوفانيتي في لورنس. كان هناك حشدٌ هائل. ترجّل من القطار بيغ بيل هايوود أشهرُ منسوبي اتحاد العمال العالمي على الإطلاق. كان من الغرب الأمريكي وارتدى قبعة كاوبوي نزعها الآن وأخذ يلوّح بها. علا هتافٌ. رفع هايوود يديه حاضّا الحشد على الهدوء. تحدّث. كان صوته فخما. قال: لا وجود لغريبٍ هنا سوى الرأسماليين. اهتاج المكان. عقب ذلك زحف الجميعُ عبر الشوارع وجعلوا يغنّون أغنية «إنترناشيونال» الثورية. لم ترَ البنت أباها قطُّ بهذا الحماس. راق لها الإضرابُ لأنه أخرجها من الغرفة. تشبّثت بيده.

لكن المعركة استمرت أسابيع متتالية. أنشأت لجانُ الإغاثة مطابخَ في كل حيّ. عندما أخذت البنت حصّتها من الطعام ورفض تاته أن يأخذ حصّته قالت له امرأة: إنها ليست صدقة. يريدكم المُديرون ضعافا، ولهذا يتعيّن عليكم أن تكونوا أقوياء. الناس الذين يساعدوننا اليوم سوف يحتاجون إلى مساعدتنا غدا. على خط الاعتصام لفّ المعتصمون في البرد القارس أوشحتهم حول رقابهم وضربوا بأقدامهم في الجليد البارد. كان معطف الفتاة القصير باليا. تطوع تاته للعمل في لجنة العرض للإضراب التي خرج أفرادها إلى الشوارع الباردة بعد أن صمم لهم ملصقاتٍ. كانت الملصقاتُ في غاية الجمال. لكن الرجل المسؤول قال له إنها لم تكن جيدة. قال الرجل: نحن لا نريد فنّا. نريد شيئا يثير الغضب. نريد أن نُبقي على النار حيّة. رسم تاته معتصمين، شخصياتٍ قاسية أقدامها في الثلج. رسم عائلاتٍ متراصّة في شققها.

انتقل إلى الاستعانة بالكلمات. الجماعة للفرد والفرد للجماعة. شعر بتحسّن. في المساء أخذ إلى بيته قصاصاتِ أوراق وورقَ بلوطٍ مقوّى وأقلاما وحبرا، ولكي يصرف ذهن الطفلة عن مشاكلهم بدأ يرفّه عنها باستخدام البورتريهات الظلية. صنع مشهدا لعربة قطار وأناس يصعدون إليها أو ينزلون منها. أحبّته. وضعته على وسادة سريرها ونظرت إليه من زوايا مختلفة. ألهمه هذا الشيء. صنع مشاهد أولية عدة لعربة القطار وعندما أمسكها معا وقلّب الصفحات بدا وكأن العربة أقبلت من بعيدٍ على السكة الحديدية وتوقفت كيما يصعد الناس أو ينزلون. تطابقت متعتُه مع متعة البنت. نظرت إليه نظرة استحسان هادئ أثار فيه رغبةً قويةً لأن يصنع لها بورتريهات أكثر. أحضر إلى البيت قصاصاتٍ ورقيةً إضافية. تخيّلها فوق مزالج جليدية. في ليلتين صنع لها مئة وعشرين بورتريها ظليا على أوراق لا تتجاوز حجم كفّه. ربطها بخيط. حملت الكتابَ الصغيرَ وثبتت صفحاته بإبهامها فقلّبتها وشاهدت نفسها تتزلج مُقبلة ثم مبتعدة، تتزحلق على شكل ثمانية، ثم تعود فتدور مثل راقصة بالية وتنحني بلطفٍ أمام جمهورها. حملها تاته وبكى إذْ أحسّ بجسدها الضعيف وبشفتيها الغضّتين على وجهه. ماذا لو كان في الحقيقة لا يستطيع القيام بأي شيء لها غير اللوحات؟ ماذا لو استمرّا على هذا النحو في درجات متفاوتة من الأمل المتعذر؟ ستكبر وتلعن اسمه.

في هذه الأثناء ذاعت شهرة الإضراب. وفد المراسلون الصحفيون يوميا من كل أنحاء البلاد. وصل الدعم من مدن أخرى. لكن ضعفا متزايدا دبّ في وحدةِ الصفّ الأمامي للإضراب. رأى رجلٌ بأطفال أن الاستمرار على شجاعته صعبٌ فترك الصف. نُفّذت

خطة بحيث يُرسل أطفال المُضرِبين إلى مدن أخرى لكي يقيموا مع العائلات المتعاطفة مع الإضراب. عرضت مئاتُ العائلات في بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا استضافتهم. وأرسلت عائلات أخرى أموالا. تحققت لجنةُ الإضراب بعنايةٍ من وضعِ كل عائلة. كان على آباء الأطفال توقيعُ استمارات بإعطاء الإذن. بدأت التجربة. قدمت نساءٌ موسراتٌ من نيويورك لمرافقة أول مئة طفل في القطار. أُجري فحص طبي لكل طفل ووُزعت عليهم ملابس جديدة. وصلوا إلى محطة غراند سنترال في نيويورك مثل جيشٍ ديني. استقبلهم حشدٌ وفي لحظةٍ رفع الجميع صورة الأطفال شابكين أيديهم ومحدقين إلى الأمام بتصميمٍ كما لو أنهم يحدقون في اتجاه القَدَرِ الفظيع الذي أعدّته لهم أمريكا الصناعية. التغطية الصحفية كانت موسّعة. أدرك ملّاك المصانع في لورنس أن هذه الحيلة، حملة الأطفال الصليبية، كانت الأكثر ضررا من بين كل الحيل التي دبّرها العمّال. لو سُمح لها بالاستمرار فإن العاطفة الوطنية ستميل إلى جانب العمّال وسيضطر الملّاك إلى الاستسلام. سوف يعني هذا زيادةً في الأجور ستصل ببعض العمال إلى ثمانية دولارات في الأسبوع. سيحصلون على أجرة إضافية لقاءَ العمل خارج أوقات الدوام وعند تسريع أداء الآلات. لن يُعاقَبوا على إضرابهم. إنه أمر غير وارد. عرف مُلّاك المصانع مَن هم متعهدو الحضارة ومصدر التقدم والازدهار في مدينة لورنس. ولصالح البلاد والنظام الديمقراطي الأمريكي قرروا أنه لن يكون هناك مزيدٌ من حملات الأطفال الصليبية.

في الوقت الراهن أخذ تاته يناقش نفسه: من الواضح أن أفضلَ شيء لابنته أن تستقر لبضعة أسابيع عند عائلة. ستحصل

على غذاء جيد، وستحصل على الدفء، وستحصل على فرصةٍ لتجربة الحياة المنزلية الطبيعية. لكنه لن يحتمل فراقها. جلبت له الفكرةُ إحساسا بالشؤم. ذهب إلى لجنة الإغاثة، محلّ ليس بعيدا عن المصنع، وحادث واحدة من النساء هناك. طمأنته أن لديهم من عائلات الطبقة العاملة المحترمة التي تبرعت لاستضافة أطفال ما هو أكثر من احتياجهم. قال تاته: يهود؟ قالت المرأة: سمّ ما تشاء وسنوفره لك. لكنه لم يقدر على توقيع الأوراق. أخبرته المرأة: لقد تحققنا من كل عائلة. هل يُعقل أن نكون لا مبالين حيالَ هذه الأمور؟ أكّد لها تاته: لقد عشتُ اشتراكيا طوال حياتي. قالت المرأة: بالطبع. سيفحص طبيبٌ صدرها. وهذا في حد ذاته أمر يستحق العناء. ستتناول وجباتٍ ساخنة وتعرف أن لأبيها أصدقاء في العالم. لكن لن يضغط عليك أحد. انظر، انظر إلى الطابور وراءك، كثير من الزبائن.

فكر تاته: هأنذا في وسط أخويةٍ وأفكر كما يفكر بعض البرجوازيين من يهود شرق أوروبا. وقّع أوراق الإذن.

بعد أسبوع أخذ البنت إلى محطة القطار. كانت في فريق من مئتي طفلٍ ذاهبين إلى فيلادلفيا. ارتدت معطفا جديدا وقبعة تدفئ أذنيها. ظل يختلس النظر إليها. جميلة. كان لها وهي واقفةٌ هيئةً فخمةً بطبيعتها. بدت مستمتعة بثيابها الجديدة. تصرف معها بعفوية وجاهد لئلّا يبدو ضعيفا. قبلت بفكرة مغادرته من دون أدنى كلمة احتجاج. بالطبع كان هذا جيدا لصالح الاثنين. لكن إن وجدت هذا الأمر في غاية السهولة فما الذي سيجلبه المستقبل؟ لديها ذخيرة من الطباع لم يستنبطها منها. كانت تجذب اهتمام الناس. حدقت فيها كثيرٌ من الأمهات. شعر تاته بالفخر غير أنه كان خائفا أيضا.

وقفا في غرفة الانتظار، جلبة من الأمهات والأطفال. صاح أحدهم: ها هو مُقبل! فهرع الجمعُ إلى الأبواب بينما القطار ينزلق مصفّرا ومُطلقا بهسهستِه سحبا كبيرة من البخار.

أُلحقت عربةٌ محجوزةٌ للأطفال بمؤخرة القطار المتردد بين بوسطن ومَين. محرّكه من نوع بولدوين 4-6-صفر. تحرّك الجميعُ على رصيف المحطة تتقدمهم ممرضاتٌ رسمياتٌ من لجنة فيلادلفيا النسائية. قال تاته وهما يتبعان الركب: لا تنسي تأدُّبك. عندما يسألك الناس سؤالا أجيبيهم. ارفعي صوتك كي يسمعوك. وإذْ تجاوزا زاويةَ المحطة لمح في الشارع صفّا من الميليشيا بقبعاتهم العسكرية. يحملون بنادقهم أمام صدورهم. كانت وجوههم متجهة إلى عكس الرصيف. توقف الركب وتراجع على نفسه. كان هناك هياج من نوع ما في مقدمة الصف. ثم سمع صيحةً فظهرت الشرطةُ في كل مكان وأضحى الجمع فجأة في فوضى عارمة. بينما كان الركاب المشدوهون ينظرون من نوافذ القطار أخذ أفراد الشرطة يعزلون الأمهاتِ عن أطفالهن. يسحبون الأمهات وهم يصرخون ويركلون الشاحنات في آخر الرصيف. كانت شاحنات الجيش من طراز ريو مغطاة وبمحركات دفع رباعي. كان الأطفال يُدهسون. تشتتوا في كل اتجاه. كانت امرأة تجري ومن فمها دمٌ يسيل. انطلق البخار من المحرك مثل قطعٍ من الضباب. قرع الجرسُ بهدوء. ظهرت أمام تاته امرأة. حاولت أن تقول شيئا. كانت تُمسك بطنها. سقطت. رفع تاته ابنته بقوة وحملها عاليا على رصيفِ أقربِ عربةٍ بعيدا عن الأذى. ثم صرف اهتمامه إلى المرأة المنهارة. رفعها من إبطيها وجرّها من بين الحشد إلى كرسي. وبينما هو يُجلسها على الكرسي لفت انتباهَ أحدِ رجال الشرطة. ضربه الشرطي

بعصاه على الكتفين والرأس. صاح تاته: ما الذي تفعل؟ لم يعرف ما الذي كان يريده المعتوه منه. عاد إلى الحشد من جديد. لحقه الشرطي وضربه. تعثر بعيدا عن الحشد وهو لا يزال يُضرب. في الأخير سقط على الأرض.

السُّلطة التي تقف خلف تصرف الشرطة هذا نتجت عن أمرٍ أصدره قائد شرطة المدينة يقضي بمنع كل الأطفال من مغادرة لورنس. كان الأمر من مصلحتهم. جثوا على ركبهم، حاملين أجساد آبائهم وأمهاتهم الدامية المتمددة. دخل بعضهم في نوبة بكاء هستيري. في بضع دقائق نظفت الشرطة الرصيف، وابتعدت الشاحنات، وسارت الميليشيا بعيدا، فلم يبقَ إلا بضعُ آباء وأمهات مضروبين ينشجون وأطفالٌ باكون. تاته أحدهم. اتكأ على عمود لكي يستعيد قواه. لم يكن واعيا بالكامل. بدأ يسمع أصواتا كانت قد أُطلقت قبل دقائق. سمع صوت البُنيّة: تاته، تاته! في تلك اللحظة خطر في باله أن رصيف المحطة كان مشعّا بطريقة غير طبيعية. القطار غادر. ضرب الإدراكُ قلبَه مثل وتر. الآن أصبح في تمام وعيه. مع ذلك ما يزال يسمع الصوت. تاته، تاته! نظر في اتجاه السكة ورأى آخر عربة متجهة إلى فيلادلفيا على بُعد ياردات من نهاية المحطة. لم تكن تتحرك. شرع يجري. تاته، تاته! وبينما هو يجري بدأ القطار يتحرك. ركض على السكة. عَدَا متعثرا وذراعه مرفوعة. قبضت يداه على حاجز رصيف المراقبة. كان القطار يُسرع أكثر فأكثر. ارتفعت قدماه عن الأرض. بدأت العوارض الخشبية في فقدِ وضوحِها تحته. تشبث بالحاجز أخيرا، رافعا ركبتيه فوق نتوء الرصيف ومتشبثا هناك بينما رأسه مضغوطٌ على القضبان كأنه رجل في السجن يتوسل أن يُطلق سراحه.

• 17 •

أنقذ تاته اثنان من محصّلي التذاكر رفعاه من ذراعيه وكرسيٍّ بنطاله إلى رصيف المراقبة. في البداية اضطرا إلى فكّ أصابعه عن الحاجز. وجد ابنته في القطار وطوّقها بذراعيه وهو يبكي متجاهلا جميعَ الذين كانوا حولها من محصّلين وركاب. ثم لاحظ أن معطفها الجديد ملطخٌ بالدماء. نظر إلى يديها. كانت ملطخة بالدم أيضا. صاح: أين مكان الجرح! أين مكان الجرح! هزّت رأسها وأشارت إليه فأدرك أن الدماء التي تغطيها إنما هي دماؤه. كانت تسيل من فروة رأسه مسوّدةً شعره الأشيب.

اعتنى بإصاباتِ تاته وأعطاه حقنةً طبيبٌ صادف وجوده على متن القطار. بعد ذلك لم يكن متأكدا مما حدث. نام مضطجعا على جنبه فوق مقعدين متوسّدا ذراعه. كان يعي حركةَ القطار وجلوسَ ابنته على المقعد المقابل له. نظرت إلى خارج النافذة. كانا الراكبين الوحيدين في العربة المخصّصة لفيلادلفيا. بين الفينة والأخرى يسمع أصواتَ أناسٍ لكنه لم يكن قادرا على أن يجهد نفسه في معرفة ما يقولون. في الوقت نفسه رأى بوضوحٍ عينيها والتلالَ الجليدية

المتحركة بتؤدة على شكل قوس في بؤبؤيها. على هذه الحال سافر جنوبا في اتجاه بوسطن ثم إلى نيو هافن، مرورا بمدينتي وست تشستر، راي ونيو روتشيل، ثم اجتاز ساحات القطار في نيويورك، عابرا النهرَ إلى نيوارك فنِيو جيرسي وأخيرا فيلادلفيا.

عندما وصل القطار وجد اللاجئان مقعدا طويلا في المحطة وقضيا الليلة فيه. لم يكن تاته هو نفسَه كليا. لحسن الحظ كان في جيبه ذلك الجزء من أجره الأسبوعي الذي يدّخره لإيجار الشقة: دولارين ونصف الدولار. جلستِ البنت إلى جانبه على المقعد اللامع وظلت تراقب حركة الناس في المحطة. في ساعات الفجر الأولى لم يكن هناك سوى عاملٍ واحدٍ يدفع مقشّةً يكنس بها الأرضية الرخامية. وكالعادة بدت قادرةً على تقبّل الحالة التي وجدت نفسها فيها. كان رأس تاته يؤلمه. يداه متورّمتان وممتلئتان بالخدوش. جلس مغطّيا أذنيه بكفيه. لم يكن يعرف ما العمل. لم يستطع التفكير. بطريقةٍ ما وجدا نفسيهما في فيلادلفيا.

في الصباح التقط جريدةً مهمَلة. في الصفحة الرئيسية تقرير عن إرهاب الشرطة في مدينة لورنس من ولاية مساتشوستس. وجد سجائره في عُلبتها في جيبه فأخذ يدخّن ويقرأ الجريدة. دعت المقالةُ الافتتاحيةُ الحكومةَ الفيدرالية إلى إجراء تحقيق حول العنف. هكذا إذن، نجح الإضراب. لكن ماذا بعد؟ سمع ثرثرةَ دولابِ النّول. راتبٌ من ستة دولارات وبعض السنتات. هل سيغير ذلك حياتهما؟ سيواصلان العيش في تلك الغرفة التعيسة على الشارع المعتم الفظيع. هزّ تاته رأسه. لن تَدَعَني هذه الدولة أتنفس. وهو في مزاجه هذا توصّل ببطء إلى قرارٍ بألّا يعود إلى لورنس مرة ثانية. سيترك أغراضه وأسماله

لمالك الشقة. قال لابنته: ما الذي معك؟ أرتْه محتوياتِ حقيبتها الصغيرة، أشياءَ أخذتها لرحلتها بعيدا عن المنزل. ملابسها الداخلية، مشطها وفرشاتها، مشبك شعر، جوارب ورباطها، والكتيّبات التي صنعها لها عن عربة الترام والتزلج. ربما انطلاقا من هذه اللحظة، بدأ تاته يتصور حياتَه بمعزلٍ عن قَدَرِ الطبقة العاملة. قال لابنته: أكره الآلات. وقف ففعلتْ مثله وأخذت بيده ثم بحثا معًا عن المخرج. قال: انتصر اتحاد العمال العالمي. لكن ما الذي كسب؟ قروشٌ قليلةٌ إضافيةٌ في الأجور. هل سيمتلك العمّال المصانع الآن؟ كلا.

نظّفا نفسيهما في الحمّامات العمومية. ذهبا إلى مقهى المحطة وأفطرا على رقائقَ وقهوةٍ وقضيا اليوم يتسكعان في شوارع فيلادلفيا. كان الجوُّ باردا والشمسُ مشرقة. نظرا إلى نوافذ المتاجر وعندما تعبت أقدامهما من البرد ولجا متجرًا يبيع بالتجزئة ليدفآ. كان مركزا تجاريا فسيحا يتزاحم المتبضّعون في ممرّاته. أنعمتِ البنتُ النظرَ في الكيفية التي تتأرجح بها السّلال الحديدية متدلّية من كابلاتٍ متحركةٍ فوق مقصورات المحاسبة. كانت تحمل النقود وإيصالات الدفع مترددةً بين المحاسبين ومناضدِ الدفع. يشدّ موظفو المبيعات مقابضَ خشبيةَ العُرى كي تأتي السلال، ويدفعون حِبالا أخرى كي تعود. تعتمرُ مانيكاناتٌ، كأنها دُمًى بالغة، قبعاتٍ حريرية بلا حوافّ وأخرى بحوافّ عريضة مزيّنة بريش مالك الحزين. قال تاته: ثمنُ الواحدة من تلك القبعات أعلى من أجرةِ عملِ أسبوعٍ كامل.

عندما عادا إلى الشارع لاحقا مرّا من أمام بناياتٍ لها واجهاتٌ حديديةٌ وقفت شاحناتٌ على أرصفة مستودعاتها. لم تُثِر نوافذُ شركاتِ التموين وشركاتِ تجارة الجُملة اهتمامَ الطفلة. الذي جذبَ

اهتمامها نافذةٌ متّسخةٌ عُرضت عليها زخارفٌ مبهرجةٌ لشركةٍ حديثةٍ تبيع منتجاتِها عبر البريد. في ذلك الوقت اكتشف رجالُ الأعمالِ الرّبح في الحِيل وعروض ألعاب الخفّة والخدع السحرية. كانت هناك سجائرُ مفرقعة، ورودٌ مطاطية لجيوب المعاطف الصدرية تبخّ ماء، صناديقُ مسحوقٍ يسبّب العطاس، تِلِسكوبات تترك حول عيني الناظر فيها دوائرَ سوداء، أوراقُ لعب مفرقعة، أكياسُ أصوات توضع تحت بِطانات الكراسي، مثبتاتُ ورقٍ زجاجية بمناظر شتائية يتساقط فيها الثلج كلما خَضَضْتها، أعوادُ ثقابٍ متفجرة، منحوتاتٌ رصاصية مصغّرة لجرس الحرية وتمثال الحرية، خواتم سحرية، أقلامُ حبرٍ متفجرة، كتبٌ تخبرك عن معاني الأحلام، راقصاتٌ مصرياتٌ من المطاط يؤدين رقصات شرقية، ساعاتٌ متفجرة، بيضٌ متفجر.

حدق تاته في النوافذ طويلا بعد أن خَبَا اهتمام البنت. قادها إلى متجر الشركة. نزع تاته قبعته وحدّث رجلا يلبس قميصا مقلّما بأكمام مطويّة كان قد تقدم لتحيّته. كان الرجل ودودا. قال: بكل تأكيد، دعنا نراه. أخذ تاته حقيبة البنت فوضعها على المنضدة ولما فتحها سحب كتيّبَ البنت المتزلّجة. أمسك بالكتاب بعيدا عن جسده وهو واقفٌ إلى جوار صاحب العمل، وقلّب صفحاتِه تقليبَ خبير. تزلّجت البنت الصغيرة مُقبلةً ثم أبعدت، تزحلقت على شكل ثمانية، ثم عادت فدارت مثل راقصة بالية وانحنت بلطف. ارتفع حاجبا الرجل ومدّ شفته السفلى. قال: دعني أجرّبه.

بعد ساعة خرج تاته من المتجر بخمسة وعشرين دولارا وخطابِ اتفاقيةٍ موقّعةٍ تُلزمه بإعداد أربعةِ كتبٍ إضافية ثمنُ كل واحد منها خمسة وعشرون دولارا. سوف تنشر الشركة -وكان اسمها شركة

فرانكلين للإبداع- الكتبَ وتضيفها إلى خطّ إنتاجها. لأغراض العقد سُمّيت تلك الكتبُ كتبا سينمائية. قال تاته لطفلته: تعالي نبحث عن مأوى في حيّ جيّد ثم نكافئ أنفسنا بوجبةٍ وحمّامٍ دافئ.

18

هكذا وجّه الفنانُ حياته لتشابه تدفّقَ الحيوية الأمريكية. يُضرِب العمّال ويموتون، ولكن في شوارع المدن بإمكان رياديٍّ الأعمال أن يطبخ بطاطا حلوة في سطلٍ من الفحم الساخن ويبيعها مقابل قرشٍ أو قرشين. يستطيع عازفُ أورغن يدويٍّ مبتسمٌ أن يملأ كأسه بالنقود. قطع عازفُ الكمان فِل أصابعَ قفّازه وعزف تحت نوافذ القصور المضاءة دونَ أن يثبّط البرد همّته. أمّا فرانك حاملُ النقود فظلّ متيقظا بحثا عن حصانٍ فارٍّ يحمل ابنةَ سمسارٍ من سماسرة وول ستريت. على امتداد القارّة كان التجارُ يضغطون على المفاتيح الدائرية الضخمة لصناديق الحساب. أُدركت قيمةُ الحدثِ القابلِ للتكرارِ في كل مكان. صار لكل مدينةٍ آلةُ مشروباتٍ غازيةٍ وآلةُ آيسكريم بلجيكي. طبيب الأسنان بينلس باركر يعرض في كل مكان خدماته بأن يزيل وجعَ أسنانك. في مدينة هايلاند بارك في ولاية ميتشيغن، كانت أولُ سيارة فورد «موديل تي» صُنعت في خط تجميعٍ متحرك تتمايلُ على منحدرٍ حتى استقرت في العشب تحت سماء صافية. سيارة سوداء بشعة وشديدة الارتفاع عن الأرض. تأملها

مخترعُها من بعيد. مالت قبعةُ الديربي التي على رأسه إلى الوراء. كان يقضم عودا من القشّ. أمسك في يُسراه بساعةِ جيب. طالما آمن، وهو الذي يوظّف عمّالا كثيرين جُلّهم من الأجانب، أنّ أغلب البشر يمنعهم غباؤهم المفرط من أن يعيشوا حياة كريمة. تصوّر فكرةً لتقسيمِ عملياتِ العمل في تجميعِ سيارةٍ إلى أبسط خطواتها بحيث يُمكن لأي أحمق أن يؤديها. بدلا من تعليم رجلٍ واحدٍ عشراتِ المهام في صناعة سيارة واحدة يتنقل بسببها إلى هنا وهناك كي يلتقط القِطعَ من مخزون عام، لماذا لا نجعله يقف في مكانه، يؤدي مهمّة واحدة فقط مرارا وتكرارا، وندع القِطعَ تأتي إليه على سُيور متحركة؟ بهذه الطريقة لن تُفرض ضريبةٌ على قدرات العامل العقلية. قال المخترع لمساعديه: الرجل الذي يضع مسمارَ برغيّ لا يضع الصَّمولة. والرجل الذي يضع الصَّمولة لا يشدّها. بارعٌ في استخدام الكلمات. ألهمته زيارةٌ إلى مؤسسةِ تعبئةِ لحومِ البقر حيث كانت الأبقار تتأرجح في المصنع معلّقةً في رافعاتٍ من كابلاتٍ علوية. حرّك بلسانه عودَ القش من زاوية في فمه إلى الأخرى. نظر إلى ساعته من جديد. يكمن جزءٌ من عبقريته في كونه لا يبدو سريعَ البديهة ظاهريا مثل مديريه التنفيذيين ومنافسيه. مَشَطَ العشبَ بمقدمة حذائه. بعد ست دقائق بالضبط من تهادي السيارة على المنحدر ظهرت سيارةٌ مطابقةٌ لها على أعلى المنحدر، وقفت هنيهةً أمام شمس الصباح الباكر الباردة، ثم نزلت واصطدمت بالسيارة الأولى. فيما مضى كان هنري فورد صانعَ سيارات عاديّا. أما الآن فأحسّ بنشوةٍ أعظم وأشدّ من تلك التي مُنحت لأيّ أمريكي قبله بما فيهم توماس جفرسن. لقد دفع آلةً إلى تكرار نفسها إلى ما لا نهاية. تحلّق حوله لمصافحته مديروه التنفيذيون وموظفوه

الإداريون ومساعدوه. ذرفت أعينهم. خصصّ ستين ثانيةً في ساعته الجيبية لإبداء العواطف. ثم صرفَ بعد ذلك الجميعَ إلى العمل من جديد. عرف أن هناك تعديلاتٍ لا بدّ من إجرائها وكان مُحقًا. من خلال التحكّم في سرعة السُّيور المتحركة سيكون في استطاعته التحكمُ في معدّل إنتاج العمال. لم يكن يريد للعاملِ أن ينحني أو أن يخطو أكثر من خطوةٍ واحدةٍ من موقعه في العمل. يجب أن تكون كلّ ثانيةٍ ضرورية لأن يؤدي العامل مهنته. بفضل هذه المبادئ قدّم فورد آخرَ اقتراحٍ لنظرية الإنتاج الصناعي: ليست قِطعُ المنتجِ النهائيِّ وحدها قابلة للاستبدال، بل إن حتى الأشخاص الذين يصنعون المنتجات أنفسهم قطعٌ قابلةٌ للاستبدال. سرعان ما أصبح ينتج ثلاثة آلاف سيارة في الشهر ويبيعها على العامّة. قُدّر له أن يعيش حياةً طويلةً حافلة. أحبَّ الطيور والحيوانات وصادَقَ جون بوروز عالمَ الطبيعة المسنّ الذي درس مخلوقات الغاب المتواضعة- السنجاب والراكون وطيور النمنمة والجُنك والقُرقب.

. 19 .

لكن إنجاز فورد لم يضعه على قمةِ هرمِ رجال الأعمال. رجل واحد فقط احتلّ ذلك المكان الرفيع.

تقع مكاتب شركة جيه بي مورغن في البناية رقم 23 على وول ستريت. جاء المستثمرُ العظيمُ إلى العمل ذات صباح مرتديا بدلة كحلية ومعطفا طويلا أسود بياقةٍ من صوف الغنم وقبعةٍ عالية. كن مُولعا بالموضة التي طاف عليها بعض الوقت. عندما ترجّل من سيارة الليموزين الفارهة سقطت بطانة الباب القماشية عند قدميه. فكّ واحدٌ من زُمرةِ موظفي البنك الذين هرعوا لملاقاته القماشَ وعلّقه على القضيب المعدني للباب من الداخل. أسرف السائق في شُكره. بطريقةٍ ما سقط أنبوب التخاطب عن مِعلاقه فأعاده موظفٌ ثانٍ إلى مكانه. في هذه الأثناء دخل مورغن المبنى فأحاط به المساعدون والمعاونون وحتى بعض عملاء الشركة مثلَ طيور. كان مورغن يحمل عصا مذهّبة الرأس. كان في السنة الخامسة والسبعين من عمره آنذاك، يوشك أن يبلغ طوله ستة أقدام، برأسٍ ضخمةٍ متناثرةِ الشعر الأبيض وشاربٍ أشيبَ وعينين حادّتين قاسيتين متقاربتين بما يكفي للإنباء

عن الأمراض النفسية لإرادته. بعد أن استقبل ولاءاتِ موظفيه مشا بخطوات متباعدة نحو مكتبه، غرفة متواضعة في الطابق الرئيسي للبنك غُطيت بالألواح الزجاجية كيما يراه الجميع ويراهم. سُوعد في تعليق قبعته ومعطفه. كان يرتدي ياقةً على هيئة جناح وربطةَ عنق حريرية. جلس في مكتبه وتجاهل حسابات المُودِعين التي هي في العادة أول ما ينظر إليه، وقال لمعاونيه: أريد أن أقابل الفتى السمكريّ. ما اسمه؟ ميكانيكيّ السيارات. فورد.

لقد أحسّ في إنجاز فورد توقًا إمبرياليًا إلى النظام يضاهي توقَه. تلك أول إشارة يتلقّاها منذ وقت طويل تذكّره بأنه ليس وحده على الكوكب. كان بيربونت مورغن ذلك البطل الأمريكي الكلاسيكي، رجلا وُلد في ثراء فاحشٍ يُضاعِف بفضل جدّه واجتهاده وقسوته ثروةَ العائلة حتى لا يعود يستوعبها البصر. يتحكم في 741 إدارة في 112 مؤسسة. رتّب مرةً للولايات المتحدة الأمريكية قرضا أنقذها من الإفلاس. أوقف هلعَ 1907 الاقتصادي من دون مساعدة أحد عبرَ استيرادِ مئة مليون دولار من سبائك الذهب. عَبَرَ كافةَ الحدود، متنقلا في عربات قطار ويخوت خاصة، وكان يشعر بأن كلّ مكانٍ في العالم بيتُه. كان ملكا متوّجا على مملكة رأس المال اللامرئية العابرة للحدود، التي كانت سيادتها مضمونة في كل مكان. سيطر على ثرواتٍ أفقرتْ ثرواتِ الملوك فأصبح ثوريًا يترك للرؤساء والملوك حِماهم بينما يسيطر على السكك الحديدية وخطوط الشحن والبنوك وشركات الائتمان والمصانع والمرافق العامة. أحاط نفسه عبر السنين بدوائرَ من الأصدقاء والمعارف الذين دائما ما يمحّصهم في ذهنه بحثا عن السمات الشخصية التي قد تشير -أكثر مما يعترفون- إلى عدم

احترامهم له. كان أمله يخيب دائما. يُذعن الرجال له في كل مكان وتُرخص له النساء أنفسهن. خَبَرَ كما لم يخبُر أحد المنتَهى الباردَ القاحلَ للنجاح اللامحدود. جعلت منه العملياتُ العاديةُ لذكائه وحدسه خلال خمسين سنة ماضية عَلَمًا في الشؤون الدولية، واعتقدَ أن هذا لا يُنبئ بالكثير عن البشر. شيء واحد فقط ساعدَ في تذكير بيربونت مورغن بإنسانيته، وهو مرضٌ جلديٌّ مُزمن استعمر أنفه وجعل منه حبةَ فراولةٍ من النوع الضخم الفائز بجوائز الذي زرعه بستانيٌّ كاليفورنيا الساحر لوثر بوربانك. حلّت هذه المصيبة على مورغن في شبابه. كلما تقدم في السنّ وزاد ثراءً كبُر أنفُه. تعلم كيف يطرد الناسَ الذي ينظرون إليه بالتحديق فيهم، لكنه ما استيقظ في يوم من حياته إلّا وتفحّصه في المرآة معتبرا إياه مُقرفا ولكن في الآن نفسه مُرضيا بشكل رائع. تصوّر أنه كلما استحوذ على ملكيةٍ أو تلاعب بعقدٍ أو تملّك صناعةً ما أزهرت في أنفه ثمرةٌ حمراءُ فاقعةٌ إضافية. كانت قصّته الأدبية المفضلة حكايةٌ كتبها ناثانيل هوثورن بعنوان «الوحمة» وتصف امرأةً استثنائيةَ الجمال ما عدا وحمةٍ صغيرةٍ على خدّها. عندما أعدّ لها زوجُها عالمُ الطبيعة جرعة تهدف إلى تخليصها من هذه الشائبة وتناولتْها اختفت الوحمة. ولكنها باختفاء آخر خطٍّ من بشرتها واكتمال جمالها ماتت. كان مورغن يعتبر تشوّهَ أنفه الشنيع لمسةَ الله عليه، تأكيدَ الفناء. كان التشوهُ أكثرَ التوكيدات التي عرفها رسوخا.

ذاتَ مرة قبل سنوات أقام في مقرّ سكنه على جادّة ماديسن حفلةَ عشاء استضاف فيها أقوى اثني عشر رجلا في أمريكا سواه. كان يأمل أن تلوي الطاقةُ الجمعيةُ لعقولهم جدرانَ منزله. أفزعه روكفلر

بخبر إصابته بإمساكٍ مستمرٍ وأنه يفكر كثيرا وهو على المرحاض. كارنيغي غشاه النعاس وهو يتناول شراب البراندي. أما هاريمان فتفوّه بالتفاهات. لم يكن لدى عليةِ رجالِ الأعمال المجتمعين في هذه الغرفة أيّ شيء يقولونه. كم أرعبوه! كم ارتعد قلبه! سمع في دماغه الرياحَ الكهربائية لكونٍ فارغ. أوعزَ إلى الخدم أن يضعوا أكاليلَ الغارِ على كل رأسٍ وجمجمة. بدا أقوى اثني عشر رجلا في أمريكا من دون استثناء مثل مؤخراتِ الخيول. لكن الكبرياء التي اكتسبوها مع ثرواتهم أوهمتْهم أن تلك الأكاليل السخيفة ربما حملت مغزى. لم تفكّر واحدة من النساء أن تضحك. كنّ شمطاوات. جلسن على أعجازهن الضخمة المتثنّية، تتدلى أثداؤهن تحت فتحات صدور الفساتين. ليس فيهن مثقالُ ذرةٍ من فطنة. لا ضوءَ في أعينهن. كنّ الزوجات الوفيّات لرجالٍ عظام، وامتصّ التأثيرُ القاسي للنجاح المتفشي الحياةَ من أجسادهن. اختفى مورغن خلف تعابيرِ وجهِه الصارمةِ الشجاعةِ من دون أن يُبدي شيئا من مشاعره. استُدعي مصورٌ فوتوغرافيٌّ ليلتقط صورة. برقَ ضوءٌ خاطفٌ- جرى توثيق اللحظة المهيبة.

هرب إلى أوروبا على متن سفينة «أوشيانيك» التي تشغّلها شركة «وايت ستار». دمج أساطيل «وايت ستار» و«رد ستار» و«ذي أميريكان» و«دومينيون» و«أتلانتك ترانسبورت» و«ليلاند» جميعا في شركة واحدة تملك 120 سفينة تعبر المحيط. لم يقلّ احتقارُه المنافسةَ على البحار عن احتقارِها على الأرض. وقف ليلا على درابزين السفينة مستمعا إلى البحر العميق وشاعرا بحركته من دون أن يراه. كان السواد يغطي البحرَ والسماءَ بحيث لا يمكن تمييزهما. ظهر من السواد طائرٌ، نورسٌ من نوع ما، ووقّع على الدرابزين على بُعد بضعة

أقدام منه. ربما جذبه أنفُ الرجل. قال مورغن للطائر: ليس لي رفاق. بدت حقيقةً لا تقبل الدحض. بطريقةٍ ما قذف نفسَه إلى خارج نظامِ القيمِ العالمي. لكن هذه الحقيقة تحديدا وَضعت على عاتقه مسؤوليةً ضخمةً للحفاظ على أوهام الآخرين. بنى لإخوته الأساقفة كاتدرائية سانت جون السماوي على غرب شارع 110 في نيويورك. وأمام زوجته وأبنائه البالغين واصلَ تقديمَ صورةٍ لتبلّد الحسّ العائلي. ومن أجل البلاد عاش على نمطِ حياةٍ مفرطِ الفخامة، مُشاركا الملوك موائدَهم ومُقتنيا الأعمال الفنية في روما وباريس ومرافقا خليلاتِه الجميلات في كوميون اكس لي بان.

صان مورغن عهودَه. قضى ستة أشهر من كل سنة في أوروبا يتنقّل في فخامةٍ من دولة إلى أخرى. امتلأت خزائنُ سفنِه بمجموعات اللوحات والمخطوطات النادرة والنسخ الأولى وحجارة اليشمك والبرونز والأوتوغرافات والمنسوجات المزخرفة والكريستال. نظر إلى أعين مواطني رامبرانت وأساقفة الإغريق كما لو كان يبحث عن ممالكِ الحقيقة التي ستقهره وتُخضِعه. تصفّح النصوص المرسومة للأناجيل النادرة من العصور الوسطى كما لو كان يلتقط الغبار من مدينة الله. شعر أنه لو كان هناك أكثر مما يعرفُ فإنه سيكون في الماضي لا في الحاضر الذي تأكَّدَ له إفلاسُه الوجودي التامّ. لقد كان هو الحاضرُ بعينه. وظّف قيّمين يبحثون له عن الفن وعلماءَ يدرّسونه الحضاراتِ العتيقة. شقّ طريقه إلى الوراء من خلال النسيج الفلمنكي. داعب التماثيل الرومانية. تمشّى في الأكروبولس راكلا الحجارةَ المتحركة. استقرت دراساته اليائسة بشكل محتومٍ عند حضارات مصر القديمة التي آمنتْ أن الكونَ لا يتغير وأن الحياةَ

تُستأنَف بعد الموت. افتتنَ بها. اتخذت حياته منعطفا جديدا. موّل الرحلات الآركيولوجية إلى مصر لصالح متحف المتروبوليتان. تابعَ كل جديدٍ يستخرج من الرمل اليابس من نُصُبٍ وتمائمَ وجرارٍ كانوبية تحوي أحشاء. ذهب إلى وادي النيل حيث لا تتأخر الشمس عن الشروق ولا يتوقف النهر عن الفيضانِ عن ضفافه. درس الكتابة الهيروغليفية. ذات مساء ترك فندقه في القاهرة واستقلّ عربةً خاصةً مسافةَ سبعة أميال إلى موقع الهرم الأكبر. تحت ضوء القمر الشفيف الأزرق سمع من دليلٍ من أهل البلد عن حكمةٍ وُهبت لأوزيريس تقول إن هناك قبيلةً مقدسةً من الأبطال، مستعمَرةً من الآلهة يُولدون باستمرار في كل عصر لمساعدة البشرية. أدهشته الفكرة. كلما أطال التفكير فيها اتضحتْ له وأحسّ بها. وعند عودته إلى أمريكا بدأ يفكّر في هنري فورد. لم يساوره شكٌّ في أن فورد رجلٌ محترم. أدرك أنه ريفيٌّ فطنٌ يملك من الثقافة ما تملكه قطعةُ خشب. لكنه رأى في استخدامِ فورد للرجالِ تجسيدا جديدا للفرعونية. ليس هذا فحسب، فقد دقّق في صورِ صانعِ السيارات وآنَس فيه شَبَها استثنائيا بسيتي الأول، والدِ رمسيس العظيم وأفضلِ مومياءٍ محفوظةٍ جرى استخراجها من مقبرة الأقصر في وادي الملوك.

. 20 .

يسكن مورغن في المبنى رقم 219 على جادة ماديسن، في موراي هيل، مبنى مُهيب من الحجر البُني يقع على الركن الشمالي الشرقي من الشارع السادس والثلاثين في مدينة نيويورك. يحاذيه مبنى مكتبةِ مورغن الرخامي الأبيض الذي بناه لاستقبال آلاف الكتب والأعمال الفنية التي جمعها في رحلاته. صمّمه على طراز النهضة الإيطالية تشارلز ماكيم شريكُ ستانفورد وايت. رُصّت قطعُ المبنى الرخامية من دون أسمنت. في اليوم الذي وصل فيه هنري فورد لتناول الغداء تساقط على الشوارع ثلجٌ يقلُّ نصاعةً عن حجارة المكتبة. خفّف الثلجُ من وضوح أصوات المدينة. وقف فردٌ من شرطة المدينة على باب المبنى. في الجهة المقابلة من الشارع، على كل زاوية من زوايا الشارع السادس والثلاثين وماديسن وقفت مجموعاتٌ صغيرة من الرجال، وياقات معاطفهم مرفوعة إلى الأعلى، يحدّقون إلى منزل الرجل العظيم.

طلب مورغن غداءً خفيفا. لم يتحدثا كثيرا وهما يتناولان بمفردهما الطعامَ المكوّنَ من حساءِ سلاحفِ المستنقعاتِ ونبيذ

مونتراشيه ورُبعَ خروفٍ يحوي الأضلاع الأمامية وخمرَ شاتو لاتور وطماطمَ طازجة وبقلَ هندباء وفطيرةَ راوند كثيفة القشدة وقهوة. كانت الخدمة سحرية، إذ يظهر اثنان من خدم منزلِ مورغن ويختفيان في طمسٍ للذّات كما لو أنهما يشيان بانعدام الإرادة البشرية. أكل فورد جيّدا لكنه لم يقترب من النبيذ. فرغ من الأكل قبل مُضيفه. حدّق مليّا في أنف مورغن. وجد كِسرةً على سُفرة الطاولة وقذفها في صحن كوب القهوة. فركت أصابعُه بدافعِ المللِ الصحنَ الذهبي.

في ختام الغداء أشار مورغن إلى فورد أنه يرغب منه زيارةَ المكتبة. خرجا من غرفة الطعام مجتازَيْن ما يشبه ردهةً عامةً معتمةً يجلس فيها ثلاثةُ رجالٍ أو أربعةٌ طمعوا في الحصول على لحظاتٍ من وقت بيربونت مورغن. هؤلاء مُحاموه. كانوا في انتظاره ليقدّموا له استشاراتهم بخصوص ظهوره القادم أمام لجنة البيت الأبيض للصّرافة والموارد المالية ثم البقاء في واشنطن بغرضِ مناقشةِ إمكانية إيجاد صندوقٍ ماليٍّ في الولايات المتحدة الأمريكية. أومأ مورغن أن ابتعدوا حال نهوضهم لمَرْآه. كان من بين الحضور أيضا وسيطٌ فنيٌّ في معطفٍ نهاريٍّ سافر من روما على وجه السرعة لرؤيته. نهض الوسيطُ ليكتفي بالانحناء.

لم يفُتْ شيءٌ من هذا المشهد على فورد. كان رجلا بسيطَ الذوق إلّا أنه لم ينشغلْ على الإطلاق عمّا اعتبرَه إمبراطوريةً لا تختلف عن إمبراطوريته إلّا في الأسلوب. أخذه مورغن إلى الغرفة الغربية العظيمة للمكتبة. هناك اقتعد كل منهما كرسيّا على جانبَيْ مدفأة طولها بطولِ رجل. قال مورغن: إنه يوم مناسب لإيقاد النار. وافقه فورد. قُدّم السيغار. رفض فورد. لاحظ أن السقفَ مذهّب والجدرانَ

مغطاة بقماش حريري أحمر منسوج. عُلّقت على الجدران لوحاتٌ بارعة خلفَ زجاجٍ في إطارات غليظة، صورٌ لأناسٍ مصفرّي الوجوه يفيضون عاطفةً بهالاتٍ ذهبية. خمّن أنه لم يكلّف أحدٌ برسمهم في تلك الأيام ما لم يكن قدّيسا. كانت هناك السيدة العذراء وطفلها. مرّر أصابعه على ذراع كرسيه المكسوّة بنسيج البلش الأحمر.

تركه مورغن يستوعب كل شيء. نفث دخانَ سيغاره. أخيرا نطق. قال بصوت أجش: فورد، ليس لدي أدنى رغبة في امتلاك تجارتك أو مشاركتك أرباحها. كما لا يربطني رابطٌ بأيّ من منافسيك. هز فورد رأسه. قال وهو يرمق مورغن بنظرة ماكرة: عليّ أن أعترف أن هذا خبرٌ سعيد. واصل مُضيفه: مع ذلك أنا مُعجبٌ بما فعلتَ، ومع أن ضميري يخزني بشأن وجودِ سيارةٍ في يد كل منغوليّ تيسرتْ له بضعُ مئةِ دولار، أسلّم بأن المستقبل لك. أنت ما تزال شابا -خمسون سنة أو حولها؟- ولعلك تفهم الحاجةَ إلى إدارةِ حشودِ الرجال بشكل منفرد أكثر مما أفهمها. لقد قضيتُ حياتي في التوفيق ما بين مصادر رأس المال ومزيج الصناعات المتناغم، لكني لم أفكر قط في احتمالية أن يكون تشغيلُ الجهدِ في حد ذاته عمليةً موحّدةً ومتناغمة بمعزل عن التجارة الذي يستخدم فيها ذلك الجهد. دعني أطرح عليك سؤالا. هل خطر لك أن خطّ التجميع الذي جئتَ به ليس مجردَ ضربةٍ للعبقرية الصناعية ولكنها كشفٌ عن الحقيقة العضوية؟ في نهاية الأمر، قابليةُ الأجزاءِ للاستبدال قانونٌ في الطبيعة. يشارك الأفراد في جنسِهم البشري وفي نوعِهم. الثدييات جميعُها تتوالد بالطريقة نفسها وتشترك في أساليب التغذية الذاتية نفسها، بأجهزة هضمية وتنفسية متشابهة، وتتمتع بالحواس نفسها. بالطبع لا أقصد القولَ إنّ كل

الثديات لديها أجزاء قابلة للاستبدال مثل سياراتك. لكن التصميم المشترك هو ما يتيح لخبراءِ التصنيف أن يصنّفوا الثدييات على أنها كذلك. وفي داخل العرق -الإنسان على سبيل المثال- تعمل قوانينُ الطبيعة بحيث تنطلق فروقنا الفردية من أساس تشابهنا. إذن يمكن تشبيه التميّز بهرمٍ، إذ لا يمكن إنجازه إلا من خلال وضع أعلى حجرٍ فيه.

أطال فورد التفكير في هذا. تمتم: ما عدا اليهود. ظنّ مورغن أنه لم يسمع جيدا. قال: معذرةً؟ قال فورد: اليهود. إنهم لا يشبهون أيّ أحدٍ أعرفه. في حالتهم نظريّتُك لا تصلح. ابتسم.

بقي مورغن صامتا بضع دقائق. دخن سيغاره. فرقعت النار. برقشت هبّاتٌ من الثلج نفختها الريحُ برقّةٍ نوافذَ المكتبةِ. استأنف مورغن الحديث. قال: لقد وكّلتُ باحثين وعلماء كي يساعدوني بين الفينة والأخرى في استقصاءاتي الفلسفية على أمل التوصّل إلى استنتاجاتٍ بشأن هذه الحياة لا يمكن أن تتوصل إليها الحشود. أقترح أن أشاركك ثمرةَ دراستي. لا أظنّ أنك متغطرسٌ وتؤمن بأن إنجازاتك ليست إلا نتيجة جهدك الخاص. إنْ كنتَ تعزو نجاحك إلى هذا السبب فإني محذّرك يا سيدي من الثمن الباهظ الذي ستدفعه. ستجد نفسك مهجورا على حافّة العالم وترى كما لم يرَ شخصٌ قبلَك فراغَ السماء. هل تؤمن بالرّب؟ قال فورد: هذا ما ليس من شغلك. قال مورغن: حسنا، لا أتوقع من رجلٍ مثلك أن يعتنق فكرةً كهذه. قد تحتاج إليّ أكثر مما تظن. هَبْ أنّ في وسعي أن أبرهن لك أن ثمة أنساقا كونيّة للنظام والتكرار تُعطي نشاطَ هذا الكوكب معناه. افترضْ أنّ في وسعي أن أبيّن لك كيف أنك وسيلةٌ في عصرنا الحاضر

لاتجاهات الهويّة البشرية تؤكدُ الحكمةَ القديمةَ في العالم.

بغتةً وقف مورغن وغادر الغرفة. أدار فورد كرسيّه ولحقه بالنظر. في لحظةٍ كان الرجل العجوز واقفا على الباب ويومئ بحماس. تبعه فورد وهو يجتاز قاعةَ المكتبة الرئيسية إلى الغرفة الشرقية المغطاة جدرانُها العالية برفوف الكتب. كان هناك طابقان علويّان بمماشيَ من الزجاج المثلج ودرابزينات من النحاس المصقول، بحيث يسهلُ إخراجُ أيّ كتابٍ من مكانه مهما كان ارتفاعه. مشى مورغن إلى الجدار الأقصى، ضغط كعبَ كتابٍ معيّن فانفرجَ قِسمٌ من الرفوف عن ممرٍّ يستطيع المرءُ أن يعبر من خلاله. قال لفورد: تفضّل، وإذ تبعه إلى حجرةٍ ضغط زرّا أغلق البابَ من ورائهما.

كانت حجرةً عاديّةَ المقاس مجهزةً تجهيزا متواضعا، بطاولةٍ مستديرة لامعة وكرسيّين بأعمدة ظهر خشبية ومنضدةٍ على سطحها زجاجٌ يستخدم لعرض المخطوطات. أدار مورغن مصباحَ طاولةٍ له غطاءٌ حديديٌّ أخضر. قال: لم يدخل معي هذه الغرفة مِن قبلُ أحدٌ قط. أشعل مصباحا أرضيا ضوؤه مسلّطٌ على منضدة العرض. قال: تعال إلى هنا يا سيدي. نظر فورد من خلال الزجاج فرأى مخطوطةً قديمةً يغطيها الخطّ اللاتيني. قال مورغن: هذه ورقة من أحدِ أقدمِ نصوصِ الصليب الوردي، وعنوانه «الزّواج الكيميائي لكريستيان روزنكروتز». هل تعرف مَن هم الروزنكروتزيون الأصليون، سيّد فورد؟ إنهم خيميائيون مسيحيون من بلاطينية نهر الراين، وناخبهم فريديك الخامس. نحن نتحدث عن مطلع القرن السابع عشر. نشر خيرةُ الرجالِ فكرةَ سحرٍ مستمرٍ ونافعٍ لا يُتاح إلا لرجالٍ معيّنين في كل عصر لنفعِ البشرية جمعاء. المصطلح اللاتيني لهذا المفهوم هو

prisca theologia أي الحكمة السرّية. الغريب أن هذا الاعتقادَ بوجودِ حكمةٍ سريةٍ لا يقتصر على الروزنكروتزيين وحدهم. نعرف بوجودِ جماعةٍ في لندن تُدعى «الكليّة الخفيّة» في منتصف القرن نفسه. شاع عن أعضائها أنهم يحملون السحرَ النافعَ الذي تحدثت عنه لتوّي. بالطبع أنت لا تعرف شيئا عن كتابات جيوردانو برونو، هنا عيّنةٌ لصفحةٍ منها بين أيدينا كتبها بخط يده. تقصى باحثٍيَّ كما يفعل أمهرُ المحقّقين عن وجود هذه الفكرة وعن وجود منظماتٍ سريةٍ عدة تقوم على خدمتها في أغلب ثقافات عصر النهضة ومجتمعات القرون الوسطى واليونان القديمة. أرجو أن تكون متابعا لما أقول باهتمام. أقدَمُ ذِكْرٍ لخاصّةٍ من الناس يولدون في كل عصرٍ لتسهيل معاناة البشرية بما يحملون من prisca theologia يأتينا عن طريقِ الإغريقِ الذين ترجموا كتابات الكاهن المصري هرمس الهرامسة. لقد كان هرمسُ نفسه الذي خلع الاسمَ التاريخيَّ على هذه المعرفة الغامضة. سمّاها الهرمتيكا أو المتون الهرمسية. ضرب مورغن بسبّابته الضخمة الزجاجَ الذي يعلو آخر قطعةٍ معروضةٍ على المنضدة، وهي شظيةٌ من حجرٍ ورديٍّ تُرى عليها خدوشٌ هندسيةٌ باهتة. تلك القطعة يا سيدي يرجَّح أنها عينةٌ من كتابات هرمس الأصلية بالخط المسماري. والآن دعني أسألك سؤالا. لماذا في ظنّك تختفي في العصر الحديث فكرةٌ حظيت بالقبول في كل العصور والحضارات البشرية؟ لأنه في عصر العِلمِ فقط اختفى هؤلاءُ الرجالُ وحِكمتُهم عن الأنظار. سوف أخبرك ما السبب: إن صعودَ العِلمِ الميكانيكي، نيوتن وديكارت، مؤامرةٌ عظمى، مؤامرةٌ شيطانيةٌ عظمى لتدمير إدراكنا للواقع ووعينا للموهوبين الفائقين بين ظهرانينا. لكنهم معنا اليوم على أية حالٍ.

لقد كانوا معنا في كل عصر. إنهم يعودون، ألا ترى؟ إنهم يعودون!

كان وجهُ مورغن متورّدا من الانفعال عند هذه النقطة. وجّه انتباهَ فورد إلى أقصى ركنٍ في الحجرة حيث تقبع في العتمة قطعةُ أثاثٍ أخرى، شيءٌ مستطيلٌ مغطّى بقماشٍ مخمليٍّ ذهبي. أمسك مورغن بطرف القماش في قبضة يده، وبانتصارٍ تملّكيٍّ عنيفٍ على ضيفه سحب القماشَ بعيدا وألقاه أرضا. تفحّص فورد قطعةَ الأثاث. صندوقا زجاجيا مُحكم الإغلاق بالرصاص. كان في الصندوق تابوتٌ حجري. سمع أنفاسَ العجوزِ الخشنةَ اللاهثة. الصوت الوحيد في الحجرة. كان التابوت الحجري من المرمر. يعلوه تمثالٌ خشبيٌّ للشخص الذي يرقد فيه. طُلي التمثال بورق الذهب والأحمر والأزرق. قال مورغن بصوت أجش: هذا يا سيدي تابوتُ فرعونٍ عظيم. تعتقد الحكومةُ المصريةُ وكاملُ المجتمع الآركيولوجي أنه موجود في القاهرة. لو علم أحدٌ بحيازتي إياه لثار لغطٌ دولي. إنه لا يقدر بثمن حقّا. أخذ فريقي الخاص من علماء الآثار المصرية كلَّ احتياطاته العلمية لحفظه من التلفِ الذي يسببه الهواء. تحت القناع الذي تراه مومياءُ الفرعون العظيم سيتي الأول، من الأُسرة التاسعة عشر، استُخرج من معبد الكرنك الذي ظلّ راقدا فيه ما يربو على ثلاثة آلاف سنة. سأريك إياه في الوقت المناسب. دعني الآن أكتفي بالقول إني أضمن أنّ سيماءَ الملك العظيم ستثير اهتمامك كثيرا.

كان على مورغن أن يستعيد هدوءه. سحب واحدا من الكراسي وجلس أمام الطاولة. تدريجيا عاد تنفسُه إلى وضعه الطبيعي. جلس فورد مقابلا له، ولأنه تفهّم صعوباتِ العجوز الجسدية بقي صامتا يحدّق في حذائه البنيّ. اشترى الحذاء من كتالوج إل إل بين. كان

حذاءً جيدا ومريحا. قال بيربونت مورغن: سيد فورد، أريدك أن تكون ضيفي في رحلةٍ إلى مصر. ذاك هو المكان الأهمّ، سيد. من هناك بدأ كل شيء. كلّفتُ بتصميمِ سفينة بخارية خصّيصا للإبحار في النيل. عندما تكون جاهزةً أريدك أن ترافقني. هل تقدر؟ لن يتطلب الأمرُ أيّ مساهمة من طرفك. يجب أن نذهب إلى الأقصر والكرنك. يجب أن نذهب إلى الهرم الأكبر في الجيزة. يوجد القليلُ منا يا سيدي. أخذتني أموالي إلى أعتابِ سراديبَ معيّنة، فكّ رموزِ الكتاباتِ الهيروغليفيةِ المقدسة. لِمَ لا نقتنع بحقيقةِ مَن نكون والقوّة الخالدة النافعة التي نجسّدها؟

جلس فورد منحنيا بعض الشيء. استقرت يداه الطويلتان على ذراعي كرسيه الخشبيّتين كما لو أن معصميه مكسوران. فكّر في كل ما قيل. نظر إلى التابوت الحجري. عندما حَسِبَ أنهم فهم، هزّ رأسه بجلالٍ وردّ كالتالي: إن كنتُ قد فهمتك جيدا، يا سيد مورغن، فأنت تتحدث عن التقمّص. حسنا، دعني أخبرك عنه. في شبابي واجهتُ أزمةً فظيعةً في حياتي العقلية عندما وجدتُ أنه لا داعيَ لأن أعرفَ ما كنت أعرف. صحيح أنه كان لدي عزمٌ، لكني كنت صبيّا عاديا من الريف عانى من تعليم ماكغافي الإعدادي مثلما عانى الجميع. غيرَ أنّي فطنتُ للطريقة التي تسير بها الأمور. كان في وسعي أن أنظر إلى شيء وأخبرك بطريقةِ عملِه وقد أُريك كيف يمكن تطوير أدائه. لكني لم أكن مثقفا، كما ترى، ولم يكن لديّ حِلمٌ على الكلمات المنمّقة.

استمع مورغن. أحسّ أنه يجب ألّا يتحرك.

واصل فورد: حسنا، صادف أن التقطتُ كتيّبا يُدعى «الحكمة الخالدة لدرويشٍ من الشرق» طبعتْه شركةُ فرانكلين للإبداع في

فيلادلفيا. في ذلك الكتيّب، الذي كلفني خمسة وعشرين سنتا فحسب، وجدتُ كل شيء أحتاجه لأُريح عقلي. كان التقمصُ المعتقدَ الوحيد الذي آمنتُ به يا سيد مورغن. بهذه الطريقة أفسّر عبقريتي- يعيش بعضُنا مراتٍ أكثرَ من البعض الآخر. إذن كما ترى، ما أنفقتَه أنت على الباحثين وطُفْتَ العالم كي تعثر عليه، أعرفه بالفعل. وسوف أخبرك بشيء، سأُعيرك ذلك الكتيّب امتنانا لك على الوجبة. قال ملوّحا ذراعيه: لا يجدر بك أن تُشغل نفسَك بكل هذه الأشياء اللاتينية، لا ينبغي أن تلتقط سُطولَ قمامةِ أوروبا وتشيّد سفنا بخارية لتبحر في النيل فقط من أجل أن تكتشف شيئا يمكن أن يصل إلى بريدك مقابلَ قرشين!

تبادل الرجلان التحديق. أرخى مورغن ظهرَه على الكرسي. انسحب الدم من وجهه وفقدت عيناه بريقهما القاسي. عندما تحدث من جديدٍ كان يتحدث بصوتٍ واهنٍ لرجلٍ عجوز. قال: سيد فورد، إن استطاعت أفكاري أن تتجاوزَ ارتباطها بك فإنها ستكون قد نجحت في امتحانها الأعسر.

مع ذلك فقد حدث التطور الحاسم في علاقتهما. بعد حوالي سنةٍ من هذا الاجتماع الاستثنائي انطلق مورغن في رحلته إلى مصر. لم يرافقه فورد إلا أنه أقرّ باحتماليةِ وجودِ نَسَبٍ مدهش. ومعا تمكّنا من تأسيس الهرم، النادي الأكثر سرّيةً وحصريةً في أمريكا، وكانا عضويه الوحيدين. قدّم النادي مِنَحًا لأبحاثٍ معينةٍ مستمرةٍ حتى اليوم.

21

بطبيعة الحال في هذا الوقت من تاريخنا انطبعت صورُ مصر القديمة في أذهان الجميع. مَرَدُّ ذلك إلى الاكتشافات القادمة من الصحراء التي قام بها آركيولوجيون بريطانيون وأمريكان. بعد لاعبي كرة القدم في سراويلهم القماشية المبطنة التي تقف عند الرّكب وخوذاتهم الجلدية، صار الآركيولوجيون الشخصياتِ الفاتنةِ للجامعات. وُصف التحنيطُ بإسهابٍ في ملاحق الصحفِ أيام الآحاد وحلّل مراسلو السباقاتِ الشؤونَ الجنائزية لورق البرديّ. اختير أسلوبُ الفنّ المصري لتصميم الديكور الداخلي للمنازل. انتهت موضةُ تصميم لويس الرابع عشر وحلّت مكانها كراسي العُروشِ المصممةُ بأذرعٍ على هيئةِ أفاعٍ منقوشة. في نيو روتشيل لم تكن الأم محصَّنة من الموضة، فإذ أرهقها السأم من الأزهار المطبوعة على ورق حائط غرفة الطعام، استبدلتها بتصميمٍ أنيقٍ لرجال ونساء مصريين بعيونٍ برقوقية الشكل وأغطيةِ رؤوسٍ وتنانيرَ قصيرة. ساروا في موكبٍ على امتداد الجدران بألوانهم الحمراء والزرقاء والسمراء، في تلك الهيئة المستقيمة المميّزة للمصريين، يحملون على راحاتِ أكفّهم نسورا وحزما

من القمح وزنابق ماءٍ وأعوادا. ترافقهم أسودٌ وخنافسُ وبومٌ وثيرانٌ وأقدامٌ مبتورة. فقد الأب شهيتَه بسبب حساسيته من كل تغيير. بدا له من غير اللائق أن يدفِن الشخصُ نفسَه من أجل أن يأكل.

مع ذلك، أحب الصبيُّ التصميمَ الذي ألهمه لأن يدرس الأبجدية الهيروغليفية. هجر مجلة «وايلد وست ويكلي» لصالح مجلاتٍ تنشر حكاياتٍ عن القبور المُعتدى على حُرمتها وتحقُّقِ لعنةِ المومياوات. أثارت اهتمامه المرأةُ السوداءُ في العلية فأدخلَها في ألعابه السرية الصامتة باعتبارها أميرةً نوبيّةً أُسِرت ثم استُعبدت. كانت تجلس غافلةً في غرفتها قريبا من النافذة بينما يمرّ من أمام بابها في قناعِ طائرِ أبي مِنْجَلٍ صنعه بنفسه من الورق المعجّن وجعل له منقارا.

في مساءِ يوم أحدٍ صعدت سيارةُ فورد موديل تي الربوةَ على مهلٍ وتجاوزت المنزل. الصبي الذي صادف أن رآها من الشرفةِ نزلَ الدَّرج ووقف على الرصيف. كان السائق يُنقّل بصره إلى اليمين والشمال وكأنما يَنشُدُ عنوانا محدّدا. انعطف بالسيارة عند الزاوية وعاد. مرّ بالسيارة أمام الصبي وأوقفها ثم أومأ بيدٍ مقفّزة. كان زنجيّا. سيارته تلمع ومعدنها يبرُق. لها زجاجٌ أمامي وسقفٌ جلدي مخصّص. قال: أبحث عن امرأةٍ شابةٍ سمراءَ اسمها سارة. قيل إنها تسكن في واحدٍ من هذه المنازل.

عرف الصبي أنه يقصد المرأة التي في العلية. إنها هنا. أطفأ المحرك وفعّل الفراملَ ثم قفز خارجا من السيارة. صعد الدرجاتِ الحجريةَ تحت شجرتي القيقب النرويجي واستدار حول البيت إلى الباب الخلفي.

عندما جاءت الأم إلى الباب حيّاها الرجل الزنجي بتأدّب ولكنْ

كان في الطريقة التي سألها إن كان يمكنه بلطف أن يحادث سارة شيءٌ حازمٌ ومغرورٌ بشكل مريبٍ. لم تستطع الأم أن تحزُرَ سنّه. كان ممتلئ الجسم بوجهٍ بنيٍّ صقيل وبشرةٍ مميزة ووجنتين بارزتين وعينين واسعتين داكنتين تكادان من توتّرهما أن تتصالبا. شاربه محفوف بعناية. يعكس لباسُه تصنُّعَ الغِنى الذي يميل إليه السُّود. يرتدي معطفا طويلا أسود مطرزا وقميصا مقلّما وقطعة قماش رصاصية تغطي الكاحل ومشط القدم وحذاء أسود مدببا. أمسك في يده قبعة رمادية ونظارات واقية للقيادة. أمرتْه أن ينتظر وأغلقت الباب. صعدتْ إلى الطابق الثالث. لم تجد سارة جالسة أمام النافذة كعادتها ولكن واقفة بجمودٍ مواجهةً الباب وعاقدة يديها أمامها. قالت الأم: سارة، لديك زائر. لم تقل الفتاة شيئا. هل ستأتين إلى المطبخ؟ هزّت الفتاة رأسها. لا تريدين أن تقابليه؟ قالت الفتاة أخيرا بهدوء وهي تنظر إلى الأرض: لا يا سيدتي. اطلبي منه أن يغادر، أرجوك. كان هذا أكثرَ ممّا قالتْه طوال الشهور التي قضتْها في المنزل. نكصت الأمُّ إلى الأسفل فلم تجد الرجل لدى الباب الخلفي ولكن في المطبخ حيث ينام طفلُ سارة في عربته، في دفءِ أدنى الزوايا إلى الموقد. كانت عربةً من الخوص محمولةً على أربع عجلات من الأسلاك ذات إطارٍ خشبيٍّ وكان لها تنجيدٌ مطويٌّ من الستان الأزرق. كان ينام فيها ابنُها، ومن قبله أخوها الأصغر. ركع الرجل الأسود إلى جوار العربة يحدق في الطفل. غضبت الأم فجأة بسبب تجرؤه على الدخول، من دون أن تفكر بوضوح. قالت: سارةُ لا تستطيع أن تراك، وأمسكت بالباب مفتوحا. ألقى الرجل الأسمر نظرةً أخرى على الطفل، ثم قام وشكرها فغادر. صفقت الباب بأقوى مما ينبغي. استيقظ الطفلُ وبدأ يبكي. التقطتْه

لتهدّئه منذهلةً من ردّة فعلِها المبالَغ فيها تجاه الزائر.

هكذا كان قدوم الرجل الأسمر بالسيارة إلى جادة برودڤيو. اسمه كولهاوس ووكر جونيور. بدءً من ذلك الأحد صار يظهر كل أسبوع، في كل مرة يطرق الباب الخلفي، وفي كل مرة ينصرف من دون أن يتذمّر من رفضِ سارة مقابلتَه. اعتبر الأبُ الزياراتِ إزعاجا وأراد أن يحول دون استمرارها. قال: سأبلغ الشرطة. وضعت الأم يدها على ذراعه. ذات يومٍ ترك الرجل الأسمر باقةً من أزهار الأقحوان الأصفر التي لا بدّ أنها كلّفته في هذا الموسم مبلغا كبيرا. قبل أن تصعد الأم بالأزهار إلى سارة وقفت أمام نافذة الردهة. في الشارع كان الرجل الأسود ينفض الغبار عن سيارته وينظف عجلة القيادة والمصابيح الأمامية والزجاج الأمامي. رفع بصرَه إلى نافذة الطابق الثالث ثم غادر. تذكّرت حينها الأمُّ التعبيراتِ التي بدث على وجوه تلاميذ اللاهوت الذين كانوا يتودّدون إليها حينَ أنْ كانت فتاة في السابعة عشر. قالت للأب: أعتقد أن ما نشهده في الواقع حالةُ تودُّدٍ من النوع المسيحي الأكثر تعنّتا. أجاب الأب: صحيح، إن كنتِ تسمّين ما قد نتج عنه طفلٌ تودّدا. قالت الأم: أظن أن هذا تعليقٌ تعوزه الكياسة. كان هناك أذًى والآن هناك توبة. إنه شأنٌ في غاية النبل ويؤسفني أنك تعجز عن رؤيته.

لم تذكر الفتاةُ شيئا عن زائرها ولذا لم يكن لديهما أدنى فكرة عن أين التقيا وكيف. على حدّ علمهما ليس لها عائلةٌ ولا أصدقاءُ من مجتمع السُّود في وسط المدينة. في ذلك القسم من المدينة مجتمع من الزنوج مستقر ولكن أيضا على أطرافه جزءٌ منهم عابر. يبدو أنها كانت عابرةً وجاءت بنفسها من نيويورك لتعمل خادمة.

أبهجت الحادثةُ الأم. لأول مرةٍ منذ اليوم الفظيع الذي عثرت فيه على الطفل الأسمر في حوض الأزهار ترى في مستقبل المرأة الشابة ما يدعو إلى الأمل. بدأت تندم على عِناد سارة. فكرت في المسافة التي يقطعها كولهاوس ووكر جونيور من هارلم حيث يعيشُ والمسافة التي يقطعها عائدا، وقررت أن تُكرم وفادتَه في الزيارة القادمة. ستقدم له الشاي في الردهة. شكّك الأب في مناسبة هذا التصرف. قالت الأم إنه متحدثٌ لبقٌ ويتصرف كما يتصرف سيدٌ محترم. لا أرى أيّ مشكلة في هذا. عندما كان السيد روزفلت في البيت الأبيض استضاف بوكر تي واشنطن. بالتأكيد يمكننا أن نقدم الشايَ لكولهاوس ووكر جونيور.

وهكذا حدث أن تناول الزنجيُّ الشايَ في يوم الأحد القادم. لاحظ الأب أن الضيف لم يجد حَرَجًا في البقاء في الردهة بكوبٍ وصحنٍ في يده. بالعكس، فقد تصرف كما لو كان ذاك أكثرَ الأشياءِ في العالم اعتيادا. لم يروّعه محيطُه ولم يتذّلل في احترامه. كان مهذّبا ومستقيما. أخبرهم عن نفسه. يعمل عازفَ بيانو محترفا ويستقر في نيويورك بشكل دائم تقريبا منذ أن ضمن وظيفةً لدى جيم يوروب الذي يدير «كليف كلوب أوركسترا» وهي فرقةٌ مشهورةٌ تقيم حفلاتٍ بانتظام في كازينو مانهاتن على تقاطع شارع 115 بالجادة الثامنة. قال: من المهم للموسيقيّ أن يجد مكانا دائما، فهي وظيفة تتطلب الاستقرار. عِفْتُ السفر. انتهيت من الترحال على الطرق. تكلّم بحماسٍ لدرجة أن الأب أدرك أنها رسالةٌ موجهةٌ للمرأة في الأعلى. وهذا ما أزعجه. سأل بشكل مفاجئ: على أيّ آلةٍ تعزف؟ لِمَ لا تعزف لنا شيئا؟

وضع الرجل الأسود الشاي على الصحن. نهض ومسح بالمنديل

شفتيه فوضع المنديل إلى جوار الكوب ثم ذهب إلى البيانو. جلس على كرسي البيانو ثم نهض مباشرة وبرمه حتى اقتنع بارتفاعه. جلس من جديد وضرب وترا ثم التفت إليهما قائلا: هذه البيانو في حاجة شديدة إلى دوزنة. احمرّ وجه الأب. قالت الأم: أوه صحيح، فنحن جاهلان في هذا الجانب. عاد الموسيقيّ إلى لوحة المفاتيح. قال: «وول ستريت راغ». من تأليف العظيم سكات جوبلن. وشرع يعزف. وسواءً كانت آلة البيانو، وهي من طراز آيوليان، سيئة الدوزنة أم لا، فإنها لم تصدر أصواتا كتلك. تدلّتْ أوتارٌ صغيرةٌ شفافةٌ في الهواء مثل أزهار. كانت الأنغامُ مثل باقات ورد. بدا أن ما من احتمالاتٍ أخرى للحياة غير تلك التي ترسمها الموسيقى. عندما انتهت المعزوفة أدار كولهاوس ووكر الكرسي فوجد في جمهوره كامل العائلة، الأم والأب والصبيّ والجد والخال الأصغر الذي هبط من غرفته في قميص وحمالتَي بنطلون ليرى مَن يعزف. كان الوحيدَ الذي يعرف موسيقى الراغتايم مِن بين الجميع. سمعها في حياته الليلية في نيويورك. لم يتوقع أبدا أن يسمعها في منزل أخته.

عاد كولهاوس ووكر جونيور من جديد إلى البيانو وقال: «ورقة شجرة القيقب». من تأليف العظيم سكات جوبلن. حلّقت أشهرُ مقطوعة في موسيقى الراغ في الهواء. جلس العازف متيبّسا أمام لوحة المفاتيح، تُنتج يداه السمراوان الطويلتان بأظافرهما الوردية، من دون جهدٍ بيِّن، عناقيدَ من الأنغامِ المنبورةِ والأوكتافات العنيفة. كانت معزوفة قوية، موسيقًى حيويّة توقظ الأحاسيس ولا تتوقف لحظة. تصوّرها الصبي ضوءً يلامس أماكنَ عديدة من فضاء الغرفة، يتجمّع في أنساق معقّدة حتى تتوهج الغرفة بأكملها بوجودها. ملأت

الموسيقى السلالم حتّى الطابق الثالث حيث تجلس سارةُ الصامتة التي لا تصفحُ عاقدةً يديها ومستمعة بينما البابُ مفتوح.

اختُتمت المعزوفة. صفّق الجميع. قدمت الأمُّ السيدَّ ووكر إلى الجدّ والخال الأصغر الذي صافح الرجل الأسود وقال: يسرّني لقاؤك. كان كولهاوس ووكر رصينا. وقف الجميع صامتين. تنحنح الأب. كان الأب عديمَ المعرفة بالموسيقى. يتّجه ذوقه إلى كاري جيكوبس بوند. يعتقد أن موسيقى الزنوج لا بد أن يكون فيها ضحكٌ ورقصٌ متبختر. قال: هل تعرف أيّا من أغاني الزنوج؟ لم يقصد أن يكون وقحا، فقد كان ذاك الاسم الذي يطلق عليها. لكن عازف البيانو أجاب بهزّةِ رأسٍ متوترة. قال: تلك الأغاني أُلّفت لعروض الحفلات الغنائية. يغنّيها رجالٌ بِيضٌ يصبغون وجوههم بالأسود. كان هناك صمتٌ آخر. نظر الرجل الأسود إلى السقف. قال: حسنا، يبدو أن الآنسة سارة لن تستطيع مقابلتي. استدار فجأة وقطعَ الردهة متجها إلى المطبخ. تبعتْه العائلة. كان قد ترك معطفه على كرسيٍّ هناك. ارتداه وجثا أمام الطفل النائم في عربته متجاهلا الجميع. بعد لحظاتٍ نهض وقال: طاب يومكم، ثم خرج من الباب.

أثارت الزيارةُ إعجابَ الجميع ما عدا سارة التي لم تُبْدِ أي ليونةٍ في رفضها كلّ ما له علاقة بالرجل. عاد في الأسبوع التالي وفي الأسبوع الذي يليه. أصبح يزور العائلة بانتظام وفي كل مرةٍ يزوّدهم بأخباره وبماذا فعل في السّتة الأيام الماضية، من دون أن يتوقع شيئا غير اهتمامهم الكامل والمُغرِق. ضجر الأب من وجود الرجل. قال للأم: لن تقابله. هل يتعيّن عليّ أن أستمر في استضافة كولهاوس ووكر كلّ أحدٍ إلى نهاية عمري؟ لكن الأم أحسّت ببوادرَ تقدّم. التزمت سارةُ

بمهامّ الخادمة السابقة وأصبحت الآن تنظف الغرفَ بنشاط وكفاءة من شدتهما ضحكت الأم مع وهمٍ مؤقتٍ بأن سارةَ إنما تنظف منزلها هي. إضافة إلى ذلك بدأت تطلب رؤيةَ طفلها في غيرِ أوقات الرضاعة، في البدء تحمّمه يوميا، ثم لاحقا تحمله ليلا إلى غرفتها. مع ذلك لا تزال مصرّة على رفض رؤية زائرها. أوفى كولهاوس ووكر بمواعيده في الشتاء. حين تتعطل الطرق بسبب الثلج مرارا، يستقلّ القطار ثم يأخذ عربة الترام إلى نهاية الربوة على جادّة نورث. يرتدي مع معطفه الأسود الطويل قبعةً من فراء الغنم روسيّة الطراز. اشترى ملابس للطفل. اشترى فرشاةَ شعر بمقبضٍ فضّي لسارة. أُعجب الأبُ بمثابرته. تعجّب من القدر الذي تتحمّل إليه أجورُ عازفٍ موسيقيٍّ مثل هذه الهدايا.

خَطَرَ للأب ذات يوم أن كولهاوس ووكر جونيور لم يكن يعرف أنه زنجي. كلما أطال التفكير في هذه الفكرة بدت له حقيقيّة. لا يُشبه ووكر في سلوكه وحديثه الرجالَ السُّود. يبدو قادرا على تبديل أشكالِ التأدب والتذلل التي يمارسها عِرقُه بحيث تغدو تعكس منزلته هو لا منزلةَ المتلقي. عندما يصل إلى الباب الخلفي يطرقه طرقةً جريئة وعندما يدخل يحيّي الجميع بهيبةٍ ويحسّسهم بطريقةٍ ما بأنهم عائلةُ سارَة، وأن كياستَه معهم تقيس ببساطةٍ مدى احترامِه وتقديرِه لها. تنبّه الأبُ إلى بعض المخاطر في الرجل. قال للأم: ربما يجدرُ بنا أن نثنيَه عن تودّده. هناك شيء طائش فيه. حتى ماثيو هنسن يعرف قَدْرَه.

على أية حال، لم يعد تغييرُ مسارِ الأحداثِ ممكنا في هذا الوقت. في نهاية الشتاء قالت سارةُ إنها ستقابل كولهاوس ووكر في

الردهة. لمدة أيام كان هناك استنفارٌ للتحضير. منحتْها الأمُّ واحدا من فساتينها وساعدتها في لبسه. نزلت إلى الأسفل جميلةً وخَجْلَى. كان شعرها ممشطا ومدهونا، وجلست على الأريكة خافضةً عينيها بينما يتحدث كولهاوس ووكر جونيور برسميّة ويعزف لها على البيانو. لم يتضح فارقُ السنّ الكبير بينهما إلا عندما شوهدا جالسين معا. أصرّت الأم على أن يستأذن أفرادُ العائلة للانصراف كيما تُتاح للتودد خصوصيته. لم تعجّل هذه الخطوةُ شيئا. عقب الزيارة بدتْ سارة متضايقة وغاضبة. كانت بطيئة في الغفران وبطريقة ما بدا أن تعنّتَها الجوابُ المناسبُ لمثابرتِه. كانت سارة قد حاولت قتلَ طفلها الرضيع. لم تكن الحياةُ شيئا يتعامل معه أيٌّ من هذين الشخصين باستهتار. عاشا في خضوعٍ وحشيٍّ لآمالهما ومشاعرهما. عانيا كثيرا. ربما فهم الخالُ الأصغرُ هذا الشعور فهما أوضحَ من أي أحد في العائلة. حادث كولهاوس ووكر مرةً واحدةً فقط لكنه أعجب به أشدّ الإعجاب. رأى في الطريقة التي يمتثلُ بها الرجلُ الأسودُ لنواياه رجولةً أكثر من تلك التي يجدها في نفسه. أطال التفكير في هذا. فهم الخالُ الأصغرُ الحبَّ في بعض القلوب على أنه رقّةٌ فيزيائية في ذلك العضو من الجسد، عيبٌ في الوجود الفيسيولوجي مساوٍ للكساح في العظام أو ميلِ الرئتين للانسداد. كان مبتلى بهذا العيب وكذلك كانت سارةُ على رغم أنها سمراء. ظنّ أنها أميرة إفريقية معزولة. غرابتُها حين تتحرك تُشير إلى أنها جمالٌ في بلاد أخرى. وكلما ترددت في قبولِ عرضِ كولهاوس ووكر للزواج فهم الخال الأصغر أيّ قلبٍ شديدِ الابتلاء تحمله.

لكن في يوم أحد من شهر مارس، والريح تهبّ بخفةٍ وبراعمُ بُنيةٌ صغيرةٌ باديةٌ على أغصان أشجار القيقب، وصل كولهاوس في

سيارته الفورد البرّاقة وترك المحرك مشتغلا. ظهر الجيران في باحات بيوتهم لمشاهدة الرجلِ الأسودِ الغريبِ المتوترِ قويِّ البنية المستقيمِ ذي العينين الواسعتين الداكنتين اللتين تكادان من توترهما أن تتصالبا، وسارة غريبة الجمال المرتدية بلوزةً ورديّةً وتنورةً سوداءَ وسترةً وواحدةً من قبعات الأم عريضة الحواف، وهما يمشيان تحت أشجار القيقب النرويجي ويهبطان الدرج الحجري إلى الشارع. كانت تحمل طفلها. ساعدها في صعود السيارة وركب خلف المقود. لوّحا للعائلة وانطلقا عبر شوارع الضواحي إلى الأراضي الزراعية على الطرف الشمالي من المدينة. أوقفا السيارة على جانب الطريق. راقبا طائر كاردينال ينقر الأرض البُنية الصلدة ثم يفرّ إلى أعلى أغصانِ شجرةٍ وأرقِّها. كان هذا اليومَ الذي تقدم فيه إلى الزواج منها ووافقت. كان ظهور هذين العاشقين الرائعين في حياة العائلة مذهلا، إذ تعرّض تضارُبُ رغباتِهم إلى ما يشبه تأثير المنوِّم.

22

والآن استأنف الخالُ الأصغرُ رحلاتِه من جديد إلى نيويورك. يعمل على طاولة الرسم متجاوزا ساعةَ العَشاء ثم يلحق بقطارٍ مسائي. صادق بعضَ الضبّاط الذين يعملون في الذخيرة في مستودع الأسلحة على تقاطع جادة لكسنغتن بالشارع الرابع والثلاثين. تذمّروا من بندقية سبرنغفيلد. أرَوْهُ أسلحتَهم الصغيرة والقنابل اليدوية. أيقن مباشرةً أن في استطاعته تصميمَ أسلحةٍ أفضل. كان يُنادِم الضباط على الشَّراب. أمسى معروفا عند أبواب المسارح في كثيرٍ من مسارح برودواي. يقف في الأزقة، شأنه شأن الآخرين، لا مُفرطا في هندامه مثل بعض الرجال الأكبر سنا، ولا مُهملا وسامتَه مثل طلاب الجامعات القادمين من برنستن أو يَيل. لكنّ في عينيه حدةَ ترقُّب جذبت إليه عددا لا بأسَ به من النساء. كان دائما شديدَ الجديّة والحزن لدرجة أنهن يقتنعن بأنه يحبّهن. ينظرْنَ إليه على أنه شاعر.

مع ذلك لم يدعم راتبُه هذه الأذواق. كان برودواي حافلا بالأضواء والعروض الترفيهية وكلّ مَن ارتبط بالمسرح وكَلِفَ بإثارته استمتع بحياته إلى أقصى حدّ. عرف أين يجد النساء اللاتي لا يمانعن

في مرافقته إلى السرير مقابل مبلغ متواضع. نافورةُ بيثيسدا في سنترال بارك واحدٌ من تلك الأماكن. كنّ يمشين مَثنى كلما راقَ الجو. بدأ النهار يطول. يتمشين في لحظات الغروب المترفة الباردة حول النافورة، تغطي ظلالهن الدرجات الواسعة، والماء مسودّ وحجارة الأرضية بُنيّة ووردية. كان يسلّيهن بالتعامل معهن بجدية. كان لطيفا معهن ولم يعترضن على غرابته لأنها كانت رقيقة. يأخذ امرأةً إلى غرفته في الفندق ثم يجلس في كرسيٍّ يقلّب في يده فردة حذاء متناسيا إياها تماما. أو لا يقوم بأيّ محاولة لمضاجعتها مكتفيا بتفحّص مناطقها الحميمية. يشرب النبيذ حتى يفقد إدراكه. يتعشى في مطاعم الستيك التي تغطي أرضياتها نشارةُ الخشب. يرتاد نوادي الأقبية في منطقة هلز كتشن حيث يشتري الأوغادُ شرابا للجميع. يتمشى في مانهاتن ليلا، تلتهم عيناه المارّة. يحدّق في نوافذ المطاعم ويجلس في ردهات الفنادق، تنتقي عيناه القلقتان الحركةَ واللونَ من قبل أن يتشكّلا.

عثر على مكتب مجلة «مَذَر أيرث» التي تُصدرها إيما غولدمن. يقع على الشارع الثالث عشر في مبنى من الحجر البُني تقيم الأناركية فيه حاليّا كلما كانت في نيويورك. وقف في الشارع تحت عمودِ الإنارة وحدق إلى النوافذ. استمر على هذا الحال عدة ليال. في الأخير خرج من الباب رجلٌ ونزل الدرجات وعبر الشارع متجها إلى حيث يقف. كان رجلا طويلا شاحبا بشعرٍ طويلٍ وربطةِ عنق رفيعة. قال: الجو بارد في المساء، تعال، ليس لدينا أسرار. قاد الخالَ الأصغرَ عبر الشارع ثم صعدا السلّم.

اتضح أنه فُهِمَ خطأً على أنه جاسوسٌ بسبب يقظته. عومل معاملةً ساخرة. قُدم له الشاي. كانت تقف في الشقة أعدادٌ من

الناس في معاطفهم وقبعاتهم. ثم ظهرت غولدمن على مدخل باب، ولفت انتباهَها وجودُه. قالت: يا إلهي. إنه ليس شرطيا. أخذت تضحك. كانت ترتدي قبعة تثبّتها بدبابيس. ابتهج لأنها تذكّرته. نادته: تعال معنا.

بعد فترة وجد الخال الأصغر نفسه في قاعة كوبر يونيون قريبا من حيّ الباوري. كانت القاعة حارة تفيض بالحشد. هناك أجانبُ كُثر. يرتدي الرجال قبعات ديربي على رغم أنهم في الداخل. كان تجمهرا هائلا كريه الرائحة يمتزج في عَرَقه الثوم والعطر. اجتمع الحشد لدعم الثورة المكسيكية. لوّح الرجال بقبضات أيديهم. وقفوا على المقاعد الطويلة. قام متحدثٌ إثرَ متحدث. بعضهم تحدث بلغاتٍ غير الإنكليزية. لم يُترجِم خطاباتِهم أحد. لقي صعوبةً في السماع. ما يبدو أنه حدثَ أن الكادحين المكسيكيين ثاروا عفويا على دياز الذي رأَسَ المكسيك طوال خمسٍ وثلاثين سنة الماضية. كانوا في حاجةٍ إلى السلاح والذخيرة. نظّموا إضرابات من التلال وأخذوا يهاجمون الجيش الحكومي وقطارات الإمداد بالهراوات والبنادق التي تُحشى بالبارود من فُوهاتها. جعل يفكر فيما يراه ويسمعه. أخيرا نهضت إيما غولدمن لكي تتحدث. من بين كل الخُطباء كانت هي الأفضل. هدأت القاعة لمّا راحت تصفُ تواطؤَ ملّاك الأراضي الأثرياء مع الطاغية الحقير دياز وقهرَ الكادحين والفقرَ والمجاعةَ وأسوأ من ذلك كلّه حضورَ ممثّلي شركات الأعمال الأمريكية في المجلس القومي للحكومة المكسيكية. كان صوتها جهوريا والضوءُ يبرق من نظّارتها كلما حرّكت رأسها أو أومأت. قدّم كرسيَّه إلى الأمام كي يقترب منها. أخذت تصف رجلا يُدعى إيميليانو زاباتا، مزارعا بسيطا من مقاطعة

موريلوس اضطرّ إلى أن يكون ثوريًا. كان يرتدي ملابس المزارعين، معطفا مبيضًا وسروالا موثوقا فوق الصدر بحزامٍ عريضٍ ونطاقٍ يحوي جيوبا لمخازن السلاح. صاحت: هذا ليس زيّا أجنبيا يا رفاق. ليس هناك بلادٌ أجنبية. ليس هناك فلاحٌ مكسيكي، ليس هناك ديازٌ ديكتاتور. ما هنالك إلا نضالٌ واحد في العالم أجمع، ما هنالك إلا شعلةُ الحرية تحاول أن تنير ظلامَ الحياة القبيح على الأرض. كان التصفيق يصمّ الآذان. لم يكن الخال الأصغر يملك مالا. قلّب جيبيه وشعر بالخزي إذْ شاهد من حوله أناسا تفوح أجسادهم من الفقر يتصدقون بحفنات من النقود. ألفى نفسه واقفا على قدمِ منصةِ المتحدثة. انتهت الخُطب. وقفت محاطةً بالزملاء والمعجبين. رآها تعانق رجلا داكنَ البشرة يرتدي بدلةً سوداء وربطةَ عنق ولكن أيضا قبعةَ سومبريرو مكسيكيةً ضخمة. التفتت فوقع بصرُها على الشاب الأشقر الأصلع الذي يطل برأسه مباشرة من قدم المنصة، كأنما هو مقطوع مثل رأس جمهوريٍّ فرنسي، تجحظ عيناه إلى الأعلى في نوع من النشوة. ضحكت.

اعتقد أنها سوف تحدثه في نهاية الاجتماع لكن كان هناك استقبال للمكسيكي في مكتب مجلة «مَذَر أيرث». كان ممثّلا لمتمردي زاباتا. ارتدى حذاء طويلا تحت سرواله الذي لا ثنيةَ لساقيه. لم يبتسم لكنه شرب الشاي ثم مسح شاربيه الطويلين بقفا يده. اكتظت الغرف بالصحفيين والبوهيميين والفنانين والشعراء ونساء الجمعيات. لم يدرك الخال الأصغر أنه يلاحق غولدمن. يتسول انتباهَها تسولا. لكنها كانت شديدة الانشغال بالجميع. عليها أن تقابل كل شخصٍ جديدٍ يدخل من الباب. مشغولة البال. تعرّف الناس

ببعض. تقترح على أناسٍ مختلفين مهامَّ مختلفة يقومون بها أو أناسا آخرين يتحدثون إليهم أو أماكن يذهبون إليها أو حالاتٍ ينظرون فيها أو يكتبون عنها. شعر بجهله التام. ولجت المطبخَ وخَفَقَت خليط الكعك. قالت للخال الأصغر: هاكَ، خذ هذه الأكواب وضعها على الطاولة في الغرفة الكبيرة. شعر بالامتنان لإدراجها إياه في شبكتها من الناس النافعين. كان هناك بوستراتٌ لأغلفة مجلة «مَذَر أيرث» على كل جدار. صبّ رجلٌ طويلُ الشعر مشروبَ البنش. هو الرجلُ نفسه الذي خرج إلى الشارع ليدعو الخال الأصغر إلى المكتب. يشبه ممثلا شيكسبيريا بائس الحظ. حدود أظافره سوداء. يشرب بقدر ما يصبّ في الكؤوس. يحيّي الناس بسطرٍ أو سطرين من أغنية. كل مَن حدّثه يضحك. اسمه بن رايتمان، وهو الشخص الذي تسكن معه إيما غولدمن. كان في قنّةِ رأسه شيء ما، رقعةٌ محلوقةٌ. لمّا لاحظ نظراتِ الخال الأصغر وضّح أنه كان في سان دييغو حيث طُلي جسدُه بالقطران ومُرِّر عليه الريش. ذهبت إيما إلى هناك لتلقي خطبة. وتصرّف باعتباره مديرا لأعمالها، يستأجر القاعات ويقوم بالترتيبات. لم يريدوا لإيما أن تتحدث. اختطفوه وأخذوه إلى مكان بعيد وجرّدوه من ملابسه وصبّوا عليه القطران. حرقوه بسجائرهم وفعلوا ما هو أسوأ. اسودّ وجهه بينما يصف الحادثة وانحسرت ابتسامته. اجتمع بعض الجمهور. كان يُمسك بمغرفة الشراب فبدأت تصطكّ بجانب القدح. بدا أنه لا يستطيع إفلاتها. حدّق في يده وابتسامةٌ مميزةٌ تعلو وجهه. قال: لم يريدوا لأمّي أن تتحدث في كانسس سيتي أو لوس أنجلس أو سبوكين. لكنها تحدّثت. نحن نعرف كل السجون. ربحنا كل القضايا. سوف تتحدث أمي في سان دييغو. ضحك كأنه

لا يستطيع تصديق أن يده ترتعش وهو يتكلم. صكّت المغرفةُ قدحَ الشراب.

في هذه اللحظة شقّ رجلٌ طريقه نحو الطاولة وقال: هل تعتقد يا رايتمان أن العالمَ ينفعه أنّك طُليتَ بالقطران ورُيِّشْتَ. كان رجلا قصيرا كامل الصلع بنظارةٍ سميكةٍ وفمٍ واسعٍ وملامحَ شاحبةٍ وبشرةٍ كالشمع. أصبحت القضيةُ تمسّ حق إيما في الحديث أكثر من كونها موضوعَ حديثها. كل طاقاتنا تذهب في الدفاع عن أنفسنا. هذه استراتيجيتهم، وليست استراتيجيّتنا. ليت شعري هل تفهمون ما أقول. أيّ مجد، أيها المسكين رايتمان، في أن يُخرجك من الزنزانة ليبراليٌّ مُجرم؟ حتّى يمكنه أن يهنئ نفسه. كيف للعالم أن يتقدم؟ حدق الرجلان في بعضهما. نادى صوتُ غولدمن الجذِل من وراء الحشد: ساشا! جاءت عند الطاولة تمسّ كفيها على مريلتها. وقفت إلى جانب رايتمان. وبلطفٍ أخذت المغرفةَ من يده. قالت للرجل لشاحب: ساشا يا عزيزي، لو كان علينا في البدء أن نعلّمهم قيمَهم، حينها فقط يمكن أن نعلمهم قيمَنا.

استمرت الحفلة حتى ساعات الصباح الأولى. فقد الخالُ الأصغر الأملَ في الحصول على اهتمامها. جلس على الطريقة الهندية على أريكةٍ قديمةٍ بنوابضَ مرتخية. بعد وقتٍ أدرك أن الغرفة ساكنة. نظر إلى الأعلى. كانت غولدمن تجلس على كرسي أمامه مباشرة. ما عداها كانت الغرفة خالية، كان آخرَ الضيوف. امتلأت عيناه بالدموع بشكل غير قابل للتفسير. قالت إيما غولدمن: لقد سألتَ عمّا إذا كنتُ أتذكرك. لكن كيف عساي أن أنسى؟ كيف لأحد أن ينسى مشهدا مثل ذاك، يا وثنيّي؟ مست خدّه بإبهامها وأطفأت دمعة. مشهد

تراجيدي جدا، تراجيدي جدا. تنهّدت. أهذا كل ما تريد من حياتك؟ أنعمت عيناها الواسعتان النظر فيه من وراء عدستي نظارتها. باعدت بين ساقيها ووضعت يديها على ركبتيها. لا أعرف أين هي. لكن ما نفعُ ذلك لو أخبرتُك؟ أتفترض أنك ستقنعها بالعودة إليك؟ لن تبقى إلا فترةً من الزمن وستهرب منك مرة أخرى، ألا تعرف ذلك؟ أومأ برأسه. قالت غولدمن: تبدو فظيعا. ماذا صنعتَ بنفسك؟ ألا تأكل؟ ألا تشمّ هواء جيدا؟ هز رأسه نافيا. كبرتَ عشر سنوات. لا أستطيع التعاطف معك. تظن أنك مميّز بفقدانك عشيقتك. إنه أمرٌ يحدث كل يوم. هَبْ أنها وافقت أن تعيش معك على رغم كل شيء. أنت برجوازي، ستطلب الزواج منها. سيحطم كلٌّ منكما الآخر خلال سنة واحدة. ستراها تهرم وتُصاب بالسأم أمام عينيك. ستتقابلان على طاولة العشاء في عبودية، في عبوديةِ ما ظننتُما أنه الحب. كلاكما. صدّقني أنت أفضلُ حالا الآن. كان الخال الأصغر يبكي. قال: أنت محقّة بالطبع، أنت محقّة. قبّل يدها. كانت يدها صغيرة لكن أصابعها منتفخة والبشرة حمراء والبراجم ضخمة. قال ناشِجًا: ليس لديّ ذكريات عنها. كانت شيئا رأيتُه في الحلم. لم تقتنع غولدمن. قالت: بهذه الطريقة يمكنك أن تأسى على نفسك. ويَا له من شعور لذيذ. سأخبرك بشيء. في هذه الغرفة رأيتَ الليلة عشيقي الحالي ولكن أيضا اثنين من عشاقي القدامى. إننا أصدقاء جيدون جميعا. الصداقة هي ما يدوم. قيم مشتركة، احترام للشخصية الكاملة للإنسان. لماذا تعجز عن تقبّل حريتك؟ لماذا يتعين عليك أن تتشبّث بشخص آخر كيما تعيش؟

طأطأ رأسَه بينما كانت تتكلم. حدّق في الأرضية. أحس

بأصابعها تحت ذقنه. رُفع رأسه، أميل جانبا. وجد نفسه يحدّق في وجهي غولدمن ورايتمان. لمعت في ابتسامة رايتمان الخرقاء سِنٌّ ذهبية. أطالا النظر إليه فضولا واهتماما. قالت غولدمن إنه يذكرني بليون كولغوش. قال رايتمان هذا متعلّم، برجوازي. قالت غولدمن: لكني أشاهد في عينيه الغلامَ المسكينَ نفسَه. الغلام المسكين الخطير نفسه. رأى الخال الأصغر نفسَه يقف في طابورٍ ليصافح وليم ماكينلي. ملفوفةٌ حول يده مَحرمة. في المحرمة مسدس. سقط ماكينلي. صبغ الدمُ سترته. كانت هناك صيحات.

لمّا غادر عانقته عند الباب. ضغطت شفتاها، الناعمتان بشكل مفاجئ، على خده. شعر بالقهر. تراجع خطوة إلى الوراء. سقطت الأوراق التي كانت تحته ذراعه على الأرض. تبادلا الضحك بينهما إذْ أقعيا في المدخل يلمّان الأوراق.

لكن بعد ساعةٍ وقف بين عربات قطارِ الحليب الذاهب إلى نيو روتشيل. فكر أن يرمي بنفسه تحت العجلات. أصغى إلى إيقاعها، طقطقتها المنتظمة، مثل اليد اليسرى لعازف راغ. أمّا صريرُ الحديد وطَرقه حيث تتصل العربتان فكان اليدَ اليمنى التي تنبُر النغم. كانت موسيقى راغ انتحارية. أمسك بمقبضي البابين على كل جانب مستمعا إلى الموسيقى. كانت العربتان تنطّان تحت قدميه. تسابق القمرُ مع القطار. رفع وجهه إلى السماء بين العربتين، وكأنّ بإمكان مجرّد نور القمر أن يدفئه.

. 23 .

في مساءِ أحدٍ ودّع الرجلُ الأسمرُ كولهاوس ووكر خطيبتَه وانطلق بسيارته الفورد إلى نيويورك. كان الوقت حوالي الساعة الخامسة عصرا وأعتمتْ ظلالُ الأشجار الطريق. أخذه مساره على امتداد طريق محطة الإطفاء الذي يمرّ بمحطة «إميرالد آيل إنجن» وهي شركةٌ من رجال المطافئ المتطوعين عُرفوا برشاقة زيّهم الرسمي المخصَّص للاستعراضات وحيويّة نزهاتِهم. في المرات العديدة التي سلك فيها هذا الطريق يكون متطوعو إميرالد آيل واقفين يتحدثون خارج مبنى المحطة اللوحي ذي الطابقين حتى إذا مرّ من أمامهم صمتوا فجأة وجعلوا يحدقون إليه. لم يكن غافلا عن أنه يثير بلباسه وسيارته غضبَ كثير من البيض. لقد خلق نفسَه ضدّ تلك المشاعر.

في ذلك الوقت كانت شركات التطوع الخاصة تُدار باعتبارها مساعِدةً لأقسام الإطفاء البلدية، وكان على تلك الشركات المعتمِدة على رسوم الاشتراك الخاص أن تزوّد جهازها بسيارات. لمّا مرّ الزنجي بسيارته كان فريق من ثلاثة أحصنة رمادية يجرّ خلفه المضخّةَ البخارية التي اشتُهرت بها محليا محطة إميرالد آيل. أوقفت الأحصنة

في الطريق، الأمر الذي دعا كولهاوس ووكر إلى أن يُوقف سيارته فجأة.

خرج من المبنى اثنان من المتطوعين لينضمّا إلى سائق المضخة البخارية الجالس في مقصورته ينظر إلى الزنجي ويتثاءب متباهيا. جميعهم كانوا يرتدون قمصانَ العمل الزرقاء وربطاتِ عنق خضراء وبنطلوناتٍ كحليّة وأحذية. حرّر كولهاوس ووكر دواسة الكلتش وقفز من سيارته ليديرها من جديد. انتظر المتطوعون ريثما ينتهي من هذا ثم أنذروه أنه يسير بسيارته على طريقٍ خاصٍّ برسْم مرور وأنه لن يستطيع سلوكه ما لم يدفع خمسة وعشرين دولارا أو يقدّم جواز مرور يثبت أنه من سكان المدينة. قال ووكر: هذا طريق عام سلكته عشرات المرات ولم يقل لي أحدٌ أبدا شيئا عن رسْم المرور. صعد خلف المقود. قال أحدهم لآخر: أخبِر الرئيس. قرر ووكر أن يعود بسيارته إلى الوراء حتى الركن ثم يأخذ طريقا آخر. التفت في مقعده. في هذه اللحظة قدم من الشارع اثنان من رجال الإطفاء يحملان بينهما سلّما بطول عشرين قدما خلف السيارة. تبعهما اثنان آخران بسلّمٍ ثانٍ وخرج آخرون معهم خرطومٌ ملفوفٌ وسطولٌ وفؤوسٌ وكلاليبُ ومعداتُ إطفاء أخرى، أُلقيت جميعها في الشارع، إذ كانت الشركة قد اختارت هذا الوقت بالتحديد لكنسِ المبنى.

تُميّز رئيس الشركة قبعةٌ عسكريةٌ بيضاء يرتديها بزاويةٍ فيها غرور. إضافة إلى ذلك يبدو أكبرَ سنا من البقية. كان مهذبا مع كولهاوس وأوضح له أنه على رغم أنه لم يدفع من قبلُ رسم المرور إلا أن الرسْم ساري المفعول. وإنْ لم يدفع كولهاوس فإنه لن يمرّ. رفع بيديه قبعته عن رأسه وأعاد وضعَها بحيث تغطي مقدمتُها عينيه. وهذا ما اضطرّه إلى أن يرفع ذقنَه كيما يرى، وأضفى عليه مظهرَ المشاكِس. كان رجلا

بدينا بذراعين غليظتين. ابتسم كثيرٌ من المتطوعين ابتسامة عريضة. أوضح الرئيس: نحتاج المالَ لسيارة إطفاء. بحيث نَقودها إلى الحرائق كما تقودُ سيارتَك إلى بيوت الدعارة.

قلّب الزنجي في رأسه التصرفات المتاحة أمامه بهدوء. تُشرف محطةُ إطفاء إميرالد آيل على حقلٍ فسيحٍ ينحدر أخيرا في اتجاه بِركة. نظريا يمكنه أن يحيد عن الطريق ويتجه إلى الحقل مستديرا حول السلالم وعربة الخرطوم. لكن سيارته كانت محشورةً تماما، وحتى لو حاول أن يلفّ المقود إلى أقصى حدّ بحيث يبعد الأحصنة عن طريقه، فإن الزاوية الحادة قد ترمي بالسيارة في منحدرِ التل. على ما يبدو لم يخطرْ على باله أن يتملّقَ الرئيسَ على نَهْجِ عِرقِه.

كان على حافة البركة طفلان زنجيان، في العاشرة أو الثانية عشر من العمر، يلعبان. ناداهم كولهاوس ووكر: تعالا إلى هنا! أقبل الطفلان يجريان. حدقا في كولهاوس وهو يطفئ محرك السيارة ويفعّل الفرامل وينزل إلى الطريق. أخبرهما: أريدكما أن تراقبا هذه السيارة. عندما أعود أخبراني إن مسّها أحد.

عاد الموسيقيّ بسرعة إلى الركن واتجه إلى المنطقة التجارية. بعد عشرة دقائق وجد شرطيّا يعمل عند إشارة مرور. استمع الشرطي إلى شكواه وهو يهز رأسه واستغرق وقتا يُخرج من تحت معطفه الرسمي منديلا وينفُضُ أنفه. في الأخير قال: لا يقصد الصِّبيةُ أية أذية. أعرفهم كلهم. عُدْ إليهم الآن، على الأرجح أن تسليتهم انتهت. لعل ووكر أدرك أن هذا أقصى دعمٍ يتوقعه من شرطي. ولعله في الآن ذاته تساءل عما إذا كان مُفرِطَ الحساسية تجاه ما قُصد به أن يكون مَقْلبا لا أكثر. ولهذا عاد إلى طريق محطة الإطفاء.

كانت مضخة الإطفاء البخارية والأحصنة قد سُحبت. خلا الطريقُ من المتطوعين وأبعدت سيارته عن الطريق إلى الحقل. قصد السيارة. كانت ملطّخة بالطين. في سقفها الجلدي المخصص مزَقٌ بطولِ ستة إنشات. وفي المقعد الخلفي كومة طازجة من بِرازِ إنسان.

قطع الشارع متوجها إلى باب محطة الإطفاء. كان الرئيس واقفا هناك طاويا ذراعيه بقبعته العسكرية البيضاء وربطته البوهيمية الخضراء. قال كولهاوس ووكر: أبلغني قسمُ الشرطة أنه ليس هناك رسمٌ على المرور في أي مكانٍ من هذه المدينة. قال الرئيس: هذا صحيح. الجميع أحرارٌ في عبور هذا الطريق متى ما شاؤوا. أُضيئت المصابيح الكهربائية داخل مبنى المحطة إذْ غربت الشمس. من خلال ألواح الباب الزجاجية رأى الزنجيُّ الأحصنة الرمادية الثلاثة في إسطبلها والمضخة الشهيرة بلوحاتها النيكل وتجهيزاتها النحاسية موقفةً إلى الجدار الخلفي. قال: أريد سيارتي نظيفةً وأريد تعويضا مقابل التلف. أخذ الرئيس يضحك وخرج اثنان من رجاله فشاركوه المرح.

في هذه اللحظة أقبلت سيارةُ شرطةٍ تقلّ اثنينِ أحدُهما شرطي المرور الذي استغاث به كولهاوس ووكر. مالَ إلى الحقل وعاين السيارة ثم قَفَلَ إلى المحطة. قال الشرطي لرئيس الإطفاء: وِيلي، هل قمتَ أنت أو صِبْيتك بأيّ من التخريب؟ قال الرئيس: سأخبرك بالذي حصل. أوقف الزنجيُّ سيارتَه اللعينة في منتصف الطريق أمام محطة الإطفاء مباشرة. اضطررنا لنقلها. سدُّ الطريق أمام محطة الإطفاء مخالفةٌ جسيمةٌ، أليس كذلك أيها الصِّبية؟ هزّ المتطوعون رؤوسهم موافقين. توصّل الشرطي إلى قرار. انتحى بكولهاوس جانبا وقال: اسمع، سندفع سيارتك حتى الطريق ثم تنطلق بها إلى وجهتك.

ليس هناك ضررٌ بالغ. افرك البِرازَ عن المقعد وانسَ الأمر نهائيا. قال كولهاوس: كنت في طريقي عندما أوقفوني. وضعوا القذارة في سيارتي ومزّقوا سقفها. أطالب بتنظيف السيارة وتعويضي عن التلف. بدأ الشرطي في تقدير أسلوبِ كولهاوس في الحديث ولباسه، وقبل ذلك ظاهرةِ امتلاكِه سيارة. اشتاط غضبا. رفع صوته: إن لم تأخذ سيارتك وتنصرف من هنا فسأحاسبك على قيادةِ سيارتك فوق العشبِ والسُّكْرِ وإزعاجِ السلطات. قال كولهاوس: أنا لا أشرب المُسكر ولم أقدْ سيارتي بعيدا عن الطريق ولم أمزّق سقفها ولم أتغوّط فيها. أريد تعويضا عن التلف كما أريد اعتذارا. التفت الشرطي إلى الرئيس الذي ابتسم للحرج الذي وقع فيه الأول وجعل الأمرَ الآن متعلقا بسُلطته. قال لكولهاوس: وأنا أضعك رهنَ الاعتقال. ستأتي معي في السيارة.

في أوّل ذلك المساء رنّ الهاتف في جادة برودڤيو. كان المتصل كولهاوس، وبعد أن شرح باقتضابٍ أسبابَ وجودِه في قسم الشرطة طلب من الأب أن يكفلَه في إطلاق سراحه كيما يذهبَ إلى نيويورك ولا يفوّت عمله ذلك المساء. يُحسب للأب أنه تصرّف من فورِه، محتفظا بأسئلته حتى يحين ترفُ الوقتِ المناسبِ للإجابة عليها. طلب سيارةَ أجرةٍ وذهب إلى محطة الإطفاء وهناك حرّر شيكا بمبلغ خمسين دولارا. وبينما هو يقصّ الحادثةَ على الأم شعر بالقرفِ من أن كولهاوس ووكر لم يكن مهذّبا في امتنانه بما يكفي بل هرع مسرعا إلى محطة القطار واكتفى بالقول إنه سيردّ المبلغ.

في المساء التالي حدث أمر غريب يتمثل في زيارة كولهاوس ووكر المنزلَ على رغم أنه لم يكن يوم أحد. جلس في الردهة طاويا ذراعيه وسرد القصة بالتفصيل. لم تكن في صوته نبرةُ شعورٍ

بالاضطهاد، إذ روى الأحداث بهدوءٍ وموضوعيةٍ كما لو كان يصف حادثةً وقعت لشخص آخر. قالت الأم: سيد ووكر، أشعر بالخزيِ لأن زمرةَ الأوغادِ أولئك يمثّلون في ذهنك هذا المجتمع. قال الأب: الشركةُ سيئةُ السمعة. إنها استثناء من بين باقي الشركات التطوعية المستقيمة الجديرة بالثقة. جلس الخال الأصغر على كرسي البيانو متصالب الساقين. انحنى إلى الأمام وقد أشغلت المشكلةُ ذهنَه تماما. قال: أين السيارة الآن؟ وماذا عن ذينك الطفلين؟ إنهما شاهِداك. قضى عازف البيانو المساءَ في تحرّي الطفلين غير أن أبويهما رفضا أن يتورطا في الموضوع. قال بنبرة واقعية: أنا غريبٌ عن الزنوج هنا. إنهم مضطرون للعيش هنا ولا يريدون أيّ مشاكل. بالنسبة للسيارة لم أنظر إليها ثانية. ولن أفعل حتى تعود إليّ كما كانت حين قدتُها من هذا المنزل بالأمس.

خلال هذا اللقاء كانت سارة تقف في الممرّ متواريةً عن الأنظار. حملت طفلَها على وركِها وهي تُنصت. أدركت شناعةَ المصيبة كما لم يدركها أحدٌ من العائلة. سمعت الأب يقول لكولهاوس إن عليه أن يوكّل محاميا إن كان ينوي رفع دعواه. هنالك شيء يسمّى قوة استدعاءِ الشهودِ للمحكمة. سأل كولهاوس: أيوجدُ هنا محامون سُمْر؟ قال الأب: لا أعرف أحدا. لكن أخالُ أن أيّ محامٍ يحب العدل سيَفِي الغرض. توقّف هنيهةً ثم قال بصوت أجش: سأؤمّن التكاليف. نهض كولهاوس. أشكرك لكن لا حاجةَ لهذا. وضع على الطاولة الجانبية ظرفا. فيه خمسون دولارا نقدا. لاحقا علمت الأمُّ أن هذا المبلغ جزءٌ مما كان يدّخره للزواج.

في اليوم التالي أخذ الخالُ الأصغر على عاتقه مهمةَ الذهاب إلى

موقع الحادثة ومعاينة السيارة. بعد العمل قاد درّاجته على طريق محطة الإطفاء. كانت سيارة الفورد موديل تي مدمّرة تماما، سواء فعل ذلك المتطوعون أم غيرهم، لدرجة أنه يصعبُ التعرّف عليها. قابعة في البركة ومقدّمتها في العشب الطويل على الحافة. غاصت العجلاتُ في الوحل. المصابيح الأمامية مهشمة وكذلك الزجاج الأمامي. كانت العجلات الخلفية مثقوبة، وتنجيدها المخصّل مبعوجٌ وتناثر جوفُه، أما جلدُ السقف المخصص فمُزّق إرَبا.

24

وقف الخال الأصغر على البِركة. منذ مسائِه مع إيما غولدمن وهو يجد مشقّة هائلة. الناس في العمل فاجأتْهم حيويتُه. صبّ اهتمامه على كل ما يُبقي تلك الحيوية. نطق عباراتٍ قليلةً على شَفَا الهستيريا. جلس إلى طاولة الرسم وصمّم تصميماتٍ لبنادقَ وقنابلَ يدويةٍ مُجرِيا تعديلاتٍ لا حصر لها. قاس المربعاتِ الصغيرة وقام بحساباته وتابع رأسَ قلم الرصاص وهو يرسم على الورق. حين لا يكون أمامه ملاذٌ آخر يشرع في الغناء، فقط من أجل أن يسمع صوته. وهكذا بفضل التركيز الدؤوب وصرف قدرٍ كبيرٍ من الطاقة حاولَ أن يقي نفسَه من الانزلاقِ إلى مسافاتِ تعاستِه الشاسعة. كانت تحيطُ به من كل جانب. كانت ظلاما يدنو منه بصفاقةٍ دنوَّ حاجبه. خنقته بقربها. وأشدّ ما أخافه كان غدرَها. يصحو في الصباح ويشاهد الشمس تقبل من النافذة فيجلس في سريره معتقدا أنها قد اختفت، ثم يجدها هناك، خلف أذنيه أو في قلبه.

خطر له أنه على حافّة انهيارٍ عصبي. وصف لنفسه حميةً من الحمّامات الباردة والمجهود البدني. ابتاع دراجةً من ماركة كولمبيا وصار

يأخذها إلى العمل. ليلا قبل النوم يؤدي ألعابا جمبازية حتى ينهَك.

في الطابق الذي تحته شعرت الأم والأب بالمنزل يهتزّ. عرفا أنه يقفز إلى الأعلى ثم إلى الأسفل. لقد اعتادا على غرابةِ أطواره. لم يأتمنْهما قطُّ على أسراره ولم يشاركهما آماله أو مشاعره ولذا لم يلاحظا تغيّرا في سلوكه. طلبت منه الأم أن ينضمّ إليهما في الردهة حين لا يكون لديه ما يفعله في المساء. جرّب أن يفعل. سمعهما يناديانه وسمع نفسَه يجيب. رآهما في ردهتهما الخانقة بالأريكة وأعمدتها المنتصبة وأغطية مصابيحها المهدّبة، وأحس أنه ليس قادرا على التنفس. كرههما. كان يعتقد أنهما راضيان عن نفسيهما وعاديّان ولا يراعيان الآخرين. ذات مساء قرأ الأبُ بصوتٍ عالٍ على الجميع مقالا في الجريدة المحلية. يحبّ الأب أن يقرأ بصوتٍ عالٍ كلما وجد شيئا تعليميا أو مكتوبا بشكل جيد. كان عنوان المقال «ضفدع الربيع». قرأ: ها هو ذلك الزائر الصغير لحقولِنا وبِركنا يعودنا من جديد. إنه في الحقيقة لا يقل بشاعةً عن أخويه الكبيرين، الضفدع العادي والعلجوم. لكننا نرحّب بالرفيق الأنيق الصغير ونُثني على جماله. ألم يسبق طائرَ السمنة ونبتةَ الزعفران في إعلانه قدومَ الربيع؟ اندفع الشاب من الغرفة خارجا مقتنعا أنه يختنق حتى الموت.

ما من شكٍ في أن الخال الأصغر كان محظوظا في وفائه للرجل الأسمر. لمّا كان واقفا على البركة سمع ارتطامَ الماء على الرفارف الأمامية لسيارة الفورد موديل تي. لاحظ أن غطاء المحرك لم يكن مغلقا، وإذ رفعه وأقفله رأى أن الأسلاك منزوعة من المحرك. كانت الشمس الآن تغرب وتلقي انعكاسا من السماء الزرقاء على ماء البركة الداكن. هناك سرى فيه تيارٌ صغيرٌ من الحنق، لعله يساوي واحدا في

المئة مما لا بدّ أن كولهاوس ووكر يشعر به، وكان أمرا صحيّا.

بالنظر إلى الأحداث اللاحقة، من المهم ذِكرُ ما لا يعرفه كثيرون عن كولهاوس ووكر جونيور. الواضح أنه من سكان سانت لويس في ولاية ميزوري. عَرف في شبابه سكات جوبلن وموسيقيّي سانت لويس الآخرين وأُعجب بهم. ثم دفع تكاليف دراسته العزفَ على البيانو من نقودٍ كسبها من العمل في تفريغ حمولات السفن. لا توجد معلوماتٌ عن والديه. في فترة من الفترات ادّعت امرأةٌ من سانت لويس أنها طليقتُه لكن ادعاءَها لم يثبت أبدا. لم يُعثر على أي من سجلاته المدرسية في المدينة، وحتى الآن لا يعرف أحدٌ كيف تعلّم مفرداته وطريقته في الكلام. ربما بفضلِ فعلِ إرادة.

مما يشاع أنه بينما كان كولهاوس ووكر يبني سُمعته السيئة لم يطرقْ كل السبل السلمية والقانونية لإصلاح التلف قبل أن يقتصّ لنفسه بنفسه. وهذا ليس صحيحا البتّة. لقد قابل ثلاثةَ محامين وصّى بهم الأب. في كل الحالات رفضوا تمثيله في المحكمة. نُصِح بأن يُصلح سياته قبل أن تدمّر بالكامل وأن ينسى الأمر. أكّد لثلاثتهم أنه لا يريد أن ينسى الأمر بل أن يرفع دعوى ضد رئيس المطافئ ورجال محطة إميرالد آيل.

هاتف الأبُ بنفسه واحدا من أولئك المحامين، وهو رجل مثّل شركتَه في عديد من القضايا التجارية. سأل: أليست القضية واضحة؟ قال المحامي للأب: عندما يذهب للإدلاء بشهادته، يمكنك أن تذهب معه. لا تحتاج إليّ في هذا. عندما يدخل صاحبُ ملكيةٍ في هذه المدينة المحكمةَ مع زنجي، فإن تهمةً مثل هذه عادةً ما تُسقَط. قال الأب: لكنه لا يكترث بالتهمة؛ إنه يريد أن يرفع دعوى. عندها أدرك

الأب أن المحامي كان مشغولا بمحادثة مع آخرَ في مكتبه. تسعدني خدمتك، قال المحامي وأنهى المكالمة.

من المعروف أيضا أن كولهاوس ووكر استشار محاميا أسودَ في هارلم. علم أن رئيس إميرالد آيل، واسمه ويل كونكلن، أخٌ غير شقيق لقاضي المدينة وابنُ أخٍ لحاكم مقاطعة في مدينة وايت بلينس. أخبره محامي هارلم أن ثمة طرقا لتحويل القضية إلى سُلطات قضائية أخرى لكنها تكلّف كثيرا من المال والوقت. والنتيجة ليست متوقعةً بحال من الأحوال. قال المحامي: هل تملك المال لهذا؟ قال كولهاوس ووكر: أنا على وشك الزواج. قال المحامي: هذه خطة مُكلفة. مؤكّدٌ أن مسؤولياتك تجاه خطيبتك أهمّ من الحاجةِ إلى الاقتصاص من إهانةٍ من جانب البِيض. ثم من الواضح أن ووكر علّق على رأي المحامي الأسود تعليقا ليس مهذّبا بالكامل. وقف المحامي من خلف مكتبه وطلب منه المغادرة. صاح: أقوم تطوّعًا على قضايا لا تعلم عنها شيئا. أريد العدل لأهلنا بشدة لدرجة أني يمكنني تذوقه. لكن إن كنتَ تخال أني سأذهب إلى مقاطعة وست تشستر لأترافع عن رجلٍ أسمر لأن أحدهم ألقى سطلا من القذارة في سيارته فأنت واهمٌ.

معلوم أيضا أن كولهاوس قام بمحاولة أوّلية للتفكير في القضية باعتباره مترافِعا عن نفسه. أعدّ شكوى لكنه لم يعرف كيف يجدولها في تقويم المحكمة ولم يعرف الخطوات اللازم اتخاذها للتأكد من صحة شكلها وضمانِ موافقة المحكمة على سماعها. ظهر في البلدية لإجراء مقابلة مع كاتبِ المقاطعة. أشير عليه بأن يعود يوما آخر حين لا تكون هناك أمورٌ أكثر إلحاحا في المكتب. لكنه أصرّ فأُخبر أن شكواه ليست مسجّلة وأن البحث عنها سيستغرق عدة أسابيع.

أخبره الكاتب: عد إلينا في ذلك الحين. عِوضا عن ذلك ذهب إلى قسم الشرطة الذي أعدّ فيه الشكوى في المرة الأولى، وحرّر شكوى ثانية. نظر إليه رجال الشرطة في دهشة. انتحى به جانبا شرطيٌّ يكبرهم سنا وأسرّ إليه بأنه لا طائلَ مما يفعل لأن رجال شركات الإطفاء التطوعية ليسوا موظفين حكوميين وبالتالي فإنهم لا يقعون في النطاق القضائي للمدينة. لم يفُت على كولهاوس الاستخفاف الذي انطوى عليه هذا المنطق بيْدَ أنه فضّل ألّا يجادله. وقّع شكواه وغادر وسمع من ورائه وهو يخرج من الباب ضحكا.

حدث كلُّ هذا في غضون أسبوعين أو ثلاثة. لاحقا عندما أصبح اسمُ كولهاوس ووكر يرمز إلى القتل وحرق الممتلكات، لم تعدْ محاولاتُه الأولية هذه للحصول على تعويضٍ تهمّ. حتى في هذا التاريخ لا يمكننا أن نتغاضى عن الأذى المتعمّد الواقع بسببه، لكن من المهمّ معرفة الحقيقة قدر المستطاع. أمست المحادثات على طاولة العشاء في بيت العائلة يستحوذ عليها الآن موضوعُ محاولاتِ هذا الرجل الأسود الغريب الأبيّ في استرداد حقه. بدا أنّ ما حدث شيءٌ أحمق. بدا بطريقةٍ ما أنه خطؤه لأنه زنجي وكانت المشكلة من فئة المشاكل التي لا ترتبط إلا بزنجي. وقفت زنجيّتُه الهائلةُ أمامهم مثل قطعةٍ تزيّن وسط المائدة. بينما كانت سارة تقدم الطعامَ أخبرها الأب أن وضعَ خطيبها كان يمكن أن يكون أفضل لو أنه نسي الأمر وسار بسيارته قبل فوات الأوان. قام الخال الأصغر منزعجا. قال: تتحدث مثل رجلٍ لم يُمتحَن قطّ في مبادئه. غضب الأب من هذا التعليق غضبا شديدا لدرجة أنه لم يجد كلماتٍ مناسبة. قالت الأم بلطف إن التعبير عن مشاعر متطرفة لن يخدم أحدا. هبّ نوعٌ

خاصٌّ من النسيم الدافئ غير المعقول على ستارةِ نافذةِ غرفةِ الطعام المصرية. كان له ذلك النفَس المتوعّد الذي يجعل بداية الربيع مُقلقة. أسقطت سارةُ صحنَ تقديمٍ فيه قطعة سمك. انسحبت إلى المطبخ وحملت طفلها. باكيةً أخبرت الخال الأصغر الذي كان قد لحق بها أن كولهاوس قال لها الأحد الماضي إنه لا يستطيع أن يتزوج حتى يرضى برجوع سيارته إلى الحالة التي كانت عليها عندما اعترضتْ طريقَه أحصنةُ محطةِ الإطفاء.

. 25 .

لم يعرف اسمَ عائلةِ سارة أو يفكر في سؤالها عنه أحد. أين وُلدت وأين عاشت هذه الفتاة السوداء الفقيرة غير المتعلمة، بقناعتها التامة حول الكيفية التي يجب أن يحيا بها البشرُ حيواتهم؟ في أسابيع سعادتها القليلة، بين الوقت الذي قَبِلت فيه عرضَ كولهاوس للزواج منها والمخاوف الأولى من أنّ زواجها لن يتم أبدا، تغيّرت تغيّرا كبيرا إلى درجة أنْ أصبح لها وجهٌ جديدٌ مختلف. لقد كان الغمُّ والغضبُ ضربا من الغرابة الجسدية التي تقنّع ملامحها الحقيقية. أرعب الأمَّ جمالُها. كانت تضحك وتتحدث بصوتٍ يقطر حلاوة. اشتغلتا معا على فستان زفافها وكانت حركاتها في غاية الرهافة والرشاقة. لها قوامٌ ممتازٌ وأخذت تنظر إلى نفسها في المرآة بإعجاب. تضحك جذلا من وجودها. تدفقت سعادتُها في حليبِ ثديها فكبر طفلُها بسرعة. أخذ يرفع نفسه على قدميه فلم يعد وجوده في العربة آمنا. بقي معها في غرفتها. ترفعه وترقص به. كانت فتاة بعمر ثمانية عشر أو تسعة عشر عاما تقريبا، راضية الآن بأن ظروف الحياة أمدّتها بسببٍ للعيش. أدركتِ الأم أنها من نوع أولئك

الأشخاص الأخلاقيين الذين لا يفهمون شيئا غيرَ الخير. لا تعرف مكرا ولا تتصرف إلا استجابة تامة وبائسة لما يُمليه عليها شعورُها. إن أحبتّ تتصرف حبًّا وإن خُذلت تتحطم. هذه الحقائق الناصعة والخطيرة لحياةِ إنسان بريء. انجذب الصبيُّ إليها وإلى طفلها أكثر فأكثر. لاعب الطفلَ بلطفٍ وكان هناك تقديرٌ معلنٌ متبادلٌ بينهما. غنّت الأم. أما هي فخاطت فستانَ زفافِها وقاستْه وخلعته. تحت الفستان لبست ملابس داخلية ارتفعت إلى وركيها لمّا شدّت الفستان الأبيض إلى الأعلى. شاهدت اهتمامَ الصبيِّ الأصيلَ والمكترِثَ بأعضائها فتبسّمت. ومع الخال الأصغر تواطأت التواطؤَ الضمْنيّ لفرديْن من الجيل نفسه. زوجها المستقبلي رجلٌ يكبرها سنا وكان شبابُ الخال الأصغر يميّزه عن الآخرين في عائلته. ولهذا السبب تبعَها إلى المطبخ حيث أسرّت له بنذرِ كولهاوس ألّا يتزوج حتى يستعيد سيارته.

سأل الخال الأصغر: ماذا سيصنع؟ قالت سارة: لا أدري. لكنها ربما استبانت العنفَ الكامنَ وراء مبدئه.

في يوم الأحد التالي تخلّف كولهاوس ووكر عن موعد زيارته. عادت سارة إلى غرفتها. اتضح للأب أن الوضع الآن يتدهور. قال إن من السخفِ السماحَ لسيارةٍ أن تسيطر على حياة الجميع كما تفعل الآن. أزمع على الذهاب في الغد للتحدث مع فريق محطة إميرالد آيل وخاصة الرئيس كونكلن. قالت الأم: ماذا ستفعل؟ قال الأب: سأُريهم أنهم يتعاملون مع صاحبِ ملكيةٍ من هذه المدينة. إن لم أنجح سأرشوهم بكل بساطةٍ ليصلحوا السيارة ويعيدوها إلى بابي. سأدفع لهم مالا. سأرشوهم. قالت الأم: السيد ووكر لن يعجبه هذا. قال الأب: هذا ما سأفعله على أية حال. وسنكترث بالتفسيرات لاحقا.

إنهم حثالةُ المدينة وسيقدّرون المال.

لكن قبل تنفيذ الخطة عزمت سارةُ على سلكِ طريقٍ خاصة بها. كان هذا الموسمُ ربيعَ سنةِ الانتخابات. كان مُجدْوَلا أن يزور جيمس شيرمن، نائبُ الرئيس تافت وأحدُ مرشحي الحزب الجمهوري الوطنية، نيو روتشيل ذلك المساء ليتحدث في عشاءٍ للحزب الجمهوري يُقام في فندق تايدووترز. تذكرتْ أنها سمعت الأب يعدّد أسبابَه للغياب عن المناسبة. ولأنها تجهل الكثير عن الحكومة ولا تستوعب تفاهةَ محنةِ كولهاوس على المستوى الوطني، خطرت لسارةَ فكرةُ تقديم عريضةِ التماسٍ إلى الولايات المتحدة نيابةً عنه. كان ثاني تصرفٍ مرعوبٍ يائسٍ تحرضها عليه براءتُها. انتظرت في المساء حتى غطّ طفلها في النوم فغادرت المنزل، تلفّع رأسَها بشالٍ، من دون أن تخبر أي فرد من العائلة وهبطت الربوة إلى جادة نورث. كانت حافية. ركضت برشاقةِ طفل. كانت مستعدة لأن تجري حتى تبلغ الفندقَ لكنها وجدت في طريقها عربةَ ترامٍ ترمش مصابيحها الداخلية فقرع سائقُها الجرس حانقا من قطعِها السكةَ من أمام العربة مباشرة. دفعت الأجرةَ واستقلت العربةَ إلى وسط المدينة. هبّت رياحٌ مسائيةٌ وفي السماء الداكنة تراكمت سحبٌ كثيفةٌ واعدةٌ بعاصفة مطرية. وقفت أمام الفندق ضمن جمعٍ صغيرٍ من الناس في انتظار وصول الرجل العظيم. توقفت سيارةٌ إثر سيارةٍ تحمل صاحب المقام الرفيع هذا أو ذاك. رشت قطراتُ مطر قليلة وبقّعت الرصيف. فُردت سجادةٌ من الرصيف إلى أبواب الفندق. لم يحضر أفرادُ الشرطة المحلية ذوو القفازات الليلية البيضاء وحدهم، بل ساندتْهم عصبةٌ من الميليشيا تحافظ على خلوّ الممر وتدفع الحشدَ من الشارع في انتظار سيارة نائب الرئيس. كانت

الميلشيا في ترقّب تام، وكذلك كان رجالُ المباحث في زيّهم المدني الذين كلّفهم ثيودور روزفلت بحماية الرؤساء ونوّابهم عقب اغتيال الرئيس ماكينلي. في الواقع عاد روزفلت من التقاعد هذا الموسم مرشّحا نفسه ضد صديقه القديم تافت. كان ويلسون المرشح الديمقراطي، ودبس المرشح الاشتراكي، وتذبذب أداءُ الحملات الانتخابية الأربع من ولاية إلى أخرى، مُجْهِزةً على آمال البلاد كما الريح تذْرو السهولَ الواسعة. في مدينة ميلواكي من ولاية وسكانسن وصل روزفلت قبل حوالي أسبوع ليلقي خطابا. لمّا غادر محطة القطار ماشيا إلى سيارة أُخذ بعيدا عن حشدٍ تجمّع للترحيب به. تقدّم من الحشد رجلٌ موجّها مسدسه من مسافة قصيرة. علا صوتُ الطلقات. اخترقت رصاصةٌ علبةَ نظّارةٍ في جيب روزفلت الصدري فشقّت ثقبا في أوراقِ خطابِه المطويّة الخمسين واستقرت في ضلعه. صُعق. طُرح مُطلق الرصاصة أرضا. كانت هناك صيحات. تفحّص روزفلت جرحَه واطمأن إلى أنه لم يكن خطيرا. واصل ليلقي خطابه قبل أن يدع الأطباء يعالجونه. لكن دخان الحادثة اللاذع ما انفكّ مستمرا في أذهان الشعب. لم يكفّ المكلّفون بحماية شخصيات بارزة عن التفكير في حادثة إطلاق النار على تيدي روزفلت. منذ عهد قريب غطّت رصاصاتُ قاتلٍ عمدةَ مدينة نيويورك وليم جي غينور بالدّم. كان رصاص المسدسات يُطلق في كل مكان.

عندما تهادت سيارةُ نائب الرئيس دانيةً من الرصيف وترجّل منها الرجل نفسه انطلق هتاف. كان جيم شيرمن سياسيا من ولاية نيويورك وله في وست تشستر أصدقاءٌ كثر، رجلا متينا وأصلعَ وفي صحةٍ بائسةٍ لن تدعه يُكمل الحملة. اقتحمت سارةُ الصفَّ

وركضت نحوه تنادي في ارتباكها: أيها الرئيس! أيها الرئيس! كانت ذراعُها ممدودة ويدُها السوداء في اتجاهه. انكمش متفاديا أن تلمسه. ربما بدا لحَرَسِ شيرمن في المساء الداكن العاصف بعاصفته الوشيكة أن يدَ سارة السوداء كانت سلاحا. تقدّم فرد من الميليشيا وبالتسلط المهلك الذي يتمتع به المسلحون الذي يحمون المشاهير ضربَ بكعب بندقية سبرنغفيلد صدرَ سارة بأقصى قوته. سقطت. وثب عليها رجلٌ من المباحث. غاب نائب الرئيس في الفندق. وفي أثناء الفوضى والصياح الذي أعقب الحادثة وُضعت سارةُ في عربة شرطة وأُخذت بعيدا.

احتُجزت سارة في قسم الشرطة تلك الليلة. كانت تسعُل دمًا وفي ساعات الصباح الأولى ارتأى الضابط المداوم أنها قد تكون في حاجةٍ إلى رؤية طبيب. حيّرت الجميعَ بامتناعها عن إجابة الأسئلة وتحديقها فيهم بعينين من الخوف والألم، ولو لم يتذكر واحدٌ منهم أنه سمعها تصيح أيها الرئيس! أيها الرئيس! لعدّوها بكماء. سألوها: ماذا كنتِ تفعلين؟ ماذا كنتِ تظنين أنك فاعلة؟ نُقلت إلى المستشفى صباح اليوم التالي. كان يوما رماديا غائما. نائبُ الرئيس غادر، ومراسمُ الاحتفال انتهت، وشارع الفندق كنسَه القشّاشون بمكانسهم، والتهمة الموجّهة ضد سارة انخفضت من محاولةِ اغتيالٍ إلى إرباكِ الأمن. رقدت في المستشفى. تهشم عظمُ قفصها الصدري وعدةُ أضلع. في المنزل الواقع على جادة برودفيو سمعت الأم صياح الطفل المستمر فصعدت أخيرا إلى الأعلى لترى ما الأمر. انقضت بضعُ ساعات قبل أن يمكّن ضابطُ شرطةِ العائلةَ من مهاتفةِ الفتاةِ السمراء الراقدة في المستشفى. جاء الأب من العمل والأم من المنزل

فوجدا سارة في سريرٍ في الجناح العمومي. كانت نائمة، جبهتها جافّة وحارّة وعلى زاوية فمها فقاعةٌ من الدم تنتفخ وتتقلص مع كل نَفَس. في اليوم التالي كانت سارة قد أصيبت بالتهابٍ رئوي. جمعا القصة من الأشياء المتفرّقة التي قالتها. لم تُرْعِهما سمعَها وظلّت تسأل عن كولهاوس. رتّبا لوضعها في حجرةٍ خاصة. ولأنهما لا يعرفان أين يقيم كولهاوس اتصلا بكازينو مانهاتن وبمدير كليف كلوب أوركسترا. نجحا في الوصول إلى كولهاوس ولم تمضِ بضع ساعاتٍ إلا وهو جالسٌ إلى جوار سارة.

انتظر الأب والأم خارج الحجرة. عندما عادا إليها كان كولهاوس جاثيا على ركبتيه إلى جوار السرير. يطأطئ رأسه ويمسك بكلتا يديه يدَ سارة. تراجعا. وبعد فترة تناهت إلى سمعهما أصواتُ حزنِ رجلٍ بالغٍ كأنما هي آتيةٌ من قبرٍ. ذهبت الأم إلى المنزل. واظبت على حمل الطفل. تدمّرت العائلة. لم يبد أنها قادرة على أن تدفأ. ارتدى الجميعُ سترات. أشعل الخالُ الأصغر المدفأة. قبل أن ينتهي الأسبوع ماتت سارة.

26

أقيمت مراسمُ الدفن في هارلم. كان فيها إسراف. جُهّز نعشُ سارة من البرونز. نُقل النعش في عربة مخصصة من طراز «بيرس آرو أوبرا» بمقصورة ركاب ممدودة ومقصورة سائقٍ مكشوفة. سُيِّج سقف العربة بالنحاس وحُمّلت جُنوبُها بكتلٍ من الورد. ثُبِّت شريطٌ أسود على زوايا السقف الأربع. من شدة تلميع السيارة استطاع الصبيُّ رؤية انعكاسٍ لكاملِ الشارع على أبوابها الخلفية. كان كل شيء أسود بما في ذلك السماء. انعطف الشارع عند أفقٍ منحدِر. أقلّت المشيّعين إلى المقبرة عدةُ ليموزينات. كان أغلبُ المشيعين موسيقيين من زملاء كولهاوس في كليف كلوب أوركسترا، زنوجا بشعر قصير محلوق وبِدَل داكنة محكمة الأزرار وياقات مستديرة وربطات عنق سوداء. ارتدت النساء منهم فساتينَ تحفّ أحذيتهن وقبعاتٍ بحواف عريضة وفراءً تحيط بأكتافهن. عندما ركب المشيعون السيارات وأغلقت الأبواب وصعد السواقون خلف المقاود، سمع الجميعُ صوتَ بوقٍ فإذا حافلةٌ تقلّ فرقة موسيقية يرتدي أفرادها ملابسَ سهرة مقبلة عليهم من الشارع كيما تأخذ مكانها من الموكب. دفع كولهاوس

ووكر تكاليفَ الجنازة من المال الذي ادّخره لزفافه. الترتيب الذي دبّره لسارة كان عن طريق عضويته في اتحاد الموسيقيين الزنوج الخيري. تقع المقبرة في بروكلين. عزفت الفرقة ترانيمَ حزينةً عبر شوارع هارلم الهادئة وعلى امتداد وسط مانهاتن. سار الموكب ببطء. جرى خلفه الأطفال وتوقّف المارّة على الأرصفة للرنوّ إليه. عزفت الفرقةُ بينما كانت السيارات تعبر جسر بروكلين فوق النهر الشرقي. نهض الركاب في عربات الترام على مسارات الجسر الجانبية من مقاعدهم لمشاهدة المسيرة المهيبة. سطعت الشمس. ارتفعت النوارسُ من الماء. طارت بين كابلات الجسر المعلّق ووقّعت على القضيب بعد أن تجاوزتها آخر سيارة في الموكب.

• 27 •

الربيع، الربيع! مثل ساحرٍ مجنونٍ يرمي من حقيبته حريرًا وخرقًا ملونة، جادت الأرض بالزعفران الأصفر والأبيض ثم بالعنب الذي تُزهر الفورسيثيا على سيقانه وأوراق السوسن وزهور شجر التفاح البيضاء والوردية والخضراء والليلك الثقيل والنرجس. وقف الجدّ في الفناء وهتف مرحّبا. هبتّ نسمة ونفضت عن شجر القيقب شلالا من البراعم المنويّة الخضراء الطرية. نشبتْ في شعره الأشيب المتناثر. هز رأسه في بهجةٍ لمّا شعر بأنه مُنح إكليلا. استولت عليه نوبةُ سرورٍ وأخرج ساقه في رقصةِ شيخٍ ففقد توازنَه وانزلقَ في كعب حذائه منتهيا بوضعية الجلوس. على هذا النحو انكسر حوضه ودخل فترةً من الصحة المتدهورة لن يبرأ منها. لكن الربيع بهيجٌ وحتى في الألم كان يبتسم. ارتفع النُّسْغُ في الأغصان وغردت الطيور في كل مكان. في سجن ماتياوان الحكومي في شمال الولاية وثب هاري كيه ثاو برشاقة من حفرةٍ على الطريق ووضع قدمه على موطئ القدم في سيارة كانت واقفة تنتظر. أنشب مرفقَه في عمود السقف وأطلق صرخة جذلى فانطلقت السيارة. هرب ثاو إلى كندا مغادرا مقطورةً من النادلات الغاضبات والخدم المذهولين. خطف صبيّا مراهقا وجلده بسوط-

كان قد بدأ في حلّ مشاكله. بعد حينٍ عبر الحد قافلا. اكتُشف على متن قطارٍ قريبا من بافالو وهرب لاهثا ومقهقها عبر العربات ومن ورائه رجال المباحث يطاردونه. في مقصورة الطعام التفّ وقذفَ أباريقَ قهوةٍ فضيةَ ثقيلةَ التقطها من طاولات الزبائن المشدوهين. تسلّق فيما بين العربات وجرى على امتداد ظهر القطار في قفزاتٍ قِرْدية ثم وثب على رصيف المراقبة ووقف بذراعين ممدودتين في اتجاه الشمس بينما اندفع رجال الشرطة من الباب وألقوا القبض عليه.

لم يكشف ثاو عن اسم الشخص الذي ساعده في الهرب. قال: ادعوني هوديني فحسب. قرّر مراسلٌ صحفيٌّ مغامر أن يلتقي الساحر العظيم ويستجدي منه تعليقا. كان من ذلك النوع الخبير في أخبار القصص الغبية عديمة الأهمية التي كانت تحبّها صحفُ ذلك الوقت. وجد هوديني في مقبرةٍ في كوينز حيث يراقب الربيعَ جاثيا على ركبتيه إلى جوار قبر أمه. رفع رأسه بوجهٍ حزينٍ منتفخٍ ومثير للضحك. انصرف المراسل متسللا. تبرعمت في أرجاء المقبرة شُجيراتُ القرانيا وسقطت بتلات الماغنوليا على شكل دوائر حول الأشجار.

ارتدى هوديني بدلة صوفية سوداء وكان كمّ السترة مشقوقا من عند الكتف. ماتت أمه منذ أشهر لكنه يستيقظ كل صباحٍ وجرحُه طازجٌ ومؤلمٌ وكأنها ماتت البارحة. ألغى حجوزاتٍ عديدة. لم يحلق ذقنَه إلا عندما يتذكر، وكان نادرا ما يتذكر، وبعينيه المحمرتين ولحيته الخشنة وبدلته الفضفاضة صار مظهره يوحي بأيّ شيء سوى أن يكون الساحرَ اللاذعَ عالميّ الشهرة.

دأب على ترك حصواتٍ صغيراتٍ عند القبر لتسجيل الزيارة حسب التقليد اليهودي. والآن يغطي قبرَ السيدة سيسيليا وايس

الحصى والحجارة الصغيرة المتراكمة فوق بعضها مشكّلة هرما. فكر في رقدتِها في النعش تحت الأرض. بكى بمرارة. أراد أن يكون إلى جوارها. تذكر محاولتَه افتكاك نفسه من تابوت، الرعبَ الذي اعتراه عندما أدرك أنه لا يستطيع. كان للتابوت غطاءٌ خادعٌ لكنه لم يتوقعْ ثقلَ الأرض. غرز أصابعه في الأرض مستشعرا ثقلَها الهائل. صرخ في صمتها المُطبق. كان يعرف ما معنى أن تضمّه الأرض لكنه شعر حينها أنها مكانه الوحيد. أي نفعٍ للحياة من دون أُميمته المحبوبة؟

كره الربيع. ملأ الهواء أنفه وفمه مثل ثرّى متكدّس.

في منزله الحجري البني على شارع 113 قريبا من شارع ريفرسايد أعدّ هوديني صورا مؤطرة لأمّه تُوحي بحضورها الدائم. وضع صورةً مكبّرةً لوجهها على وسادة سريرها. صورةٌ أخرى لها وهي جالسةٌ على كرسي وتبتسم وضعها في الكرسيّ نفسه الذي وقفت فيه لالتقاط الصورة. كانت هناك صورةٌ لها تعتمر قبعةً وترتدي معطفا وتصعد درج الباب الأمامي على الشارع. علّقها على الجانب الداخلي من الباب. كان أحد ممتلكاتها القيّمة صندوق موسيقى من خشب البلوط بنافذة زجاجية على غطائه يتسنى للمرء من خلالها رؤيةُ الأسطوانة وهي تدور. كانت هناك عدة أسطوانات للاختيار من بينها لكن أسطوانتها المفضلة كانت تلك التي حملت أغنية «فلنحتفل» على وجهٍ وأغنية «كولمبيا جوهرة المحيط» على الوجه الآخر. صار هوديني يدير صندوق الموسيقى كل مساء ويشغّل هاتين الأغنيتين. كان يحلم أنه يسمعهما بصوتها. حفظ الرسائل التي كتبتها له عبر السنين وترجمها إلى الإنكليزية ثم طبعها بحيث يتمكن من قراءتها بسهولة من دون أن يخشى عليها البِلى بسبب استخدامه المفرط. كان يقف على

باب خزانتها ويستنشق عطر ملابسها.

مرضت المرأة المسنّة بينما كان هوديني في أوروبا. كان يتطلع إلى إخبارها بلقائه بوريث العرش النمساوي الهنغاري الأرشيدوق فرانز فرديناند لكنها ماتت قبل أن يكاتبها. تمكن من الحصول على إعفاءٍ من عقود الأداء التي كان قد وقّعها، وأبحر عائدا إلى الوطن بأسرع ما يمكن. لم يتذكر شيئا من الرحلة. أذهب الغمُّ عقله. أُجّلت مراسم الدفن إلى حين عودته. علم أنها نادت باسمه قُبيل موتها. تعرضت لسكتة دماغية شلّتها. كانت تئنّ: إريك، إريك. عذّبه الشعور بالذنب. كان مهووسا بفكرةِ أنها أرادت أن تقول له شيئا، أن لديها شيئا لا تُفصح له عنه إلا وهي تحتضر.

طالما انتابته شكوكٌ حول المنجمين والادعاءات الروحانية للعرّافين ومستحضري الأرواح. في أيام عمله الأولى مع سيرك الأخوَيْن ويلش في بنسلفينيا استغلّ بنفسه سذاجةَ الرّيفيين بادّعاء قدراتٍ ماورائية لخدَعِه. يخبر وهو معصوبَ العينين حليفَه المتواطئ معه عن أي شيء يستخدمه شخص من الجمهور تعريفًا بالهويّة. يسأله الحليف: ما هذا يا سيد هوديني، فيخبره. كل شيء يُعرف بشفرة. أحيانا يزعم أنه يحادث الموتى فيعطي مغفّلا عرفوا اسمَه وظروفَه بطريقةٍ معينةٍ رسالةً من أحد أحبابه الذين ماتوا. يعرف إذن ما هو الدجل الروحاني. يستطيع تمييزه. تفشى الدجلُ الروحاني في الولايات المتحدة منذ 1848 عندما دعت الأختان مارغريتا وكيت فوكس جيرانهما لسماعِ قرعٍ غامض في منزلهما في هِدسفيل في ولاية نيويورك. لكن خبرته الفعلية في المجال هي ما حضّه الآن على النظر في إمكانية العثور على مَن يملك موهبةً حقيقيةً في استحضار الأرواح. سيكتشف

ما إذا بالإمكان التواصل مع الموتى فعلا. في وُسعه أن يميز أيّ فعلٍ زائفٍ في العالم ويفضحه. ولهذا فإنه لو وجد الشيء الحقيقي فسيعرفه. أراد أن يرى قوامَ أمّه سيسيليا الضئيل وأن يشعر بيديها تلمسان وجهه. لكن بما أن ذلك مستحيل فقد قرر البحث في إمكانية محادثتها.

في هذا الوقت من تاريخنا لم يعد التواصلُ مع الموتى فكرةً بعيدةَ المنال كما كانت من قبل. كانت أمريكا في فجر القرن العشرين دولةَ الحفّارات البخارية والقاطرات والمناطيد الهوائية ومحرّكات الاحتراق والهواتف والمباني ذات خمسة وعشرين طابقا. لكن كانت هناك قابليةٌ مثيرةٌ للاهتمام للأفكار الغامضة من أشهر البراغماتيين على هذه الأرض. بالطبع كان كلُّ شيء يتمّ في الخفاء. ذاعت في بعض الدوائر إشاعةٌ عن أن بيربونت مورغن وهنري فورد قد شكّلا منظمة سرية. وعلم هوديني أن البستانيّ الساحر لوثر بوربانك، الذي نجح في تهجين النباتات ومضاعفة غلّة المحاصيل الزراعية، يتحدث سرًّا إلى النباتات ويعتقد أن باستطاعتها فهمه. وضع إديسون العظيم نفسه الذي اخترع القرن العشرين نظريةً تقول إن جسيماتٍ لا تُختزَل من مادةٍ مشحونةٍ بالحياة سمّاها «أسرابًا» تبقى على قيد الحياة بعد الموت ولا يمكن القضاء عليها أبدا. حاول هوديني التواصل مع إديسون. طلب مقابلته. لكن الرجل العظيم كان مشغولا جدا. كان يعمل على اختراعٍ من شدّة سرّيته تكهّنت في الصحافة باستمرار عمّا يمكن أن يكون. ادّعى واحدٌ من تلك الأخبار أن الاختراعَ الجديد شيءٌ يدعى الأنبوب المفرّغ وأن إديسون يأمل من خلاله استقبال رسائلَ من الموتى. بعث هوديني برقياتٍ يائسة متوسلا أن يُسمح له بمقابلة. رُفض طلبه. عرض مالا لدعم تمويل المشروع. رُفض عرضه. أقسم

على نفسه أن يخترع آلته الخاصة، تماما كما تعلّم التحليق بطائرته الخاصة. أيّا يكن ذلك الذي بدأه إديسون، فقد جاءت فكرته من مخزن التقنية المتاح للجميع. اشترى هوديني كتبا وشرع يدرُس الفيزياء الميكانيكية ومبادئ تخزين الطاقة. أخذ على نفسه عهدا أنه إن كانت ثمة حياةٌ بعد الموت فسيكتشفها بأي وسيلةٍ آليةً كانت أو بشرية.

حالا استرعى شغفُه اهتمامَ مجموعة من الناس الذي يواكبون هذه الأمور. التقى رجلا من بافالو زعم أنه عمل فيما مضى مع عبقريّ شركة جنرال إلكتريك المُهاجر القزم شتاينميتز. أخبره الرجل: اكتشف الفيزيائيون في كافة أنحاء العالم الموجاتِ. تفترض نظريةٌ في غاية الأهمية من خارج أمريكا بأن المادةَ والطاقةَ جانبان للقوّة الأولية نفسها. وهي فكرتي أيضا، أضاف الرجل. كان فيزيائيا يحمل درجةً جامعيةً من ترانسلفينيا. كل ما يحتاج إليه هو أن يصمم الآلة ذاتَ الحساسية الكافية لالتقاط الموجات الأولية وفكّ تشفيرها كما لم يعرف أحد في ذلك الحين. وقّع هوديني معه اتفاقيةً ونقَدَه ألفي دولار مقابل الحقوق الحصرية لبحثه. استضاف رجلا آخر كيميائيا في قبو بيته. وصلته رسائلُ من أناسٍ يدّعون مواهب في تحضير الأرواح ويطلبون أيّا من أشياء أمه -دبوسا أو خصلة شعر- لاستخدامها. وظّف وكالةَ تحرٍّ لتنظر في أيّ أولئك الناس يمكن الوثوق به. أخبر رجالَ التحري بطريقةِ تمييزِ الدجل الروحاني. أخبرهم عن الأبواق المزيفة والتصوير المخادع وفونوغرافات التسجيل المخفية ورفع الموائد باستخدام البكرات. أخبرهم عن سبب حاجةِ محضّرِ الأرواح إلى الغرف المظلمة. عندما يطفئ المصابيح فهو ينوي إخفاءَ شيء.

سريعا ولّد هوديني طاقةً من هذا النوع كافيةً لأن تدفعه للتفكير

في العودة إلى العمل. أخبر مديرَ أعماله: أشعر أني أقوى. بدأت أشعر أني عدتُ إلى سابق عهدي. رُتبت الحجوزات سريعا. أولئك الذين شاهدوا عروضَ هذه الفترة من حياته المهنية يقولون إنها فاقت كل شيء عملَه من قبل. لقد جعل فِيلًا بعينه يختفي بصفقةٍ من يديه. تدفّقت العملات المعدنية من بين أصابعه. طار الحمام من أذنيه. دخل في صندوق تعبئة تفحّصه الجمهور بأنفسهم. أُحكم إغلاقُ الصندوق بالمسامير ورُبط بحبلٍ متين. لم توضع أمام الصندوق ستارة. فُكّ غطاؤه. كان فارغا. شهق الجمهورُ شهقة جماعية لمّا شوهد هوديني يدخل المسرح من الردهة. قفز على خشبة المسرح. برقت عيناه بلون ماسيّ أزرق. رفع ذراعيه رويدا رويدا. ارتفعت قدماه عن الأرض. وقف معلقا مسافة ستة إنشات فوق الأرض. لهثت النساء. فجأة انهار كومةً. كان هناك هتافُ عدمِ التصديق تبعه تصفيقٌ مطوَّل. عاونه مساعدوه في الجلوس على كرسي. طلب هوديني كأسا من الخمر كيما يستعيد قوته. رفع الخمر على ضوء المسرح. ذهب لونُه. جرَعَه فاختفى كأس الخمر من يده.

في الواقع أصبحت عروضه شديدة الكثافة وغدا لها تأثيرٌ غريبٌ ومزعجٌ على جمهوره لدرجة أن الأطفال يهرعون في بعض الحالات إلى الخارج قبل أن ينتهي العرض. لم يلاحظ هوديني مغادرتهم أبدا. دفع نفسَه إلى ما هو فوق احتمالِ قدراتِه الجسدية مؤديا ثمانية أو عشرة من خدعِه في عرضٍ يفترض أن يؤدي فيه ثلاثةً فقط. كان دائما ما يصف خدعه باعتبارها تحدّيا للموت، وبعد أن تأكّد الآن مراسلو صحفِ نيويورك من أنه سيجهد نفسه صاروا يلاحقونه في عروضه الفردية من مسرح بروكلين بانتاجس إلى فوكس يونيون سيتي إلى

مسرح مَين ستريت في نيو روتشيل. أدّى عرض الافتكاك من سطل الحليب المشهور، حيث أقفل عليه في واحد من السطول العادية التي تسع عشرة غالونات من الحليب المستخدمة في توزيع الحليب على المتاجر. كان السطل مملوءً ماءً فكان عليه أن يفتكّ نفسه وإلا سوف يموت. استلقى في خزانٍ زجاجيٍّ على شكل تابوت محكم السدّ بحيث لا يمكن لشعلة شمعةٍ أن تدوم فيه. استلقى هناك مدة ست دقائق بعد أن تخمد الشمعة. صاح ناس من الجمهور. أغمضت النساء أعينهن وغطّين بأيديهن آذانهن. توسَّلن إلى معاونيه أن يوقفوه. عندما سُمعت التماساتُهن أخيرا أصدر غطاءُ التابوت الزجاجي المحكم صوتا مفرقعا إذ انفكّ. سوعد في الخروج مرتعدا يغطّيه العرق. كان كلُّ عمل خارق يؤديه هوديني يمثّل رغبته في أمه المتوفاة. كان يُدفن ويولد من جديد، يُدفن ويولد من جديد. ذات ليلة وفي أثناء عرض منفرد حصريّ في نيو روتشيل كانت رغبتُه في موته من الوضوح بحيث بدأ الناس يصرخون ونهض قسٌّ محلي وأخذ يصيح: هوديني، أنت تعبث بفكرة اللّعن! لعلّه لم يعد فعلا قادرا على تمييز حياته من خدعِه. وقف في ردائه الطويل المحزوم يتفصّد عرقا، وبدا بشعره المبلل المتلولب مثلَ مخلوقٍ من عالم آخر. قال بصوت منهك: سيداتي سادتي، أرجوكم أن تعذروني. أراد أن يوضّح إتقانه لأسلوبٍ شرقي قديم في التنفس يمكّنه من إيقاف حياته مؤقتا. أراد أن يوضّح أن أعماله الفريدة بدت أكثر خطورة مما هي عليه فعلا. رفع يده مناشدا. لكن في تلك اللحظة دوى انفجارٌ من قوته اهتزّ المسرحُ من أساسه فسقطت من قوس خشبة المسرح قطعٌ من الجصّ. تراجع الجمهورُ الذاهل مشتت الأعصاب إلى الممرات هلعا، ظنّا منه أنها حيلة أخرى من حيله الشيطانية.

28

حدث الانفجار في الواقع على حدود المدينة من ناحيتها الغربية على بُعد ميلين من المسرح. انفجر مبنى محطة إميرالد آيل إنجن قاذفا على الحقلِ المقابل له ألواحًا محترقة ومضيئا السماء فوق وست تشستر. استجابت للإغاثة شركاتٌ من كافة أنحاء المدينة ومن منظمات بيلهام وماونت ڤيرنون المجاورة. لم يكن في الوُسع القيام بالكثير. من حسن الحظ لم يكن المبنى الخشبي الواقع على طريق محطة الإطفاء يبعد عن أقرب منزلٍ بأقلّ من ربع ميل. لكن اثنين من الإطفائيين المتطوعين في المستشفى، حُروق أحدِهما بالغةٌ بحيث لا يُتوقع بقاؤه على قيد الحياة أكثر من يوم. أُعلن عن وجود خمسة رجال على الأقل في المحطة في وقت الانفجار. كانت ليلةَ الخميس، الوقتَ الذي يجتمع فيه أفراد الشركة بانتظام على لعبة البوكر.

في فجر اليوم التالي كان الحقل محترقا والمبنى كومةً من الدمار المتفحم. سيّجت الشرطة المنطقة بأكملها بأشرطةٍ وبدأ المحققون في تفتيش الحطام وانتشال الجثث والبحث عن قرائن تدلّ على سبب وقوع الكارثة. سرعان ما اتضح أنها جريمةُ قتل. كشفت اثنتان

من الجثث الأربعة المنتشلة عن أن سبب الوفاة لم يكن الحريق أو الانفجار ولكن الرصاص. كانت الأحصنة المسرَّجة موصولة بالمضخة وطريحة حيث سقطت في منتصف الشارع. استُخرجت ماكينة صفّارة الإنذار من الحطام، واتضح منها أنها تلقّت إنذارا من صندوق على طرف المدينة الشمالي على رغم أنه لم تنشب حريقٌ في أيّ مكان من المدينة تلك الليلة. من هذا الدليل وبراهين أخرى جُمع بعضها بمساعدة طبيب شرعي من قسم شرطة مدينة نيويورك توصّلت السلطات إلى هذا التصور: عند حوالي الساعة 10:30 مساء كان ستة من أفراد شركة الإطفاء مجتمعين في مكتبهم للعب الورق عندما قرع الإنذار. اندفع لاعبو الورق إلى أحذيتهم وخوذاتهم. سِيقت الأحصنة من إسطبلها ثم شُدت إلى مضخة الإطفاء البخارية. كانت السُّروج من نوع خاص يُكبس صنعتْه لأحصنة الإطفاء شركةُ بي أيه ستزر من نورث كارولاينا. مثل كل رجال الإطفاء يفخرُ أفرادُ إميرالد آيل بالسرعة التي يستجيبون بها للإنذارات. كانت هناك دائما نُويرةٌ تحت المِرجل بحيث يكتمل وصول المحرك البخاري إلى درجة الضغط المناسبة عند بلوغ جهاز الإطفاء موقعَ الحريق. ولئن كانت الشركةُ تتمتع عادةً بالكفاءة فإن دقيقةً واحدةً لم تمرّ ذاك المساء قبل أن تكون الأبواب قد شُرعت والسائق يسوط أحصنته على الطريق صائحا عليها. كان أحدهم يقف في الشارع أمام مسار الأحصنة تماما. تسلّحَ إما هو أو هم ببنادق أطلقت في وجوه الأحصنة المقبلة مباشرة. سقط حصانان من فورهما، أما الثالث فشبّ مجروحا في الجِيد بحيث رشّ دمه على الشارع كأنما هو مطر. أصيب سائق العربة برصاصة أردتْه قتيلا فسقط إلى الأمام على الأرض. تلقّى رجلان من الثلاثة الذين

امتطوا الأحصنة إصاباتٍ بالغة، ولقي الثالث حتفه تحت المحرّك الذي حَرَقَته الأحصنة الجافلة فانقلب على جنبه. عندما غلا المِرجل البخاري أصدر قعقعة فظيعة سمعها جيرانُ الحيّ الذين أفزعهم قبل ذلك دويّ البنادق. تناثر صندوق المِرجل وأشعل الفحم الملتهب مبنى المحطة الخشبي. ارتفع اللهب سريعا وفجرت حرارة المبنى المشتعلِ المِرجلَ قاذفة في اتجاه الحقل ألواح الخشب المحترقة. كانت تلك اللحظة التي فقد فيها هوديني عاطفةَ جمهوره.

حدث أن أفراد العائلة أووا إلى فرشهم مبكرا تلك الليلة. لم يناموا قبلها جيدا. بكى الطفل الأسمر يريد أمه ولم يتعوّد على حليب المرضعة. سمع الأب الانفجارَ البعيد ومن نافذة غرفة نومه رأى السماء المضاءة. أول ما تبادر إلى ذهنه أن مصنَعه ومخزنَ الألعاب النارية التابع له تعرضا لانفجار. لكن الوهج كان ساطعا في جهة مختلفة. لم يعرف ما احترق إلا في صباح اليوم التالي. بدا أن النار هي الموضوعُ الوحيدُ للمحادثات في المدينة قاطبة. في ساعة الغداء ذهب الأب إلى الموقع. وقف جمعٌ غفيرٌ عند حاجز الشرطة. التف حول الأشرطة ووصل إلى البِركة أسفل الحقل المقابل للمبنى المحطم. في البركة كان الهيكل الغارق لسيارة الفورد موديل تي يظهر ويختفي كلما مسح الماءَ، بفعل نسمة الهواء التي تكشط سطحه، حدودَه وأعاد تشكيلها. عاد الأب إلى منزله على رغم أن جرس الساعة الثانية عشرة دقّ للتو. لم تجرؤ الأم على النظر إليه. كانت تجلس واضعة الطفل في حضنها. تحني رأسها في وضعيةِ تأملٍ يذكّر من دون وعيٍ بسارة الميتة. تساءل الأب في هذه اللحظة عمّا إذا كانت حيواتهم لم تعد تحت سيطرتهم.

في الرابعة مساء جاء الصبي موزع الصحف ورمى صحيفةَ

المساء المطوية في الشرفة. يعتقَد أن القاتل مُحرِق الممتلكات ذكرٌ زنجيٌّ مجهول الهوية. استطاع الناجي الوحيد من الهجوم وصف ملامحه للشرطة من سريره في المستشفى. فيما يبدو أخمدَ الزنجيُّ النارَ التي كانت تشتعل في ملابس الرجل المصاب. ولكيلا يُفسَّر سلوكُه على أنه تصرفٌ رحيمٌ شدَّ بعد ذلك شعرَ رأسِه وسأله عن مكان اختباء رئيس المحطة. لكن من حسن حظ الرئيس كونكلن أنه لم يكون موجودا في محطة الإطفاء ذلك المساء. تجهل الشرطة كيف يعرف الزنجيُّ كونكلن وما سبب عداوته له.

أجمع المحققون على وجود شركاءَ في الجريمة، مستنبطين هذا من إنذارٍ زائفٍ لإخراج المتطوعين من مبنى المحطة. مع هذا وصف مقال الكارثة على أنها صنيعُ قاتلٍ وحيدٍ معتوه. أُهيب بالمواطنين إلى إقفال أبوابهم ولزوم الحيطة، ولكن لزوم الهدوء أيضا.

جلست العائلة على طاولة العشاء. حملت الأم الطفلَ في ذراعيها. لم تتوقع أن تضع الطفل نهائيا. أحسّت بلمسة أنامله الضئيلة على خدها. في الأعلى كان الجد يئن من الألم في غرفته. لم يكن هناك عشاءٌ هذا المساء إذْ لم يشتهِ أحدٌ الطعام. وُضع أمام الأب إبريق زجاجي من البراندي. كان يشرب كأسَه الثالثة. شعر بأن شيئا يستقر في حلقه، عظمةً صغيرة أو ذرةَ غبار، ورأى أن البراندي الشيء الوحيد الذي سيبعده. أخذ من دُرج مكتبه مسدسَ الجيش القديم الذي يحتفظ به من أيام حرب الفلبين. كان موضوعا على الطاولة. قال لزوجته: نحن نتكبّد مأساةً ما كان ينبغي أن تكون مأساتَنا. ما الذي استولى على عقلك ذاك اليوم بحق الله؟ في المقاطعة منشآت للمُعوزين. استقبلتِها من دون تفكير كاف. ضحّيتِ بنا جميعا بفضل

عاطفتك الأنثوية الخرقاء. رَنَتْ إليه الأم. لم تفلح في تذكّر مرة واحدة عاتبها فيها خلال علاقتهما الطويلة. عرفت أنه سيعتذر، ومع ذلك ملأت عينيها دموعٌ سرعان ما انسكبت على وجهها. انفكت خصلات من شعرها فاستقرت على رقبتها وأذنيها. نظر الأب إليها فكانت جميلةً بجمالها حين كانت فتاة. لم يدرك المتعةَ التي أحس بها في دفعِها إلى البكاء.

كان الخال الأصغر جالسا يتكئ بمرفقه على ذراع كرسيه ويسند رأسه إلى يده. سبابته ممدودة وتشير إلى صدغه. راقب صِهْرَه. قال: هل ستبحث عنه وستقتله؟ قال الأب: سأحمي منزلي. ها هو طفلُه هنا. لو اقترفَ خطأً المجيء إلى بابي سأتولى أمره. قال الخال بنبرة صوت مستفزة: ولم عساه أن يأتي إلى هنا؟ نحن لم ندنّس سيارته. نظر الأب إلى الأم. في الصباح سأذهب إلى الشرطة وسأخبرهم أن هذا القاتل المجنون كان ضيفا في بيتي. سأضطر إلى إخبارهم أننا نحتفظ بطفله غير الشرعي. قال الخال الأصغر: أعتقد أن كولهاوس ووكر جونيور يريدك أن تخبر الشرطة بكل ما تعرف. يمكنك أن تخبرهم أنه الزنجي المعتوهُ نفسه الذي تقبع سيارته في قاع البِركة المقابلة للمحطة. يمكنك أن تخبرهم أن الرجل الذي زار قسمهم نفسه ليتقدم بشكوى ضد ويل كونكلن وبلطجيته. يمكنك أن تخبرهم أنه القاتل الأسود المجنون نفسه الذي جلس إلى جوار امرأةٍ ماتت في المستشفى متأثرة بجراحها. قال الأب: آمل أني أسأت فهمك. هل تدافع عن هذا الهمجيّ؟ هل يلومُ أحدًا سوى نفسه على موت سارة؟ هل يلوم شيئا غير كبريائه الزنجي اللعين؟ لا شيء إطلاقا يبرر قتلَ الناس وتدميرَ الممتلكات بتلك الطريقة! وقف الخال الأصغر

فجأة حتى أنّ كرسيه سقط. فزع الطفلُ وبدأ في البكاء. كان الخال الأصغر شاحبا ويرتجف. قال: لم أسمع هذا التأبين في جنازة سارة. لم أسمعك تقول إنه يتعذر اغتفار الموت وتدمير الممتلكات.

لكن الحق أن كولهاوس ووكر قد بدأ بالفعل اتخاذ خطواتٍ عدة للاعتراف بالجريمة. اتضح أنه في غضون ساعة من الانفجار ترك هو، أو رجلٌ أسودُ آخر، رسالتين متطابقتين لدى مكاتب جريدتين محليتين. بعد أن تداول المحررون الأمرَ مع الشرطة قرروا عدم طباعتها. كُتبت الرسالتان بيد واضحة راسخة، وسردتا تفاصيل الأحداث المؤدية إلى الهجوم على محطة الإطفاء. قالت الرسالة: أطالب بأن يُقدَّم رئيسُ المحطة سيئ الذكر إلى العدالة. أطالب أن تعاد إليّ سيارتي في حالتها الأولى. إن لم يُستوفَ هذان الشرطان سأستمرّ في قتل رجال المطافئ وإضرام النار في محطات الإطفاء حتى تنتهي. سأدمّر المدينة بالكامل إن لزم الأمر. رأى محررو الجريدتين وضباط الشرطة أن طباعةَ الرسالة لن يخدم الصالح العام. إنّ قاتلا وحيدا معتوها مشكلةٌ أمّا التمرد فمشكلة أخرى. مشّطت بهدوءٍ فرقٌ من الشرطة أحياءَ الزنوج وسألت عن كولهاوس ووكر جونيور. في الوقت نفسه فعلت الشرطة في المدن المجاورة الشيء عينه مع السكان الزنوج. تكرر الردّ في أقسام الشرطة: ليس واحدا من زنوجنا، ليس واحدا منا.

في الصباح استقل الأب عربة الترام على جادة نورث إلى وسط المدينة. مشى إلى مبنى البلدية. دخل المبنى باعتباره رجلَ أعمالٍ يحظى باحترام كبير لدى المجتمع. حياته الاستكشافية نقلتْها الصحف باهتمام. العَلَم الذي يرفرف فوق قبة المبنى كان هديّته للمدينة.

III

29

وُلد الأب في بلدة وايت بلينز في ولاية نيويورك ونشأ فيها. كان وحيدَ أبويه. تذكر لحظاتِ الضوء والدفء في أيام الصيف في ينابيع ساراتوغا. كانت هناك حدائقُ بممراتٍ مفروشةٍ بالحصباء. يصحب أمَّه في المشي على الشرفات الكبيرة المصبوغة للفنادق الشهيرة. في اليوم نفسه من كل عام يذهبان إلى مسقط رأسه. كانت امرأةً ضعيفةً ماتت وهو في الرابعة عشرة. التحق الأبُ بكليّة غورتن ثم هارفرد. درس الفلسفة الألمانية. في شتاءِ سنتِه الجامعية الثالثة انتهت دراسته. أبوه قد حصل على ثروةٍ في الحرب الأهلية ومنذ ذلك الوقت وهو يبدّدها في مضاربات مصرفية طائشة حتى تلاشت آنذاك. كان العجوز من النوع الذي يزدهر على المِحَن. تنمو ثقته مع كل خسارة. حين أفلس كان مبتهجا ومنتصرا. مات فجأةً من دون أن تُمسّ توقعاته. ولّد إسرافُه في ابنه الوحيد شخصيةً محاذرةً ورصينةً وكادحةً وتعيسةً تعاسةً مُزمنة. أخذ اليتيمُ ببلوغه سن الرشد حفنةَ الدولاراتِ التي ورثها واستثمرها في شركةِ ألعابٍ ناريةٍ صغيرةٍ يملكها إيطاليّ. ومع الوقت استحوذ عليها ووسّع نشاطها ثم اشترى شركةَ تصنيعِ بيارق

وتيسّر حاله كثيرا. كما وجد الوقت للاشتراك في مأموريةٍ أثناء حرب الفلبين. كان فخورا بحياته لكنه لم ينسَ قط أنه قبل الانخراط في عالم الأعمال كان قد التحق بهارفرد حيث استمع إلى محاضرة وليم جيمس عن مبادئ علم النفس الحديث. أصبح الاستكشافُ شغفَه: أراد أن يتجنّب ما يسميه الدكتورُ الجليلُ جيمس عادةً عُقدةَ النقص أمام الذات الكاملة.

الآن يستيقظ الأب كلَّ صباح ويتذوق وجودَه الفاني. تساءل عمّا إذا كان كرهُه اللحظي لكولهاوس ووكر مبنيّا ليس على لون الرجل ولكن على اقترافه فعلا تودّديا، مغامرةً مشوقةً تشير إلى أن أفضل ما في الحياة قادمٌ ما يزال. لاحظ الأب رقشَ البشرةِ على قفا يده. وجد نفسه يطلب أحيانا من الناس أن يُعيدوا ما قالوا. أصبحت مثانته تتطلبّ إفراغها دائما. لم يُثر جسدُ الأم شهوتَه بل تقديرَه الصامت فحسب. أُعجب بشكلها ونعومتها لكنه لم يعد يشتهيها. لاحظ أن جسمها اكتنز قليلا عند أعلى الذراعين. حالما تعوّدا على العيش معا عقب رجوعِه من القطب الشمالي انزلقا إلى عِشرةٍ غير متطلّبة شعر فيها أن الحياةَ تجاوزته، أنه مثل متفرجٍ أمام حَدث. ازدرى مباركتَها زواجَ الفتاة السوداء. وبما أن سارة ماتت فإنه يشعر الآن بأنه غير مرئيّ تماما، بعد أن وجّه حزنُ الأم اهتمامَها بالكامل إلى طفلِ سارة.

فطن إلى أنه وجد في ذهابه إلى الشرطة ارتياحا. لم يكن شعورا صالحا بالكليّة. وربما لتعويض هذا مَثّل كولهاوس في الشرطة باعتباره رجلا مسالما قادته ظروفٌ ليست من صنيعه إلى الجنون. كانت هذه الحجة نفسها التي قدّمها الخال الأصغر في المنزل. صادق الأب على رواية الأحداث الموجودة في رسالة كولهاوس. قال الأب مستخدما زمن

الفعل الماضي: كان عازف بيانو. كان دائما مهذّبا ومؤدّبا في تعاملاته. هز الشرطي رأسه بتثاقل. أرادوا أن يعرفوا ما إذا كان من المحتمل أن يشنّ الزنجيُّ هجوما من جديد. هذا ما قاله قائد الشرطة: يشنّ هجوما من جديد. قال الأب إن كولهاوس إذا ما اختار طريقا لنفسه فإنه لن يكون كولهاوسَ ما لم يصمد عليه. بناء على هذه الاستشارة تقريبا نُظّمت خطة دفاعية. عُيّن حرسٌ من الشرطة على كل محطات الإطفاء في المدينة. وُضعت الطرق الرئيسية تحت المراقبة. في القسم عُلقت على الحائط خريطةٌ تبيّن انتشار قوات الشرطة. بناء على معلومات الأب عمد قسم شرطة مدينة نيويورك إلى تعيين رجالِ تحرٍّ للبحث عن كولهاوس في هارلم.

توقّع الأب انتقادا من الشرطة. لم يأتِ. اعتبروه خبيرا بشخصية المجرم. شجعوه على أن يقضى أطول ما يستطيع من وقت في القسم. أرادوا أن يكون في المتناول ليُعين تحرياتهم. صُبغت جدران المكاتب بالأخضر الفاتح حتى خطٍّ يصل إلى مستوى الخصر ثم أدناه بالأخضر الغامق. كانت هناك مَباصِقُ في كل ركن. وافق الأب على أن يجلس في القسم ما استطاع. كان هذا الوقتُ أكثر أوقاتِ العام نشاطا. كلُّ طلباتِ الصواريخ والمفرقعات والألعاب النارية ومفرقعات الشمعة الرومانية والقنابل يلزمُ شحنُها في الوقت المناسب لاحتفالات الرابع من يوليو. تردّد ما بين مكتبه وبين الشرطة. اشمأزّ من وجودِه برفقةِ ويل كونكلن رئيسِ محطة إطفاء إميرالد آيل. فاحت من كونكلن رائحةُ الويسكي وغدا لوجهِه المتوردِ لونُ لحمِ العجلِ من جرّاء كونِه رجلا مُطارَدا. مرة يكون متغطرسا وأخرى جبانا. قدّم مشوراتٍ بمستوى الحكمة نفسِه الذي أشعلَ الفتنةَ في المقام الأول. أراد أن

يذهب إلى حيّ الزنوج ويطهّره منهم مرةً واحدةً وإلى الأبد. استمع الضباط إلى رأيه بلا مبالاة. مازحوه بخصوص مصيره. قالوا: قد نضطرّ إلى تسليمك للرجل الشرّير يا وِيلي. فقط لكي نستعيد الأمانَ هنا. لم يستطع كونكلن تحمّل هذا المزاح طويلا. قال: ألسنا في هذا معًا؟ أحبّكم الإله، لقد كنتم صبيانا قساةً في حادثة سانت كاثرين وها أنتم قساةٌ الآن. قال قائد الشرطة: ويلي، علينا أن ننتظر حتى نسمع من الرجلِ الأسودِ نفسه كي نعرف أيّ مشاغبٍ منكما كان البادئ، أيها الإيرلندي الغبي الذي تخبرنا أننا في هذا معًا.

لكن شخصيةَ رئيس المحطة وعقليتّه بدتا مناسبتين للمكان. فعبْر الأبواب الزجاجية كان المجرمون والمحامون والكفلاء ورجال الشرطة والأقارب البائسون يمرّون باستمرار. اقتيد السكارى برقابهم واللصوصُ بأياديهم المكبلة. كانت الأصوات عالية واللغة منحطّة. أدار كونكلن نشاطا تجاريا في الفحم والثلج وعاش مع زوجةٍ وعدةِ أطفالٍ في شقةٍ تعلو مكتبه المنزلي. تنبه الأبُ إلى أن الرجل يقضي وقتا طويلا في قسم الشرطة لأنه يشعر بالأمان هنا. بالطبع لن يعترف بهذا. لقد تباهى بالاحتياطات التي أخذها في منزله. لم يعتمد على الشرطيّين المعينين وجنّد كل الناجين من إميرالد آيل بعد أن سلّحهم للتطوّع في حراسة منزله. قال: خيرٌ للزنجي أن يهاجم أكاديمية وست بوينت العسكرية.

شعر الأب أن الرجل يحطّ من قدره. يتحدث كونكلن معه بطريقة تختلف عن حديثه إلى الشرطة. تحسنت مفرداته. كان ادعاؤه المساواة الاجتماعية مثيرا للحنق. كان يقول: إنه لأمر مأساوي أيها الزعيم. شيء مأساوي حقا. ومرةً وضع بالفعل يده على كتف

الأب في إيحاءٍ مرعبٍ بالأخوية كان له وقعُ صدمةٍ كهربائية.

على أية حالٍ وجد الأب نفسه يقضي في القسم وقتا أطول فأطول. صار من الصعوبة العودةُ إلى المنزل. في يوم الدفن الجماعي لضحايا محطة إطفاء إميرالد آيل ذهب لسماع كلمات التأبين. حضر نصفُ أهل المدينة. تمايل فوق رؤوس الحشد صليبٌ نحاسي كبير. لم يغادر ويل كونكلن قسم الشرطة. قال: سأكون هدفا مواتيا لرمية البندقية. بدأت تشيعُ في المدينة أسئلةٌ عن سلوكه. ثم نُشرت في صحف مدينة نيويورك اليومية، حيث لم تقيّد المراسلين اهتماماتُ الغرفةِ التجاريةِ المحلية، أنباءٌ عن أن حادثة القتل الليلية في إميرالد آيل نابعةٌ من مَظْلَمة. نشرت كلٌّ من صحيفة «صَن» وصحيفة «وورلد» نصَّ رسالةِ كولهاوس. أضحى ويل كونكلن شخصا محتقَرا في كل مكان. كُره باعتباره المُقترف الغبي للأحداث التي أدّت إلى مقتل الرجال الذين كان يرأسهم. في المقابل ازدُري من بين مجموعةِ أسبابٍ باعتباره شخصا يعرف كيف يستدرج زنجيّا ولكن لا يعرف كيف يزرع في نفسه مخافةَ الله.

صار رجلٌ يرتدي قبعة ديربي يجلس في سيارته كل يومٍ على الشارع المقابل للمنزل الكائن على جادّة برودڤيو. لم يُبَلغ الأبُ رسميا بهذا، لكنه أخبر الأم بأنه طلب حراسةَ الشرطة، إذ فضّل ألّا يشاركها ظنَّه أن الشرطة لم تتجاوز الحاجةَ إلى مراقبته على رغم كل امتنانها لقاء مبادرته بالتبليغ. تساءل أيّ اشتباهٍ يمكن أن يكون لديهم.

بعد أسبوع بالضبط من هجوم كولهاوس على محطة إميرالد آيل سارت سيارةُ ليموزين بطيئة عند السادسة صباحا على شارع ريلرود بليس الضيّق المرصوف بالحجارة في الناحية الغربية. بين مباني

المربع التجاري كانت محطة الإطفاء البلدية رقم 2. لمّا حاذت السيارةُ المبنى توقفت فذُهل الشرطيّان الناعسان الواقفان أمام الأبواب وهما يشاهدان عدةَ رجالٍ سُودٍ ينزلون حاملين مسدساتٍ وبنادق. ساعد أحدَ الشرطيين حضورُه الذهني على النزول أرضا. أما الآخر فوقف فاغرَ الفم بينما شكّل المعتدون بكفاءةٍ صفًا مثل فرقة إطلاق نار، وعند إشارةِ أحدهم أطلقوا النار في انسجام. قتل وابلُ الرصاصِ الشرطيَّ الواقفَ وحطّم زجاج أبواب المحطة. ثم غار واحدٌ من الزنوج وقذف من خلال النوافذ المحطمة عدةَ رزمٍ صغيرة.

تقدم الرجلُ الذي أعطى إشارة الإطلاق إلى الشرطي الناجي المذعور الملقى على الرصيف. وضع في يده رسالة وقال بهدوء: يجب أن تُنشر هذه في الجريدة. ثم لحق بالزنوج الآخرين الذين عادوا إلى السيارة. لمّا انطلقت مسرعةً اقتلع انفجاران متتاليان أو ربما ثلاثة أبوابَ محطةِ الإطفاء محولةً إياها في الحالِ إلى جحيم. سرعان ما ابتلع اللهبُ صالونا مجاورا ومؤسسةَ موزّع قهوةٍ كان أيضا يحمّص قهوته الخاصة لزبائن الشارع. شكّلت أكياسُ البنّ سحابةً صفراءَ وتركت رائحةَ قهوةٍ محمصةٍ تضوع في الحيّ عدة أسابيع. انتُشلت أربع جثثٍ كلّها لرجال إطفاء المدينة. وُجدت امرأة كبيرة في السن، على الأرجح أنها ماتت فزعا، في غرفتها على الشارع المقابل. دُمّر محركُ إطفاءٍ من طراز ريو وسيارةُ إسعاف.

والآن أصاب المدينةَ هلعٌ حقيقي. توقف الأطفال عن ارتياد المدارس. وُجهت صيحاتُ غضبٍ إلى إدارة المدينة وإلى ويلي كونكلن. نظم وفدٌ من رجال الإطفاء مسيرةً إلى مبنى البلدية مطالبين بأن يؤدوا القسم مثل عناصر الشرطة وأن يزوَّدوا بأسلحةٍ لحماية

أنفسهم. بعث العمدةُ المرتبكُ برقيةً إلى حاكم نيويورك مناشدا المساعدة. تصدرت قصةُ هجوم كولهاوس الثاني الصفحاتِ الأولى لكل صحف البلاد. وفدت من نيويورك أفواجٌ من المراسلين. لِيمَ قائدُ الشرطة على السماح للقاتل الأسود بأن يعيد فعلتَه الإجرامية مرة ثانية. أصدر القائدُ بيانا للمراسلين المجتمعين في مكتبه. قال: الرجل يستخدم سياراتٍ يتنقل بها في الأرجاء. يضرب ثم يختفي، الله أعلم أين يختفي. منذ سنواتٍ ورابطةُ قادة الشرطة في ولاية نيويورك تطالب بقانون لترخيص السيارات والسائقين. لو كان هذا القانون فعّالا اليوم لكان باستطاعتنا تقصّي هذا الغاشم. أفرغ القائدُ أدراجَ مكتبه وهو يتحدث. نفث دخانَ سيغار. خرج مع المراسلين. في اليوم التالي قُدمت مذكرة ترخيصُ السياراتِ لمجلس الولاية التشريعي.

في مصنع الأب موظفان زنجيّان اثنان، أحدهما يعمل في التنظيف والآخر في تجميع أنابيب الصواريخ. لم يجئ أيٌّ منهما إلى العمل في يوم الكارثة الثانية. في الواقع لم يُشاهد الزنوج في أي مكان من المدينة. لزموا البيوتَ خلف الأبواب الموصدة. قبضت الشرطة تلك الليلة على عدة مواطنين بِيض يحملون مسدسات وبنادق في الشوارع. استجاب الحاكم لطلب القائد بإرسال شركتين لقوات الميليشيا من مدينة نيويورك. وصلتا الصباح التالي ونصَبتا من فورهما خيامهما على ميدان البيسبول خلف المدرسة الثانوية. اجتمع الأطفال للمشاهدة. نُشرت أعدادٌ خاصةٌ من الجرائد المحلية طبع كل منها في مكانٍ بارزٍ نصَّ رسالة كولهاوس الثانية. وهذا ما جاء فيها: واحد، يُقدم الزائدةُ البيضاءُ المسمّاةُ ويلي كونكلن للعدالة. اثنان، تُعاد سيارة الفورد موديل تي ذات السقف الجلدي المخصص

إلى حالتها الأولى. إلى حين الوفاء بهذين الشرطين، ستسود قوانينُ الحرب. كولهاوس ووكر جونيور، رئيس الحكومة الأمريكية المؤقتة.

في هذا الوقت كان الجميع في حاجة ماسة إلى معرفةِ كيف يبدو كولهاوس ووكر ذاك. تنافست الجرائد تنافسا شرسا. اقتحم الصحفيون مكاتب كليف كلوب أوركسترا في هارلم. لم يعثروا على صور تحتوي على وجه عازف البيانو سيئ الذكر. ظفرت صحيفة «أميريكان» التي يملكها هيرست بطباعةِ صورةٍ شخصيةٍ للمؤلف الموسيقي سكات جوبلن. هدد أصدقاءُ جوبلن بمقاضاة الصحيفة خصوصا وأن الموسيقيّ في المراحل الأخيرة من داءٍ عضالٍ ولا يستطيع تولّي شؤونه الخاصة. قُدمت اعتذاراتٌ باهتة. أخيرا خرجت جريدة من سانت لويس بصورةٍ أعيدت طباعتُها على نحو واسع. صادق الأب على صحة الصورة التي أبدت كولهاوس يجلس في شبابه أمام بيانو قائمةٍ مرتديا بدلة رسمية. يداه موضوعتان على لوحة المفاتيح ويبتسم للكاميرا. يتحلق حول البيانو عازف بانجو وبوّاق وعازف ترومبون وعازف كمان وطبّال ينحني فوق طبلٍ أسطوانيٍّ صغير. جميعهم يرتدون بدلا رسمية. يقفون أمام الكاميرا كما لو أنهم يعزفون لكن الواضح أنهم لم يكونوا كذلك. رُسمت حول رأس كولهاوس دائرة. أصبحت هذه الصورةَ الرسمية. كانت المفارقة في صورة رجل أسود يبتسم بشارب محفوف وملامح مبتهجة وصريحة ألذَّ من قدرة كُتّاب شُروح الصورة على المقاومة. قالوا: ابتسامة قاتل. أو: رئيس الحكومة الأمريكية المؤقتة في أيام سَعْدِه.

تحت ضغط التحريات الصحفية المكثفة والواسعة لم يعدُ ممكنا إخفاءُ دور العائلة في القضية. أخذ المراسلون يطرقون الباب،

فرادى في البدءِ ثم جماعاتٍ لاحقا، ثم بعد أن مُنعوا من الدخول خيّموا في الخارج تحت أشجار القيقب النرويجي. أرادوا أن يروا الطفل الأسمر، أرادوا الحصول على تصريحات من أي نوع حول كولهاوس وزياراته إلى سارة. اختلسوا النظر من نوافذ الردهة واستداروا حول باب المطبخ ليجرّبوا القفل. ارتدوا طواقي من الخوص وحملوا مخداتٍ في جيوبهم. مضغوا تبغا وبصقوه على الأرض وسحقوا بكعوبهم سجائرهم في العشب. ظهرت صورٌ للمنزل في صحف نيويورك. كانت هناك تقارير خاطئة عن رحلات الأب الاستكشافية. أُسدلت الستائر ولم يُسمح للصبي بالخروج. بات البيت خانقا، وفي الليل يئن الجدّ أثناء نومه.

كان في وُسع الأم أن تصمد أمام كل هذا لو لم يدُرْ نقاشٌ حول إيواء العائلة ابنَ كولهاوس ووكر. صعدت مسيرةٌ منتظمةٌ من السيارات الربوةَ في الأمسية الطويلة حيث مدّ المتفرجون أعناقهم بحثا في النافذة عن لمحةٍ لوجهٍ. أبدى موظفٌ من جمعية رعاية الطفل في نيويورك رأيا بأن يسلّم الطفلُ غير الشرعي الذي لم يُعمّد بعدُ إلى واحد من المآوي المتميزة الموجودة لرعاية الأيتام واللقطاء والمولودين خارج العلاقات الزوجية. أبقت الأم على الطفل في غرفتها. لم تعدْ تأخذه إلى الأسفل. كلّفت ولدها بحراسته كلما اضطرت إلى النزول للاعتناء بشيءٍ ما. لم تُضِعْ وقتها في تسريح شعرها بل تركته يتدلى على كتفيها طوال اليوم. كانت قاسيةً تجاه الأب على نحو غير معهود. قالت: لماذا لا تفتح خزانتك وتساعدني. كانت هذه إشارةً إلى تحفّظه الاقتصادي الذي لم تناقشه قط. كانوا يعيشون على الكفاف دائما. أوجعت الملاحظةُ الأبَ لكنه خرجَ وجلبَ امرأةً تطبخ وأخرى تغسّل

وتخدم، ستقيمان كلاهما في المنزل. استخدم الرجلَ الذي كان يعمل بستانيا بدوامٍ جزئيٍ وعيّنه على الغرفِ التي تعلو المَرْأب. كان للجدّ ممرضةٌ مسجلةٌ تقوم على رعايته طوال النهار. اهتاج المنزلُ الآن تحت الحصار مثل معسكرٍ حربيّ. عوتب الصبيُّ باستمرار وأُمر بالابتعاد عن مواطئ أقدام الناس. راقب أمّه تذرع غرفتها شابكةً ذراعيها أمامها، يتدلى شعرُها المُرسل حول صدغيها. كانت هزيلة وبدت ذقنها التي طالما اقتربت من الاستدارةِ منحسرةً بل مدبّبة.

اتضح أن الأزمة تستنزف الروحَ المعنويةَ من حيواتهم. طالما ساور الأبَ شعورٌ سرّيٌّ بأن العائلة تحظى بنورٍ إضافي. لكنه يشعر به الآن يختفي. أدرك غباءه وثقله، لأنه موجودٌ ليؤدي ببساطةٍ ما كانت الظروف ستؤديه نيابة عنه. كان كولهاوس مسيطِرا. على رغم أنه قد سافر إلى القطب الشمالي وإفريقيا والفلبين. سافر غربا. هل يعني ذلك غيرَ أن هناك المزيد من العالم يقاوم ذكاءَه؟ جلس في مكتبه. رأى كل مَن فكر فيهم، بما في ذلك الجد، على ضوء إخفاقه في اهتمامه بهم. لقد عاملَ الجدَّ بالمجاملة المتغطرسة التي يقدمها المرء للمُخرّفين حتى قبل أن يثبت خَرَفُهم. كان منفصلا تماما عن الخال الأصغر. تجاه زوجته شعر بأنه هوى كثيرا في تقديرها، مستكشفا إياها بجسده فقط أما الروح فحبيسةٌ في خسارات أبيه. صار يشبهه أيضا بعد أن جفّ بريقه وروحه في كل شيء، مع وميضِ جنونٍ بادٍ في زاوية عينه. لماذا يجب أن يكون على تلك الحال؟

لام نفسه أكثرَ اللوم على تجاهله ابنه. لم يتحدث قطّ إلى الصبي أو يكون له رفيقا. دائما ما كان يعتمد على حضوره في حياة الصبي باعتباره مثالا يُحتذى. كم من الغرور، كم من الغباء في ذلك

التكتيك لرجل عاش حياته ليميّز نفسَه عن أبيه! بحث عن الصبي فوجده على أرضية غرفته يقرأ تقريرا في جريدة المساء عن الأداء الناجح لفريق نيويورك للبيسبول على يد المدرب البارع جون جيه ماكغرو. قال: هل تريد أن تشاهد ذلك الفريق؟ رفع الصبي بصره جافلا. قال: كنتُ أفكر فيه لتوّي. ذهب الأب إلى غرفة الأم. أعلن: سآخذ الصبي في الغد لمشاهدة مباراة بيسبول. قال هذا بكثيرٍ من العزمِ وسدادِ الرأي جعلها تتوقف عن الرد الذي كان سيصف الرجل بالحماقة. وعندما غادر الغرفة لم تستطع سوى أن تتساءل أنها طالما فكرت فيه على ذلك النحو وقد انعزلت عن أي شعورٍ بالحب.

30

عندما غادر الأب والصبي المنزلَ في المساء التالي لحقهما مراسلان جزءً من الطريق في مشيتهما الرشيقة إلى محطة القطار على طريق كويكر ريدج. أخبرهم الأب: نحن ذاهبان إلى مباراة بيسبول «العمالقة». هذا كل ما سأقوله. سأل أحد المراسلين: من سيرمي الكرة؟ أجاب الصبي: روب ماركارد. لقد كسب آخرَ ثلاث فرص. حالما بلغا كويكر ريدج توقف قطار. كان القطار المتردد بين وست تشستر في نيويورك وبوسطن. لم يذهب إلى أي مكان قريب من بوسطن ولم ينقل الركاب على امتداد طريق نيويورك. لكنه يأخذ رحلة سريعة إلى برونكس ومن شارع 155 استقلا عربة ترام تقطع نهر هارلم غربا إلى ملعب بولو غراوندس في رأس كوغان بلاف.

كان مساء رائقا. تحركت سحبٌ بيضاء كبيرة برشاقة تحت سماءٍ زرقاء صافية. إذ عبرت عربةُ الترام الجسرَ شاهدا على الجرف المطل على المواقف الخشبية عدة أشجار ضخمة، تجردت من أوراقها حتى في هذا الموسم، تظلّ رجالا بقبعات ديربي رفضوا أن يدفعوا رسم الدخول مفضّلين مشاهدة المباراة وهم يزيّنون فروعَ الأشجار كأنهم

أزهارٌ سوداءُ تتأرجح في الريح. أصابت الأب عدوى حماسِ الصبي. كان في غاية السرور لابتعاده عن نيو روتشيل. لما وصلا إلى الملعب كانت الجماهير تنزل من سلالم القطار المعلق. وقفت سيارات الأجرة لتفرغ ركابها، وباع صبيةُ الجرائد نشرات برنامج المباراة، وكانت هناك طاقة صاخبة في كل مكان في الشارع. أطلقت أبواق السيارات. رقّطت سككُ القطار المعلق الشارعَ بضوء الشمس. ابتاع الأب التذاكر الغالية بخمسين سنتا ودفع مبلغا إضافيا ثمنَ المقصورة، فدخلا الملعب وقعدا خلف القاعدة الأولى في أسفل طابقين حيث تضطرهما الشمس إلى تغطية عينيهما لمدة شوط أو شوطين. ارتدى أفراد فريق «العمالقة» زيهم الأبيض الفضفاض المقلّم بالأسود. ارتدى مدرّبهم ماكغرو سترة صوفية ثقيلة فوق بنطلون رياضي طُبع الحرفان NY على كمّه الأيسر. كان قصيرا ومشاكسا. ارتدى مثل فريقه جواربَ بخطوط أفقية عريضة وقلنسوة صغيرة مسطحة بقمّة يعلوها زرّ. كان الفريق المنافس ذلك المساء «محاربي» بوسطن بفانيلاتهم الكحلية المزرّرة إلى الرقبة وياقاتهم المقلوبة. نفخت رياحٌ خفيفةٌ غبارَ الميدان. حالما بدأت المباراة ندم الأب على المقاعد التي اختارها. بإمكان ابنه سماعُ كلّ شتائم اللاعبين المزعجة بوضوح. صاح الفريقُ المُدافعُ بسخرياتٍ فاحشةٍ على رامي الفريق المنافس. وقف ماكغرو نفسه، المثال الأبوي وقائد فريقه، في القاعدة الثالثة مُطلقا العنان لسيلٍ متدفق وإبداعي من النعوت البذيئة التي وجهها للجميع. يسمع كلّ مَن في الملعب نعيقَه الحاد. بدا أن الجمهور يوافقه في مشاعره. كانت النتيجة متقاربة إذ تناوب كل فريقٍ على تحقيق التقدم في المباراة. أسقط لاعب يتسلل راكضا إلى القاعدة الثانية لاعبَ القاعدة الثانية

من فريق «العمالقة» فقام مولولا يعرُج في دوائر وينزف بغزارةٍ من جواربه. أقبل كلا الفريقين من مكانهما وأُوقفت المباراة لبضع دقائق بينما تعارك الجميع وتدحرجوا في التراب وهتف الجمهور مشجّعا. بعد شوط أو شوطين من العراك فَقَدَ ماركارد رامي فريق «العمالقة» السيطرةَ على أعصابه وأصابت الكرةُ التي قذفها ضاربَ فريق بوسطن. نهض الأخيرُ عن الأرض وركض في اتجاه ماركارد ملوّحا بمضربه. من جديد ترك كلُّ فريق مركزه وتصارع اللاعبون مع بعضهم وتبادلوا اللكمات مثيرين في الجوّ سحابا من الغبار. شارك الجمهورُ هذه المرة برمي زجاجات المشروبات الغازية على الميدان. قرأ الأب نشرة المباراة. ضمّ فريق «العمالقة» ميركل ودويل وميرز وسنودغراس وهيرزوغ من بين اللاعبين. تباهى فريقُ بوسطن بلاعب اسمه رابت مارانفل، لاحظ أنه يطوف منطقته منحنيا يمسّ كفّاه اللذان تنتهي بهما ذراعاه الطويلتان العشبَ في هيئة ينبغي أن توصف بأنها قِردية. كان هناك لاعب قاعدة أولى يدعى بوتش شميت وآخرون أسماؤهم كوكريان وموران وهيس وردولف، الأمرَ الذي يقود حتما إلى استنتاجٍ بأن البيسبول المحترفة لعبها مهاجرون. عندما استؤنف اللعب تأمّل الأب كلّ الضاربين: لقد بدا حقا أنهم قادمون من المصانع والمزارع، بملامح خشنة لوّحتها الشموس وآذان كبيرة وأطراف غير متناسقة وخدود منتفخة من مضغ التبغ، كل تفكيرهم مستغرقٌ في جهد اللعبة. ارتدى اللاعبون في الميدان قفازاتٍ جلديةً مفرطة الاتساع جعلتهم يبدون مثل مهرّجين لم يُكملوا ارتداء زيّهم. لُطخ ترابُ ميدان اللعب الجاف بالبصاق. يا حسرةً على حملات مكافحة البصاق من النموذجِ الذي يقدمه هؤلاء الرجال. الصبي الذي يلتقط

المضارب في فريق بوسطن ويستبدلها في منطقة تمركز الفريق يبدو عند تدقيقِ النظر إليه قزما، يرتدي الزيّ مثل باقي الفريق لكنه صغيرٌ بالمقارنة. أطلق صرخاتِه وشتائمَه بصوت نديّ. أغلبُ اللاعبين الذين جاؤوا لضرب الكرة لمسوا رأسَه أولا في إيماءةٍ يبدو أنه يطلبها وأدرك الأبُ أنها نوعٌ من طقسٍ تفاؤلي. لم يكن في فريق «العمالقة» قزمٌ بل رجلٌ نحيلٌ غريبٌ لا يناسبه الزيّ، له عينان خاملتان ولم يصطفّ بشكل جيد، وبدا أنه يُضفي على اللعب تمثيلا كسولا لعزلته، يرمي في أوقات الرمي الحقيقي كراتٍ متخيلةً. كأنه آكلُ تراب. يلوح بذراعيه في دوائر كاملة مثل دوراتِ طواحين الهواء. بدأ الأب يتابع المباراة أقل مما يتابع هذا الكائن البائس الذي لا شكّ أن الفريق اختاره حيوانا أليفا مثلَ قزمِ فريق بوسطن. في أثناء لحظات المباراة المملة يناديه الجمهور ويهتفون لسلوكه الغريب. وبالفعل فقد أُدرج اسمُه في نشرة المباراة باعتباره تعويذة. اسمه تشارلز ڤكتور فاوست. من الواضح أنه أحمق أُبقي على اسمه في لائحة الفريق من باب التسلية بسبب تخيّله نفسَه واحدا من اللاعبين.

تذكر الأبُ البيسبول في هارڤرد قبل عشرين سنةٍ حين كان اللاعبون ينادي بعضُهم بعضا أيها السيد، ويلعبون مبارياتهم بشغفٍ ولكنْ مثل رياضيين، في زيّ محتشم أمام جمهورٍ من طلاب الجامعات نادرا ما تجاوز عددُه مئة متفرج. أقلقه حنينُه إلى الماضي. دائما ما اعتبر نفسَه تقدّميا. آمن بقدرة الجمهورية على تحقيق الكمال. كان يعتقد على سبيل المثال أنه ما من سببٍ يمنع الزنجي من تحمّل عبء الإنجاز البشري إذا ما توفّر له التوجيه المناسب. لم يؤمن بالأرستقراطية إلا في جهد الفرد ورؤيته. أحس بأن لخسارة أبيه

ثروتَه فضلُ حمايته من تبنّي تحيّزاتِ طبقتِه الاجتماعية من دون تفكير. لكن الجو في هذا الملعب الرياضي المفتوح تحت السماء له رائحةُ غرفةٍ خلفيةٍ في صالون. ملأ دخانُ السيغار الإستاد وإذْ أضاءتْه أشعةُ شمسِ الزوالِ أوحى إلى هواءِ الكهفِ الذي جلس فيه محشورا كأنما هو في كونٍ فاسدٍ بريحٍ لاهثةٍ من جوقة تتكوّن من عشرة آلاف حلق تصيح في أذنه بالذمّ والمديح.

انتصبت في منتصف الميدان، خلف مقاعد المدرج غير المسقوفة، لوحةُ عرضٍ كبيرة تعرض النتيجة والأشواط والضربات والركضات. صعد على السقالة رجلٌ وعلّقَ اللوح المرقّم المناسب الذي اختصر الحدث. غاص الأب في مقعده. بينما مر المساء ببطء توهّم أن ما يشاهده ليس مباراة بيسبول ولكن صورة مفصّلة لمشاكله الخاصة التي يعبّر عنها، بسبب فهمه السري، الوضوحُ المشفرُ للأرقام التي ترى من بُعد.

التفت إلى ابنه. قال: ما الذي يعجبك في هذه اللعبة؟ لم يرفع الصبي نظرَه عن الملعب. قال: أن الشيءَ نفسه يحدث مرارا وتكرارا. يرمي الرامي الكرةَ كيما يخدع الضارب مُوهما إياه بأن بإمكانه أن يضربها. قال الأب: لكن أحيانا ينجح الضارب في ضربها. قال الصبي: حينها يكون الرامي هو المخدوع. في هذه اللحظة رمى لاعب بوسطن هاب بيردو رميةً تلقفها ضاربُ نيويورك رِد جاك موراي. حلقت الكرة في السماء في قوسٍ ضيقٍ عالٍ وبدت كأنها تتوقف في مسارها. أدرك الأب جافلا أنها قادمة في اتجاههما مباشرة. نهض الصبي ومدّ يديه فانطلق هتافٌ من خلفهما إذْ وقف تستقر الكرة المغطاة بالجلد بين راحتيه. لوهلة نظر كلُّ مَن في الإستاد في اتجاههما. ثم جاء الأحمق ذو

العينين الخاملتين الذي يتخيّل أنه لاعبٌ إلى السياج أمامهما وحدّق في الصبي، ترتعش يداه وذراعاه في فانيلته الفضفاضة. قبعتُه الغريبة مفرطةُ الصغر بالنظر إلى رأسه الضخم غير الطبيعي. رمى الصبيُّ الكرةَ نحوه فاستقبلها بلطفٍ مع ابتسامة سليمة تقريبا.

الملاحظة المثيرة للاهتمام أن هذا المسكين، تشارلز ڤكتور فاوست، استُدعي فعلا ليرمي الكرة في شوط مباراةٍ قُبيل انتهاء الموسم نفسه، عندما ضمن «العمالقة» الفوزَ بالبطولة وكانوا في مزاجٍ مرتاح. للحظةٍ اختلط توهّمُه بأنه لاعب مهمّ بالواقع. بعد ذلك بوقت قصير أصاب اللاعبين السأمُ منه ولم يعدْ يعتبره المدربُ ماكغرو تعويذةَ فألٍ حسن. صُودر زيُّه واستُغني عنه من دون احتفاءٍ به. حُبس في مستشفى مجانين حيث مات بعد بضعة أشهر.

. 31 .

بانتهاء مباراة البيسبول استولى على الأب قلق كبير. شعر أن من الغباء تركُ زوجته وحيدة. لكن لمّا غادرا الملعب ينقلهما الجمهور المتدفق أدرك أن ابنه أخذ بيده. شعر بمعنوياته ترتفع. في عربة الترام المفتوحة لف ذراعَه حول كتفي الصبي. وعند وصولهما نيو روتشيل مشيا برشاقة من محطة القطار حتى إذا بلغا الباب صاحا مرحبًا! ولأول مرة منذ أيام أحسّ الأب بارتياح. ظهرت الأم من آخر المنزل. كان شعرها مربوطا وكانت أنيقة ومبتسمة ومهندمة. عانقته وقالت: انظر، لديّ ما أُريك إياه. كان وجهها مشعًا. تنحّت قليلا وإذا بطفلٍ سارة في قميص النوم يمشي في القاعة ممسكا بيد الخادمة. تمايل وانقلب على تنورتها ثم عدّل نفسه ونظر إلى الأب مبتهجا. ضحك الجميع. قالت الأم: لا نستطيع أن نمسكه. يريد أن يمشي في كل مكان.

جثا الصبيُّ ومد ذراعيه فهز الطفل يدَه محررا إياها من الخادمة ومال في اتجاهه، مسرعا كلما اقترب ومتغلبا على ترنحه حتى ارتمى بجذلٍ في صدر الصبي.

رانَ عليهم طوالَ المساء شيءٌ من سكون حازم. تناقشت الأم في هدوء غرفتها قُبيل منتصف الليل مع الأب حول كل ما يجول في خاطريهما. من المحتمل أن ينجح كولهاوس لبعض الوقت في تفادي السلطات. في تلك الحالة توقعا أن تتزايد عزلتهم عن المجتمع. قد أبدت بضع نساء من معارف الأم ردة فعل تجاه الشهرة التي سُلّطت على العائلة. خشيت من تصرفاتٍ حاقدةٍ وعنيفةٍ يؤخذ فيها طفل سارة تحت حماية سلطةٍ منتقِمة. لم يُنكر الأب احتمالية وقوع هذا الشيء. لكنهما كانا لحظتئذٍ في سيطرة هادئة على نفسيهما بحيث لم تكن هناك حاجة لتطميناتٍ زائفة أو لأن يتظاهر أي منهما بتفاؤلٍ لا يشعر به حقا. قال الأب إنه لن يسمح للسلطات أن تستخدم الطفل بطريقةٍ ما لإقناع كولهاوس بتسليم نفسه. قال: يجب علينا أن نهرب. قالت الأم: لكن كيف نستطيع الهرب؟ أبي مُقعد والدراسة لم تتوقف بعد ونحن لتوّنا التزمنا بمسؤولياتِ عمّال المنزل. عدّدت كل واحدة من هذه المشاكل بسبابتها اليمنى على أصابع يسراها. اتضح إذن أنها كانت تفكر في الشيء نفسه وأدرك الأب الآن أنها تنتظر بصدقٍ حلولَه. أمرها بأن تترك كل شيء عليه. ولّد التزامُه بالمسؤولية فيها مشاعرَ امتنانٍ دافئة. ولأن محادثتُهما ذكّرتهما بأنهما في النهاية صديقان منذ وقت طويل ذهبا إلى السرير وقضيا الليلة معا. سمحت له بأن يضاجعها مستجيبةً بذلك العناقِ المتبادل وحركات وركيها وبكثير من القبلات المشجّعة التي تمثّل أمنياتِها بأن ينجح في مساعيه، حتى أنه شعر للمرة الأولى منذ عدة شهور أنها تقدّر وجود رجلٍ صالحٍ بين ذراعيها.

وُجد حلٌّ كل شيء في أتلانتك سيتي. حدد الأب فندقا ممتازا

هناك اسمه «ذي بريكرز» يوجد فيه جناح تقابل غرفُه المحيطَ بسعرٍ أقل من المتوقع، خصوصا وأن الموسم على وشك أن يبدأ. شاطئ جنوب جيرسي سهلُ الوصول، بضع ساعاتٍ بالقطار، ليس قريبا جدا ولكن ليس بعيدا إلى الدرجة التي تمنعه من العودة مساء الأحدِ كما تتطلب أشغاله. كما أن تغيير الجوّ سيعود بالنفع على الجميع. أشار عليهم طبيبُ الجد الذي أجرى له آخر عملية جراحة لعظام حوضه المكسور، زارعا وتدا معدنيا مثل صفيحةٍ داخلية، أشار بأن يستخدم عكازاته أو يظل في كرسيه أطول وقت ممكن، إذ تشكّل الراحةُ على السرير أكبرَ الخطرِ على واحدٍ في سنه. سيضطر الصبي إلى ترك المدرسة قبل بضعةِ أسابيع من انتهاءِ الدراسة لكن بما أنه ماهرٌ في دراسته لم تُعتبر هذه مشكلة خطيرة. لن يتطلب إغلاقُ المنزل تغطيةَ الأثاث وإقفال الغرف، بل صيانته من قِبَل الخدم من أجل الأوقات التي يكون فيها الأب في نيو روتشيل. ستذهب مدبّرة المنزل مع الأمّ إلى الشاطئ. كانت امرأة زنجية باردةَ الطبع مخلصةً لما يُمليه عليها ضميرُها، وستقدم بالإضافة إلى خدمتها تفسيرًا واضحا وخاطئا لوجود طفلٍ أسمرَ مع العائلة.

هكذا حضّرت العائلة لمغادرتها متسلحةً بخطّة عملية. هتفوا هتافا كاد أن يستحيل جنونيا بينما تزداد الحالة تعقيدا. جاء قائد الشرطة الجديد، وهو محقّق متقاعد من قسم القتل في مدينة نيويورك، بطرقٍ مشؤومةٍ للتحري. في أول يومٍ له على رأس العمل أخبر المراسلين أن المتفجرات المستخدمة في محطة الإطفاء البلدية رقم 2 متقدمة جدا، عبارة عن مزيجٍ من النترات وفلمينات الزئبق لا يمكن تحضيره إلا من قِبل شخصٍ متمرّس، وهذا ما ليس موجودا

في عازف البيانو كولهاوس ووكر. سأل من أين يحصل الزنجي على مالٍ للسيارة التي يستخدمها أو لمساعدة عصابة الزنوج المدججين بالسلاح الذين يُرجَّح أنهم يعملون معه بدافع المال المنقود. لا بدّ أنه ينقد عصابته. لديه مصاريف. من أين يحصل على ماله؟ أين يقيم في الأوقات التي تفصل ما بين غاراته المجنونة على هذه المدينة اللطيفة؟ لديّ ثلةٌ من الشيوعيين أحبّ أن أحبسهم هنا. أراهن أني سأحصل على إجاباتٍ لبعض أسئلتي.

كان لهذه التعليقات التي نُشرت على نطاقٍ عريضٍ أسوأُ الأثر على أهل المدينة المهتاجين، بسبب ما فيها من إشارةٍ إلى مؤامرة. مشّطت الميليشيا الشوارع. سُجّلت حالاتٌ عدةٌ من سوء المعاملة لزنوج شوهدوا خارج أحيائهم. كانت هناك موجة من الإنذارات الخاطئة من سخّانات المياه في المدينة، يتسبب كلٌّ منها في إخراج معداتِ إطفاءٍ مع حرسٍ من الشرطة وموكبٍ من سيارات الصحفيين. انتشر المراسلون في كل مكان وزرعوا، جنبا إلى جنب مع الشرطة المرئيين بوضوح على أحصنتهم وفي عرباتهم، في المجتمع إحساسا بنفسه منتفخا ومؤلما. لم تعهد الكنائسُ في صباحات الآحاد مثل هذه الحشود قط. نقل جناح الطوارئ في المستشفى تقريرا عن ارتفاع عدد ضحايا الحوادث المنزلية. كان الناس يُحرقون أنفسهم ويجرحون أنفسهم ويتعثرون بالسجاجيد ويسقطون من السلالم. نُقل عدة رجال إلى المستشفى بإصاباتٍ من جرّاء تنظيف الأسلحة القديمة وحملها.

في هذه الأثناء اتضح أن الصحافةَ تتفوق على السلطات في التعامل مع تفاصيل رسائل كولهاوس. ربما من أجل الصور التي يمكن الخروج بها، ناقشت كثيرٌ من الصحف على مدى أيام فكرةَ انتشالِ

سيارة الفورد موديل تي من بِركة محطة الإطفاء. أخيرا حدث هذا الشيء. أُخذت رافعةٌ إلى الموقع وأُخرجت السيارة مثل شيء مشوّه، يقطر الطين من عجلاتها ويسيل الماء والوحل من مقدمتها. أُميلت إلى الضفة ثم أُلقي بها على الأرض لكي يراها الجميع.

ولكن السلطات وقعت الآن في حَرج. جسّدت الفورد برهانا ملموسا على مَظلَمة الرجل الأسود. ضايقت صورتها وهي محطمةٌ ومغمورةٌ بالمياه حساسيةَ كل مَن كان يحترم الآلات ويقدّر إمكاناتها. بعد نشر صورتها أخذ الناس يتوافدون جماعاتٍ لرؤيتها حتى أن الشرطة طوقّت المنطقة بشريط. وإذ أحسّ عمدةُ المدينة وأعضاءُ المجلس البلدي أنهم فُضحوا أصدروا سلسلةً جديدةً من البيانات تُدين الرجل الأسمر المجنون وترفض التفاوض معه بأي شكل على الإطلاق، والتقدم إليه بما هو أدنى من طلبٍ لا يقبل الصفحَ بتسليمِ نفسه، سيكون مدعاة لأن يُهين كلُّ مارقٍ وراديكاليٍّ وأسودَ القانونَ ويبصُق على العَلَم الأمريكي.

حتى ولو كان في هذه اللحظة مطالبةٌ شعبيةٌ لاستراتيجية تفاوض، الأمر الذي لم يحصل -لم تطلبه حتى الصحافة- فإن كيفيةَ التواصل مع القاتل يجهلها الجميع. لم يُعلن كولهاوس الوقتَ الذي منحهم إياه قبل تنفيذ الهجوم التالي. بالتأكيد كان هناك رأيٌ تقدم به طبيبُ أمراضٍ عقلية استأجرتْه صحيفةُ «وورلد» يقضي بأن الرسالة الثانية، الموقّعة باسم كولهاوس ووكر رئيس الحكومة الأمريكية المؤقتة، كانت متقدمة جدا عن سابقتها من حيث إشارتها إلى تدهورٍ عقلي، وأن التعامل مع شخصٍ بنوبات جنونٍ توهميةٍ تقدميةٍ على أساس منطقي لهو خطأ فادح.

على أية حالٍ تُرك أمرُ الإتيان بفكرةٍ عمليةٍ للتعامل مع المشكلة لمواطني نيو روتشيل العاديين. ارتفعت مطالبُ من كل حيٍّ وكل طبقةٍ اجتماعيةٍ بأن يهجر ويلي كونكلن المدينة. بل إن بعض المواطنين الغاضبين تواصلوا مع كونكلن نفسه. أحضر الرجلُ إلى قسم الشرطة مجموعةً من الرسائل غير الموقّعة وصلت عبر البريد، كلّها تقول إنه لئِنْ لمْ يلمّ أغراضَه ويغادر نيو روتشيل فسيقومون، أي الكتّاب، بمهمّة كولهاوس ووكر نيابةً عنه. كان إطلاعُ كونكلن السلطاتِ على أمر الرسائل خطأً مثل كل تصرفاته. لم تدفعهم إلى التعاطف معه كما كان يرجو، بل أقنعتهم ببساطة أن يُساندوا الفكرة. منذ البداية لم يستوعب كونكلن أنه يُمكن لأي شخص أبيضَ أن يشعر تجاهه بأقلّ من الإعجاب العميق. كلما انحدرت شعبيته ازدادت حيرتُه بؤسا. لم يفهم الرجل البائس شيئا ولم يفهم الغضب الشعبي المُطالِب بنفيِه، لا باعتباره وسيلةً لنزع فتيل الوضع على المستوى الاستراتيجي الأوسع، ولا باعتباره وسيلةً لحفظ حياته على المستوى الضيق. شعر بأنه ضُحّي به من قِبل مَن أسماهم محبي الزنوج، حتى وإن بدا هؤلاء الآن يشكّلون فعليا كامل سكان المدينة. ثمل حتى أصابته حالةٌ من الفتور وأصبح كيّسا بشكل مغفّل بينما قامت زوجته ومعاونوه بترتيبات مغادرته.

هكذا، حين غلب التوتر والشكّ على الجميع في ضعفهم المستمر أمام حرب عصابات السود، بما فيهم السلطات البلدية والشرطة وميليشيا الولاية والمواطنون، ولم يعد أحد يسيطر كليّا على دفة الأمور، حدث من جرّاء الإجماع الشعبي شيئان يماثلان تقريبا الاعترافَ بمطالب كولهاوس: انتشلت سيارة الفورد موديل تي، الأمر

الذي قد ينبئ بنوع من التفاوض، وغادرت عائلة كونكلن للاختباء في مدينة نيويورك، الخبرَ الذي بإمكان كولهاوس أن يقرأه إنْ كانت تصله جريدتا نيو روتشيل اللتان سخّرتا أكبر العناوين الرئيسية في تاريخها للمخابرات. لم تُقدَّم تنازلاتٌ وامتلأت الشوارعُ بالجنود العسكريين وشبه العسكريين. لكن الوضع تغيّر. قال أحد المقالات الصحفية: ليحرق الآن مدينة نيويورك بأكملها. أو يتقبّل المبدأ الذي يقضي بأن أيّ رجل يقتصّ لنفسه بنفسه سيضع نفسَه في مواجهة شعبٍ متحضّرٍ وحازمٍ وسيشوّه سمعة القانون الذي يريد هو تطبيقه.

على عكس كل هذا الجدل كانت مغادرة العائلة سرية وغير معلنة. تعاقد الأب مع ريلواي إكسبرس لنقل العفش -صندوقين كبيرين من الخوص اشتراهما الأب للمناسبة، لكل منهما عدة أدراج ومقصورات وخزانة رحبة لتعليق الملابس، وخزنة أرضية مرصعة بالنحاس وعدة حقائب وصناديق قبعات- أما هم فانطلقوا من نيو روتشيل على قطارٍ وصل مع بزوغ الفجر. لاحقا في ذلك الصباح في نيويورك انتقلوا إلى قطار أتلانتك سيتي في محطة بنسلڤينيا. كانت هذه المحطةَ التي صممها ستانفورد وايت وتشارلز ماكيم. احتلّت واجهاتها بصفّ الأعمدة، المصممة على غرار الحمّامات الرومانية في كاراكلا، من الشارع 31 إلى الشارع 33 في طولها، ومن الجادة السابعة إلى الثامنة في عرضها. ساعد الحمّالون في دفع كرسي الجدّ المتحرك. ارتدت الأم طاقما أبيض. حملت مدبّرة المنزل طفلَ سارة. كانت المحطة من الداخل فسيحةً لدرجة أن أصوات الناس الذي كانوا يملؤونها لم تكن سوى همهمةٍ على رغم كثرتهم. حدق الصبي في السقف الذي كان عبارة عن معرضٍ من القناطر والأقواس

الزجاجية الخضراء المموّجة تدعمها ضلوعٌ حديديةٌ وأعمدةٌ فولاذيةٌ دقيقة. سقط الضوء من خلال هذا السقف مثل غبارٍ بلوريٍّ ناعم. إذ نزل ببصره إلى مَجْمَع القطارات نظر يمنةً ويسرةً فرأى قاطرات على مدّ البصر في كلا الاتجاهين تقف منتظرةً في ضجيجٍ من البخار والصيحات والأجراس أن تنطلق في دروبها.

32

وماذا عن الخال الأصغر؟ لم يسبّب غيابُه عن المنزل منذ دفاعه العاطفي عن كولهاوس قلقا غير ضروري. كانت العائلة معتادة على مزاجه النكد. ظهر بشكل متقطع في مصنع الأعلام والألعاب النارية. سحب راتبَه. لم يكن موجودا عند مغادرتهم فتركت الأم على طاولةِ الصالةِ الأماميةِ ملاحظةً في مظروف مغلف. لم تُقرأ تلك الملاحظة أبدا.

بعد بضعة أيامٍ من هجوم محطة الإطفاء عاد الخال الأصغر إلى دار تجهيز الموتى الذي جُهزت فيه جنازة سارة في هارلم. قابله عند الباب مالكُ الدار. قال الخال الأصغر: ينبغي أن أحادث السيد كولهاوس ووكر. سأنتظر كل مساء تحت رواقِ كازينو مانهاتن حتى يطمئن لاستقبالي. استمع متعهدُ الدفن بلا مبالاة ولم يُبد أدنى إشارةٍ بمعرفته عمّ يتحدث الخال الأصغر. مع ذلك دأب الرجل الشاب على الوقوف كل مساء منذ ذلك اليوم لدى الكازينو محتملا نظراتِ العمّال السود ومؤقّتا الفتراتِ التي تفصل بين عربات قطار الجادة الثامنة المعلّق الذي يرعد بين الفينة والأخرى وهو يتجاوز المبنى. كان

الطقس دافئا وكان في وسعه سماع نغمات موسيقى جيم يوروب المنبورة وتصفيق الجمهور من خلال أبواب المسرح الزجاجية المنمّقة التي كانت تُفتح بُعيْد انطلاق حفلة المساء. بالطبع ترك كولهاوس وظيفته في الأوركسترا وانتقل من بيته قبل هجومه على محطة الإطفاء بأسابيع. وبالنسبة لأفراد الشرطة الذين حاولوا تتبّعه فقد كان الأمر كما لو أنه لم يُخلق قط.

في الليلة الرابعة من مناوبة الخال الأصغر اقترب منه شابٌّ أسمر مهندم وتسولّه عشر سنتات. أخفى دهشته من أن يطلب أحدٌ في هندامه عملة نقدية معدنية وبحث في جيبه حتى أخرجها. ابتسم الشاب وقال إنه يملك فيما يبدو نقودا أكثرَ فهل يستطيع أن يدفع ربع دولار إضافيا؟ نظر الخال الأصغر في عينيه فرأى فيهما التقديرَ الفطِن لشخصٍ قادر على اتخاذ قرار.

في الليلة التي تليها بحث عن الشاب الأسمر فلم يره. عوضا عنه تنبّه إلى شخصٍ آخر وقف تحت الرواق بعد أن ولج الجمهور المسرح. هو أيضا شاب في بدلة وربطة عنق ويعتمر قبعة ديربي على رأسه. فجأة مشى مبتعدا فتبعه الخال الأصغر تلقائيا. تبعه عبرَ شوارع من صفوف منازل رثة وعلى تقاطعاتٍ مرصوفة بالقرميد وعبر أزقةٍ وحول زوايا. فطِنَ إلى سلوك بعض الشوارع عينها أكثر من مرة. أخيرا تبعه على شارع جانبي هادئ إلى الدرجات الأمامية لمبنى من الطوب البنيّ ثم إلى باب قبو. كان الباب مفتوحا. خطا إلى الداخل وعَبَرَ صالة صغيرة إلى باب آخر فوجد نفسه أمام كولهاوس الذي كان جالسا إلى طاولة وذراعاه معقودتان. ما عدا الطاولة كانت الغرفة خالية من الأثاث. يقف إلى جواره مجموعةٌ من الشبان السمر مثل حرسٍ، يرتدون

جميعا ملابس على غرار الأناقة المميزة التي عُرف بها كولهاوس، ببدل أنيقة وياقات نظيفة وربطات عنق ومشابك لتثبيت الربطات. ميّز الخال الأصغر كلا الشابّين، الشاب الذي تبعه وذاك الذي تسوّله النقود ليلة البارحة. أُغلق البابُ من ورائه. قال كولهاوس: ما الذي تريد؟ كان الخال الأصغر قد أعدّ نفسه لهذا السؤال. كان قد ألّف كلاما يتقّد عاطفة عن العدل والحضارة وحقّ كلّ إنسانٍ في حياة كريمة. لم يتذكر شيئا من هذا. قال: أستطيع أن أصنع قنابل. أعرف كيف أفجّر الأشياء.

بهذا بدأ الخال الأصغر وظيفته ثوريّا وخارجا عن القانون. لم تكن العائلة على علمٍ بهذا مدّة من الوقت. كان شيءٌ واحد فقط يربطه ظرفيا بالرجل الأسود، ألا وهو اختفاءُ عدة كيلوجرامات من البارود ورزمٍ من المواد الكيمائية المسحوقة المتنوعة من مستودع مصنع الأب. أُبلغت الشرطةُ بالاختلاس في حينها ونُسيت الحادثة من حينها. كانت الشرطة مشغولة بقضية كولهاوس. نقل الخالُ الأصغرُ على مدى أيامٍ الموادَّ إلى شقة القبوِ في هارلم. ثم باشر العمل وصنع ثلاث حزمٍ من القنابل القوية. حلق شاربه الأشقر وشعر رأسه. سوّد وجهه ويديه باستخدام الفلين المحروق ورسم خطوطا تعرّض شفتيه واعتمر قبعة ديربي وقلّب عينيه. معبّرا بهذه الطريقة عن إخلاصه للشبان الآخرين من أتباع كولهاوس بمحاكاة حسّهم الساخر، خرج معهم وقذف القنابل في مبنى محطة الإطفاء البلدية رقم 2 مُثبِتا نفسَه للجميع بما فيهم هو نفسه.

نستمدّ معرفتنا بهذا التاريخ السري من خطّ يد الخال الأصغر نفسه. احتفظ بمذكرات منذ يومِ وصوله إلى هارلم إلى يومِ موته

في المكسيك بعد ما ينيف على السنةِ بقليل. أضفى كولهاوس ووكر صبغةً عسكريةً على فجيعته. تشكّل حزنُه على سارة والحياة التي كان يمكن أن يعيشاها في ثوبِ طقسٍ ثأرٍ على طريقة المحاربين القدامى. تولّد لدى الخال الأصغر انطباعٌ بأن عيني كولهاوس بنظراتهما المميزة ذات العزم الذي لا ينثني كانتا تنظران إلى ما هو أبعد مما رأى في القبر. كان ولاءُ الشبان لسلطته مطلقا ولعل هذا بسبب أنه لم يطلب ذلك الولاء. لم يكن أي منهم مرتزقا. كانوا خمسة بالإضافة إلى الخال الأصغر، أكبرهم في العشرينات وأصغرهم لم يبلغ الثامنة عشرة بعد. دنا احترامُهم لكولهاوس من التبجيل. عاشوا معا في قبو مبنى القرميد البني يجمعون أجورهم مثل كاتبي الأوراق المالية وصبية التوصيل. أضاف الخال الأصغر عدة مظاريفِ رواتبٍ كريمةٍ نسبيا من مصنع الأعلام والألعاب النارية قبل أن يهجر نيو روتشيل إلى الأبد. كان ضبطُ حساباتِ الخزينةِ المشتركةِ دقيقا. كل هللة حُسبت. قلّدوا ملابس كولهاوس فأصبحت البِدل وقبعات الديربي السوداء مثل الزيّ الرسمي. كانوا يجيئون من الغرف ويذهبون وكأنهم جنودٌ في مناوبة.

ليلا كانوا يجلسون ساعاتٍ يناقشون وضعهم وما يمكن أن يقود إليه، ويتداولون ردودَ فعل الصحافة على أفعالهم التي قاموا بها.

لم يكن كولهاوس قاسيا ولا مستبدّا. كان يعامل أتباعه بلطف وكان يستشيرهم فيما يجب أن يفعل. تعامل معهم منطلِقا من حزنه الدائم. أثّر عليهم غيظُه المكظوم مثلما تفعل قوةٌ مغناطيسية. لم يكن يريد موسيقى في شقة القبو. لا آلةَ من أي نوع. اتّبعوا تعليماته كلها. أحضروا مجموعةً من الأسرّة الأرضية وأقاموا ثكنة. تشاركوا

مهامّ المطبخ وأعمال تنظيف المنزل. كان لديهم إيمانٌ بأنهم سيموتون على نحوٍ مذهل. ولّد فيهم هذا الإيمانُ وعيا بالذات دراميّا وجليلا. اندمج الخال الأصغر تماما في جماعتهم. كان واحدا منهم. كان يستيقظ كل صباح في حالة من البهجة المُهيبة.

في غارَتَيْ كولهاوس كلتيهما استخدم سياراتٍ سرقها له الشبانُ من مانهاتن. أُعيدت السيارات من دون أدنى تلفٍ إلى مرائبها، ولو بُلغت شرطة نيويورك بظاهرةِ اختفائها وإعادتها فلم تُربط الحالاتُ أبدا بأحداث وست تشستر. لمّا نُشرت صورة كولهاوس على الصفحة الأولى من كل صحف البلاد بعد تفجير محطة الإطفاء البلدية، وضع خرقة على كتفه وسمح لأحد الشبان بأن يحلق شعرَ رأسه وشاربه المحفوف. كان التغيير مدهشا. بدا رأسُه المحلوق ضخما. فهم الخال الأصغر أنه أيّا تكن مبرراته الشخصية فإنه ليس إلا تحضيرا طقسيّا للمعركة الأخيرة. بعد يوم أو يومين أحضر أحدُهم صحيفةً بصورةِ سيارةِ الفورد موديل تي منتَشَلة من البِركة. هذا الدليل المحسوس لقوة إرادة كولهاوس جعلهم يشعرون جميعا بالقدسية. وحين استقبلوا نبأ نفيٍ ويلي كونكلن وجلسوا يتناقشون ردة الفعل المناسبة، كانوا قد تحولوا إلى درجةِ أنهم أصبحوا يتحدثون عن أنفسهم بصيغة الجمع على أنهم كولهاوس. قال أحدهم: لو ذهب كولهاوس إلى مصنع الثلج والفحم ذاك لكان ويلي الآن ميتا. فاتت علينا الفرصة. قال آخر: لا يا أخي، من الأفضل أن يبقى حيّا بالنسبة لنا. فهو يُبقي كولهاوس في أذهان الناس. إنه طاعون. سنقوم الآن بشيء فظيع في هذه المدينة، ولن يسخر أحدٌ من رجلٍ أسمر أبدا خشيةَ أنه ينتمي إلى كولهاوس.

33

يا لـه من صيف! تشرّع الأم كلَّ صباحٍ أبوابَ غرفتها الزجاجية ذات الستائر البيضاء وتقف تنظر إلى الشمس وهي تشرق فوق البحر. تطير النوارس فوق الأمواج المتكسرة وتمشي مختالةً على الشاطئ. تمحو الشمس المرتفعة الظلالَ من الرمل وكأن الأرض المجسّمة نفسها تتحول وتتسطّح، وفي الوقت الذي تسمع فيه حركةَ الأب في الغرفة المجاورة تكون السماء قد ازرقّت وابيضّ الشاطئ وظهر أولُ السابحين على الموج لاختبار الماء بأصابع أقدامهم.

يفطرون في الفندق على طاولات مغطاة بقماش أبيض منشّى. أواني الفندق فضية ثقيلة. على العشاء يأكلون ثمار غريب فروت وبيضا مسلوقًا وخبزا ساخنا وسمكا مشويا وشرائح لحم خنزير ونقانق وتشكيلة من المربّى توزّع بملاعق صغيرة وقهوة وشاي. كلّ هذا والنسيم القادم من المحيط يرفع أطرافَ ستائرِ النوافذِ ويهزّ ارتعاشها على امتداد السقف العالي المخدّد. كان الصبي دائما متحمسا للاستيقاظ والخروج. بعد الأيام القليلة الأولى صاروا يسمحون له بأن يستأذن ويراقبونه من طاولتهم عندما يظهر بعد لحظات نازلا درجات الشرفة

العريضة يحمل حذاءه في يده. كانوا يحيّون العديد من نزلاء الفندق بإيماءة. سوف يُفضي هذا لاحقا إلى الكلام ثم سيُشبَع الفضولُ اللطيف الذي تثيره نظرةُ هذا أو ملابسُ ذاك. لم يكونوا مستعجلين. شعروا بأنهم يبدون أثرياء وأجلّاء. ابتاعت الأمُّ ملابس صيفية جميلة من محلات الشاطئ. ارتدت ملابس بيضاء وصفراء وفي عفوية المساء تتخلى عن القبعة ولا تحمل معها سوى مظلة الوقاية من الشمس. يستحمّ وجهها في ضوء ذهبي ناعم.

حين يهدأ الهواء وتشتد الحرارة في أول المساء يسبحون. كانت بدلة استحمام الأم محتشمة لكنها احتاجت إلى عدة أيام كيما تشعر بالراحة فيها. كانت سوداء بالطبع، تنورة وبنطلون انحسر عند ركبتيها وحذاء سباحة قصير. لكن ربلتي ساقيها كانتا مكشوفتين وكذلك رقبتها إلى الخصر تقريبا. أصرّت على أن يبتعدوا مسافةَ مئات الياردات عن أقرب المستحمّين. نزلوا تحت مظلّة فندق طُبع اسمه باللون البرتقالي على هدبها المزخرف. جلست الزنجية على كرسيٍّ من القش على بُعد بضع ياردات. أخذ الصبي والطفل الأسمر يتفحصان السرطانات الصغيرة التي كانت تدفن أنفسها في الرمل المبلل تاركة أثرا من فقاقيع. ارتدى الأب بدلة من قطعة واحدة زرقاء بخطوط أفقية عريضة بيضاء بلا أكمام، جعلت فخذيه يبدوان مثل أسطوانتين. كرهت الأم رؤيةَ حدود ذكورتِه في ذلك اللبس لمّا خرج من الماء. كان الأب يحبّ أن يسبح. استلقى على ظهره وراء الأمواج المتكسرة ينثر من فمه الماءَ كأنه حوت. جاء متمايلا عبر الأمواج وضاحكا، يلتصق شعره برأسه وتقطر لحيته ويلتصق لبسه بجسده بشكلٍ غير محتشم. وشعرت لوهلةٍ بوخزاتِ كرهٍ لم تتبيّنها من سرعة عبورها. بعد الاستحمام في

البحر عمد الجميع إلى الراحة. كانت تخلع ملابسها بارتياح، إذ لم تعرّضها للبلل سوى بضع لحظات في الموج المزيد، وتمسح الملح عن جسدها. كانت بشرتها فاتحة جدا بحيث يشكل الشاطئ خطورة عليها. مع ذلك لمّا تبرد بسبب وضوئها وتضع مسحوقا وتلبس رداءً فضفاضا فإنها تستطيع أن تشعر بالشمس مخزنة في داخلها، تنتشر في دمها وتُشعله بملايين ومضاتِ الضوءِ الماسيةِ كما فعلتْ بالبحر ظُهرا. سرعان ما أسس الأبُ للوقت الذي يتلو السباحة باعتباره وقت المضاجعة. كان سيمارس حبه الشهواني الطائش معها كل يومٍ إمّا سمحتْ له. امتعضت بصمتٍ من الإيلاج، ليس كما في سالف الأيام ولكن بوعيٍ منها، نوع من التوقع تتوقعه منها البَشرة التي تهتزّ. فكّرت كثيرا في الأب. الأحداث التي تلت عودته من القطب الشمالي، ردة فعله تجاهها، حطّمت إيمانها به. الجدل الذي جادل به أخاها ما فتئ يتردد في ذهنها. مع ذلك تحبه أحيانا لمدة أيامٍ كما أحبّته من قبل، مع إحساسٍ بمناسبة زواجهما، بمناسبة طبيعته المستقرة الثابتة كأنما هو شيء مقدس. طالما استشعرت مستقبلا مختلفا لكل منهما، كما لو أن الحياة التي عاشاها نوع من التمهيد له، مستقبلا يرفع فيه مُصنّعُ الأعلامِ والألعابِ النارية وزوجتُه نفسيهما من وجودهما المحترم ويكتشفان حياة عبقرية. لم تعرف مِمّ يتألف ذلك المستقبل، لم تعرف قط. لكنها الآن لم تعد تنتظره. عندما كانت تتخذ قرارات معينة متعلقة بالعمل في أثناء غيابه تبدّدت كل رجوليته الغامضة، ورأتها على طبيعتها شيئا مُملّا ويفتقر إلى الخيال. ولأنها لم تعد تتوقع أن تكون جميلةً منعَّمةً إلى آخر أيامها توصّلت إلى إدراكٍ أنه بينما كان الأب يجسّد من خلال تودّده الاحتمالاتِ اللانهائيةَ للحبّ فإنه الآن

قد كبر وتبلّد وحَمُق، ربما بسبب رحلاته وعمله، بحيث أمسى يُثبت أكثر فأكثر حدودَ إمكاناتِه، يُثبت أنه بلغها وأنه لن يتجاوزها أبدا.

مع ذلك كانت سعيدةً في أتلانتك سيتي. فهنا طفلُ سارة آمنٌ. لأول مرة تفكر في سارة منذ وفاتها ولا تبكي. كانت تستمتع بأن تُرى في الأماكن العامة، كأنْ في صالة الطعام في الفندق أو على الشرفة في المساء أو حين تمشي على الممشى البحري في اتجاه الصّوايين والأرصفة البحرية والمتاجر. أحيانا تكتري كرسيّا تجلس فيه هي والأب جنبا إلى جنب يدفعُهما حمّالٌ ببطء. يتفرّسان بكسلٍ في راكبي الكراسي الأخرى القادمة من الاتجاه المعاكس، أو يختلسان النظر إلى أولئك الذين يتجاوزونهم. مسّ الأب قبعته الخوصيّة. كانت الكراسي من الخوص أيضا ولظُهورها قماشٌ مهدّبٌ يذكّرها بالعربات ثنائية المقاعد في طفولتها. كانت عجلتا الكرسي الجانبيتان كبيرتين، كما في درّاجات السلامة، بينما العجلة الأمامية الوحيدة تدور وتصرّ أحيانا. يحبّ ابنها هذه الكراسي. يمكن استئجارها أيضا من دون الحمّال، وهذا ما حبّبه فيها كثيرا لأنه حينها يدفع الكرسي بينما يجلس والداهُ عليه ويوجّهه كيفما أراد، بالسرعة التي يريد، من دون أن يشعرا بحاجةٍ إلى توجيه الصبي. كانت الفنادق الفخمة تقف خلف الممشى، أحدهما لصقَ الأخر، تخفق مظلّاتها في ريح البحر، تصطفّ على شرفاتها المدهونة بعنايةٍ كراسي هزازةٌ وأرائكُ من الخوص بيضاء. ترفرف بيارقُ بحريةٌ من القِباب وفي الليل تُضيئها صفوفٌ من المصابيح الساطعة نُظِمت على امتداد خطوط سقف كل فندق.

توقفت العائلة ذات ليلةٍ عند صيوانٍ فيه فرقةٌ موسيقيةٌ من الزنوج تعزف بشجاعةٍ أغنيةً من أغاني الراغ. تذكّرتْ، رغم

أنها لم تستطع تمييزها، أنها انطلقت من آلة البيانو في منزلها تحت يَدَي السيد كولهاوس ووكر البارعتين. عاشت أياما، ليس في غفلةٍ عن المأساة بل في راحةٍ منها، وكأن النسائم المنتشرة في هذا المنتجع البحري تكنس الأفكارَ المؤلمةَ حالَ تشكُّلها. الآن تكاد تسيطر عليها الموسيقى التي ارتبطت في ذهنها بأخيها الأصغر أيضا. وحالًا كسرها حبُّها لأخيها في موجةٍ من التعجُّب المتّقد. شعرت بأنها أهملتْه. برقت في ذهنها صورةٌ لشخصِه النحيلِ المزاجيِّ المتهور، صورةٌ توبّخها بعض الشيء وتشمئز منها بعض الشيء. كانت تلك الطريقة التي نظر بها إليها من فوق طاولة الطعام في المنزل لمّا كان الأب ينظف مسدسه. شعرت بدُوار خفيف، وإذْ نظرت إلى أضواء الصيوان حيث يجلس الموسيقيون الذين لا يُقهرون في ملابس حمراء وزرقاء بالأبواق وآلات التوبا والساكسفونات، خُيّل إليها أنها رأتْ تحت كل قبعةٍ من قبعاتهم العسكرية وجهَ كولهاوس المُهيب.

عقب ذلك المساء بَهُتَ فرحُ الأم بالشاطئ. كان عليها أن تركّز على كل يوم يجيء. حاولت في قرارٍ حازمٍ أن تجعل كل يوم ساكنا. أغدقت حنانها على ابنها وزوجها وأبيها المقعد، أغدقت حنانها على زنجيتِها، وأكثر من ذلك طفل سارة الجميل الذي لم يعمّد بعدُ والذي ينمو هنا ويكبر بشكل ملاحَظ. بدأت تتنبه للاهتمام الذي أخذ يُبديه بها عديدٌ من نزلاءِ الفندق. طافوا على حدود وعيِها في انتظار اعترافٍ منها. وبقليل من الجهد كانت مستعدة الآن لأنْ تمنحهم ذلك الاعتراف. كان هناك عدة أوروبيين مثيرين للاهتمام في الفندق. أحدهم ملحقٌ عسكريٌّ ألماني في سفارة بلده يرتدي نظارةً بعينٍ واحدةٍ ويحيّيها دائما بكياسةٍ متحفّظة. كان طويلا بشعر قصير يثير الإعجاب وكان يجيء

إلى العشاء في زيّه الرسمي الأبيض وربطة عنقٍ قوسٍ سوداء. يتباهى وهو يطلب أصنافَ النبيذ ثم يرفضها. لم يكن في مجموعته نساء بل ثلاثة أو أربعة رجال، غِلاظ بعض الشيء، أقل منه رتبة فيما يبدو. قال الأب إن رتبته «كابتن فون بابن» وإنه مهندس. شاهداه كل يوم يمشي على الشاطئ وينشر خرائطَ ويشير إلى البحر ويحادث معاونيه. عادةً ما تكون في هذا الوقت طائرة صغيرة تعبر الأفق بتؤدة. قال الأب مستلقيا على رمل الشاطئ ووجهه في اتجاه الشمس: نوع من طائرات المسح الهندسي. لا أستطيع أن أفهم السبب الذي يجعل ساحل جيرسي الجنوبي يثير اهتمامَ الألمان. كان الأب غافلا عن اهتمام الرجل التأملي بزوجته. الأمُّ راقَ لها هذا الشيء. عرفت من أول نظرةٍ طائشةٍ وجّهتها للضابط أنه قدّم لها أكثر النوايا شهوانية متركزة في غطرسة نظارته ذات العين الواحدة. قررت أن تتجاهله.

كان هناك زوجان فرنسيان كهلان تعلّمت أن تتبادل معهما المزاح. هي ضحكت لتتذكر فرنسيّتَها أيام المدرسة وهما أثنيا بسخاءٍ على لكنتِها. لا يظهران في الشمس أبدا إلا وهما ملفوفان في رقاعٍ لا نهائيةٍ من الكتان والشاش ويرتديان قبعتي خوص عريضتين. فوق هذا كله يحملان مظلات شمسية. الرجلُ أقصر من زوجته وأسمن، ووجهه مبقعٌ بالنمش. يرتدي نظارة سميكة. لديه شحمتا أذن ضخمتان متدليتان. يحمل شبكة فَراشٍ وجرةً بسدادة فلّين، أما هي فتحمل سلةً لا تستطيع من ثِقلها أن تمشي باستقامة. تشقّ بجهدٍ كل صباحٍ طريقها خلفه على الكثبان فيختفيان في السديم حيث لا فنادق ولا ممشى، ولكن النوارس وطيور الطِّيطَوى وأعشاب الكثبان، حيث الأجنحة المرتعشة التي يشتهيها. كان أستاذَ تاريخٍ متقاعدا من جامعة ليون.

حاولت الأم أن تثير اهتمامَ الجدّ بالزوجين الفرنسيين على أساس خلفيتهما الأكاديمية. لم يكن الرجل العجوز مهتمّا البتة. كان مستغرقا تمامَ الاستغراق في حالته ويمنعه فرطُ انفعالِه من الاشتراك في نقاش متحضّر. رفض كل التسليات التي فكرت فيها من أجله- ما عدا واحدة، رحلة يومية على كرسي في الممشى بحيث يمكنه الجلوس ويُدفع من دون أن يفطن أحدٌ لعجزه. لكنه يحمل في حضنه عكّازا كلّما تلكأ المشاةُ في الحركة رفع العكّازَ وهمزهم به، النساء والرجال على السواء، فكانوا يلتفتون ويحدقون غاضبين بينما يتجاوزهم.

بالطبع كان هناك نزلاء آخرون من غير الأوروبيين: سمسار بورصة عملاق من نيويورك ومعه زوجة كبيرة وثلاثة أطفال ضخام لم ينطقوا كلمةً واحدةً وهم يأكلون، وبضع مجموعات عائلية من فيلادلفيا يمكن تمييزهم فورًا بسبب الغُنّة في كلامهم. لكن الأم وجدت أن الأشخاص الذين يثيرون اهتمامها كانوا دائما أجانب. لم يوجد عددٌ كبيرٌ منهم ولكنهم يشعّون حياةً أكثر من مواطني بلادها. أكثرهم سحرا رجلٌ رشيقٌ صغيرٌ يرتدي سروالا جُودبوريّا وقميصا حريريا أبيض مفتوحا من عند الرقبة وقبعة مسطّحة من الكتان الأبيض في قمّتها زر. شخص فرحٌ لامعٌ يُطلق سهامَ نظراتِه في كل مكان، مثل طفل، خشيةَ أن يفوته شيء. يحمل في سلسلةٍ حول رقبته زجاجةً مستطيلةً في إطار حديدي يرفعها باستمرار إلى وجهه كما لو أنه يؤلف صورةً ذهنيةً مما استرعى انتباهه. في صباحٍ غائمٍ على شرفة الفندق كانت الأمُّ تلك الصورة. لما كُشف في غمرةِ فعلتِه جاءَها يعتذر اعتذارا مُسرفا بلكنةٍ أجنبيةٍ ثقيلة. قال إنه البارون أشكنازي. كان يعمل في قطاع الصور المتحركة وما المستطيل الزجاجي إلا أداة مهنيّة لا يكفّ

عن استخدامها حتى في الإجازات. ضحك ضحكة خجلى ففتَنَ الأم. كان له شعر أسود لامع ويدان مرهفتان وصغيرتان. رأته في المرة القادمة على الشاطئ يقفز على بُعد مسافة يُلاعب طفلةً على حافة البحر ويلتقط أشياء ويجري في هذا الاتجاه وذاك ويرفع زجاجته المستطيلة المميزة. لم يكن والشمسُ من ورائه سوى صُورة ظليّة. لكنها فورًا ميّزتْ على رغم البعد جسدَه النشيط فتبسّمت.

كان البارون أشكنازي أولَ نزلاء الفندق الذين انضموا إلى الأم والأب على طاولتهما. وصل مع فتاة صغيرة جميلة عرّف بها على أنها ابنته. كانت فاتنة بشكل مذهل، في سن الصبي تقريبا. تمنّت الأم في الحال أن يصبحا صديقين. وبالطبع جلسا هناك ولم يقولا شيئا ولم ينظر أحدهما إلى الآخر. لكنها كانت مخلوقا استثنائيا، بعينين داكنتين وشعر أسود فاحم مثل شعر أبيها وملامح متوسطيّة. ارتدت فستانا من الدانتيل الأبيض بجزء علوي من الحرير يُوحي بصدرٍ ضئيلٍ تحته. لم يستطع الأب أن يصرف عينيه عنها. لم تقلْ طوال وقت العشاء شيئا ولم تبتسم. لكن التفسير في الواقع جاء لاحقا، بعد المقبّلات، عندما أوضح البارون بصوت خفيض، يده تمتد لتلمس رأس ابنته، أن أمها ماتت قبل سنوات من غير أن يذكر سبب موتها. لم يتزوج مرةً ثانية. بعد لحظة عاد إلى حماسه المعهود من جديد. تحدث باستمرار بلكنته الأوروبية مُرتكِبا أخطاءً لغوية استدركها على نفسه وضحك بسببها. كانت الحياة تثيره. أطال التدبّر في أحاسيسه الخاصة وأحبّ الحديث عنها: مذاق الخمر أو الطريقة التي تتضاعف بها شعلات الشموع في الثريات. كان سرورُه البسيط من كل شيء مُعْدِيا إذْ سُرعانَ ما كان الأب والأم يتبسمان. لقد نسيا نفسيهما. كان من الممتع جدا

رؤية العالم على طريقة البارون، متيقظا لكل لحظة. رفع مستطيله الزجاجي عاليا بحيث يؤطّر الأم والأب والطفلين والنادل المقبل على الطاولة والركن القصي من غرفة الطعام حيث يعزف للزبائن عازفا بيانو وكمانٍ على منصّة منخفضة تزيّنها نخلات مغروسات في أُصُص. قال: في أفلام السينما نحن نكتفي بالنظر إلى ما هو موجودٌ بالفعل. تُشرق الحياة على الشاشة المعتمة كما لو أنها تشرق من عتمةِ عقل الإنسان. إنها تجارة كبرى. يريد الناس أن يعرفوا ما الذي يحصل لهم. مقابل سنتاتٍ قليلة يجلسون ليتفرّجوا على أنفسهم وهم يتحرّكون ويغْدُون ويتسابقون بالسيارات ويتعاركون و-سامحاني- يتعانقون. إن هذا لفي غاية الأهمية اليوم، في هذه البلاد، حيث الجميع جُدد. هناك حاجة ملحّة إلى الفهم. رفع البارون كأس الخمر. نظر إلى الخمر فتذوقه. لا بدّ وأنكما شاهدتما فيلم «خطوؤه الأول». لا؟ فيلم «براءة بنت». لا؟ ضحك. لا تشعرا بالإحراج. إنها أول مسرحيتين مصوّرتين من إنتاجي. فيلمين قصيرين على بكرة واحدة. صنعتهما بأقلّ من خمسمئة دولار وعاد كلٌّ منهما بعشرة آلاف دولار أرباحا. قال ضاحكا: أجل، هذا حقيقي! سعل الأب واحمرّ وجهه عند ذِكرِ مبالغ ماليّة محدّدة. وإذ أخطأ البارون في فهم ردة فعل الأب أصرّ على إيضاح أن هذا ربحا جيدا لكنه ليس استثنائيا. كانت صناعة الأفلام في ذلك الوقت تزدهر وكان في استطاعة الجميع أن يربحوا. قال البارون: الآن أصبحتُ أنا بنفسي شركةً بالشراكة مع «باتيه للأفلام» لإنتاج قصةٍ طولها خمس عشرة بكرة! ستُعرض بكرةٌ واحدةٌ كل أسبوع على مدى خمسة عشر أسبوعا، وسيعود الزبون كل أسبوع ليشاهد ما الذي سيحصل بعد. وبنظرةٍ شريرةٍ أخرج من جيبه قطعةً معدنيةً

لامعةً وقلبها في الهواء. ارتفعت عاليا حتى كادت أن تصل السقف. شاهدها الجميع. أمسك البارون القطعة وبسط كفّه على الطاولة بصفقةٍ عالية. قفزت الأواني الفضية. اهتز الماءُ في الكؤوس. رفع يده كاشفا عن قطعة خمس سنتات من تلك المسكوكة حديثا، المسمّاة شعبيا «نيكل الجاموس». لم يستوعب الأب سببَ قيامه بهذا. قال البارون مبتهجا: إنها الطريقة التي سمّيت بها نفسي. أنا «شركة نيكل الجاموس الفوتوغرافية المتحدة»!

استمر البارون متحدثا بينما كانت الأم تنظر إلى الطفلين الجالسين إلى جوار بعضهما على الطاولة. أثارت اهتمامَها فكرةُ استخدامِ إطارٍ لتفحّص ما يُرى عادةً بالعين. أطّرتْهما بانتباهها تماما كما لو أنها ممسكة بالإطار الغريب. كان شعرُ ابنها مسرّحا من جبهته للوراء لهذه المناسبة، وكان يرتدي قميصا بياقة بيضاء عالية لبدلته الصغيرة وربطة عنق منسدلة. ارتفعت عيناه الزرقاوان المرقطتان بالأصفر والأخضر إلى أعلى في اتجاهها. لم يكن ينقُص الطفلة الجميلة التي بجواره في فستانها الدانتيل الحريري الأبيض سوى خِمار شفّاف. ارتفعت عيناها الآن وأعادت نظرةَ الأم بمباشرةٍ تقترب من التحدّي. رأتهما الأمُ على أنهما العروس والعريس في تمرينٍ مدرسيٍّ يُميّز ذلك العصر ويُعرف بزفاف توم ثمب.

. 34 .

هكذا التقت العائلتان. تنتشر الشمس فوق البحر صباحا فيطارد الطفلان بعضهما في أروقة الفندق العريضة. عندما يخرجان إلى الخارج يضرب هواءُ البحر رئتي كل منهما ويبرد أقدامَهما رملُ الشاطئ. تخفق المظلات والرايات في الرياح.

كان تاته يعمل كل صباح على سيناريو مسرحيتِه المصورة ذات الخمس عشرة بكرة، يُملي أفكاره على ناسخ الفندق ويقرأ الصفحات التي كتبها بالآلة الكاتبة في اليوم السابق. عندما يختلي بنفسه يفكر مليّا في جرأته. كان يعاني أحيانا من نوباتِ ارتجافٍ يجلس فيها لوحده في غرفته يدخّن سجائره من دون حامل سجائر، منحنيا ومهزوما مثل تاته القديم. لكن وجودَه الجديد أثاره. انفتحت شخصيته إلى الخارج بالكامل وأصبح رجلا فصيحا ومفعما بالحيوية وممتلئا بالمستقبل. شعر بأنه يستحق سعادتَه. لقد بناها من دون مساعدة. أنتج عشراتِ الكتب السينمائية لصالح شركة فرانكلين للإبداع. ثم صمّم بعد ذلك جهازَ فانوسٍ سحريٍّ فيه شرائط ورقية مطبوعة تدور مع صوره الظليّة على عَجَلة. حافلة خشبية ترددية

تعبر من أمام مصباح ساطع جيئة وذهابا مثل مِغزل. قبلت شركة سيرز آند روبك الجهازَ للتوزيع عبر طلبات البريد كما عرض مالكو شركة فرانكلين للإبداع على تاته أن يكون شريكا لهم. في تلك الأثناء اكتشف أن آخرين يصنعون رسوما متحركة مثل التي يصنعها سوى أنها تُعرض على شريطِ سليولَيدٍ سينمائيّ. ومن هذه تولّد اهتمامه بالفيلم على وجه التحديد. لا يجب أن تُرسم الصور بالضرورة. باع أسهمه ودخل مجال صناعة الأفلام. كلّ مَن يملك ثقة بالنفس يمكن أن يحصل على الدعم. كانت شركات الأفلام في نيويورك تبحث بيأسٍ عن أفلام. بين عشية وضحاها تنشأ شركاتُ أفلام ويُعاد تشكيلها وتُدمج وتصل إلى المحاكم وهي تحاول أن تحتكر التوزيع وتسجل براءات اختراع في العمليات التقنية، وتمثّل في كل أحوالها الوضعَ الفوضويَّ لصناعةٍ جديدة.

كان في أمريكا في ذلك الوقت مهاجرون أوروبيون نبلاء أغلبهم فقراء، جاؤوا إلى هنا قبل أن يأملوا أن يتزوجوا بسبب حَسَبِهم من بنات حديثي الثراء بسنوات. لذا اخترع بارونيةً لنفسه. ساعدته على العيش في عالمٍ مسيحيّ. فعِوضًا عن الاضطرار إلى مسح لكنته اليديشية الثقيلة اكتفى بطيّها فوق لسانه مع إيماءة بالتباهي. صبغ شعر رأسه ولحيته مُعيدا إياه إلى لونه الأسود الأصلي. أمسى رجلا جديدا. جهّز كاميرا. كانت طفلته متأنقة مثل أميرة. أراد أن يزيح عن ذاكرتها كل نتانةِ الشقق وقذارةِ شوارع المهاجرين. أن يشتري لها ضوءً وشمسًا ورياحا نظيفة من المحيط طوال بقيّة عمرها. تلعب على الشاطئ مع صبيّ مهذب ووسيم. كانت ترقد بين طيّات اللحف البيضاء الناعمة في غرفةٍ تطل على سماءٍ لا نهاية لها.

يذهب الصديقان كل صباح إلى مناطق الشاطئ المهجورة حيث تحجب الكثبانُ والأعشابُ الفندقَ عن ناظريهما. يحفران أنفاقا وقنواتٍ لماء البحر وجدرانا وحصونا ومساكنَ متدرجة. يصنعان مدنا وأنهارا ويشقّان قنوات. ترتفع الشمس فوق ظهريهما المنحنيين وهما يغرفان الرمل الندي. في الظهر يبرّدان نفسيهما في الأمواج ويتسابقان إلى الفندق. في المساء يلعبان على مرأى مظلات الشاطئ وهما يجمعان أعوادا وأصدافا، ويمشيان ببطء مع الطفل الأسمر الذي يرشّ الماء خلفهما في الجَزْر. لاحقا عاد الكبار إلى الفندق وتركاهما وحدهما. مع ظهور أول الظلال الزرقاء من جديد على الرمل، تبعا ببطءٍ خطَّ المدِّ وراء الكثبان واستلقيا من أجل أكثر المتع جدية، لعبة الدفن. في البدء حفر بذراعه في الرمل النديّ تجويفا لجسدها. استلقت فيه على ظهرها. جلس عند قدميها ورويدا رويدا غطّاها بالرمل، قدماها فساقاها فبطنها فصدرها الصغير ثم كتفاها وذراعاها. استخدم رملا مبللا وشكّله في عرضٍ مبالغٍ فيه لجسدها. كانت قدماها متضخمتين وركبتاها مستديرتين وفخذاها كثيبين وعلى صدرها بنى نهدين بحلمتين كبيرتين. لم تفارق عيناها الداكنتان وجهه أبدا بينما كان يعمل. رفع رأسها برفق وكوّم تحته وسادةً من الرمل. أخفض رأسها. من عند جبهتها بنى طياتٍ من الرمل تمتدّ إلى كتفيها.

ما إن اكتمل التمثال المنحوت بدقة حتى شرعت في هدمه، محركة أصابع يديها برفق، وهازّة أصابع قدميها. تفتّت القشرة ببطء. رفعت ركبة وأتبعتها بالأخرى، ثم انبثقت بالكامل فجأة وجرت نحو الماء لتغسل قشرة الرمل على ظهرها وساقيها. لحق بها. استحمّا في الماء. شبكا أيديهما ثم جلسا القرفصاء وتركا الأمواج تتكسر عليهما.

عـادا إلى الشـاطئ من جديد وجـاء الآن دوره ليُدفـن. شـيّدت الغطـاء الدقيق نفسَـه لجسمه. ضخّمت القدمين فالساقين. البروزُ الصغيرُ في بدلة السباحة بَنَتْ حوله كوزًا بيديها. غطت صدره النحيل وعرّضت الكتفين وهيّأت له طيات عصابة الرأس التي صمّمها لها. عندما انتهت من العمل حطّمه بطيئا إلى قطعٍ مكسّرا إياها بعناية وهو ينفذ منها كليا، كأنه صَدَفة، ويجري إلى الماء.

أحيانا يأخذهما الكبار مساءً إلى الملاهي على الممشى البحري، وأحيانًا أخرى يجتمعون ويستمعون إلى حفلة الفرقة الموسيقية أو يشاهدون عَرْضَ السيارات. شاهدوا فيلم «حول العالم في 80 يوما». عامتْ سحبٌ في هواء المسرح. شاهدوا فيلم «الدكتور جيكيل والسيد هايد». لكن الإثارة الحقيقية كانت في الملاهي التي لم يكن الكبار يحلمون بالسيطرة عليهما فيها: عروض الأشخاص غريبي المظهر، وأروقة الألعاب المشغّلة بالنقود المعدنية، واللوحات الحية. كانت تمنعهما حصافتهما من التعبير عن رغباتهما. ثم بعد بضعِ زياراتٍ إلى وسط المدينة، عندما لم تعد الرحلات شاقة، أقنعا الكبار بأن يقوما بها بنفسيهما. زُوّدا بخمسين سنتا فأخذا يركضان على الممشى في الغسق. يقفان لينظرا في أضواء الصندوق الزجاجي لقارئ الحظ الآلي. وضعا قرشا. حرّك الرجل المرتدي عمامةً رأسَه يمنة ويسرة، وفمه يطقطق كاشفا عن أسنان لامعة، ثم رفع يده بطريقة مرتعشة. قُذفت إلى الخارج تذكرةٌ ثم تمايل الجهاز متوقفا بالكامل في منتصفِ ابتسامة. كُتب في التذكرة: أنا هو-هي بعظَمتي. وضعا نقودا في الآلة ذات المخلب التي يوجّه مخلبُها الحديدي باستخدام عجلةٍ حتى تُسقطه فينشب في الكنز الذي يريدان قبل أن يفلتّه عبر

الأنبوب المائل. بهذه الطريقة حصلا على قلادةٍ من الأصداف ومرآةٍ صغيرةٍ من المعدن المصقول وقطةٍ زجاجية صغيرة. تفرّجا على غريبي المظهر. مشيا بهدوء عبر أكشاك العروض مرورا بالسيدة الملتحية والتوأمتين السياميّتين وعرض الأخوين القزمين المسمى «رَجُلَيْ بورنيو الوحشيين» وعملاق كارديف والرجل التمساح وامرأة الستمئة رطل. كانت هذه امرأة شديدة الضخامة تتحرك على كرسيّها وترتجف كلما مرّ الأطفال من أمامها. كانت تستولي عليها عاطفةٌ جامحةٌ وتنهض على قدميها الصغيرتين وتتقدم في اتجاههم كأنها جبل. تتفتح حدائقُ جسدِها الهائلة وتُغلق، إلى الخارج ثم إلى الداخل، خارجا وداخلا، وهي تنشر ذراعيها في تقلّبات عاطفية. استأنفا طريقهما. تتبّعت ملحمتَهما من خلف كل سياجٍ عيونُ المخلوقاتِ الطبيعيةِ المتيقظة. اشتريا من العملاق خاتما من إصبعه يدخل في معصميهما، ومن التوأمتين السياميّتين صورةً موقّعة. خرجا مسرعين.

كان كل منهما مثابرا في رغبته لمرافقة الآخر. لاحظ الكبارُ هذا الشيء باستمتاع. كانا لا يفترقان حتى وقت النوم لكنهما لم يكونا يتذمران عند إعلانه. ينطلقان إلى غرفتيهما المنفصلتين من دون أن يلتفت أحد منهما إلى الوراء. ينامان نوما هانئا. يبحثان عن بعض في الصباح. لم يفكر فيها على أنها جميلة. لم تفكر فيه على أنه وسيم. كانا شديدي الحساسية تجاه أحدهما الآخر، وفي خلفيةِ وجوههما إثارةٌ منتشرةٌ مثل كهرباء أو هالة ضوء، لكن ملامستهما كانت أمرا عارضا وواقعيا. الذي جمعهما اعترافٌ مشبعٌ عاشاه وفكّرا من خلاله بحيث لم يكن يمكن تمييز فهْمِ كلّ منهما للآخر وفصله عن إعجاب أحدهما بجمالِ الآخر. لكنهما كان جميلين، هو في وقاره الأشقر

الفخم وهي في وجودها الأصغر ودكنةِ شعرها ورشاقتها، بومضة في عينيها الداكنتين ومشيتها التي تكاد تكون عسكرية. عندما يركضان كان شعرهما يطير عن جبهتيهما العريضتين. كانت قدماها صغيرتين وكذلك كانت يداها السمراوان. تركت في الرمل آثارا لعداءةِ شوارع، لمتسلقةِ سلالم مظلمة، إذ كانت آثارُها هروبا من رُعب الأزقة وقعقعة حاويات القمامة الفظيعة. لقد كانت تقضي فيما مضى حاجتَها في حماماتٍ خشبيةٍ خلف الشقق السكنية. كانت ذيول القوارض تلتفّ حول كاحليها. كانت تعرف كيف تخيط بآلةٍ وشاهدت كلابا تتزاوج وعواهر يلتقطن زبائنَهن من الممرات وسكارى يبولون من بين قضبانِ عجلاتِ العرباتِ الخشبية. أما هو فلم يفوّت وجبة واحدة. لم يشعر بالبرد ليلةً قط. كان يُماشي عقله في اتجاه شيء ما. لم يكن الخوف يُعيقه ولم يعرف أن في العالم أشخاصا يقلّون فضولا بخصوص ذلك الشيء عنه. كان يدرك حقيقة الأمور ولم تفاجئه الصُّدفةُ فقط. في عينيه دار كوكبٌ بالأزرق والأخضر.

بينما كانا يلعبان ذات يومٍ بهتت الشمس وبدأت ريحٌ تهبّ من البحر. شعرا بالبرد في ظهريهما. قاما وشاهدا أرتالا من الغيوم السوداء الثقيلة قادمة من المحيط. جريا في اتجاه الفندق. هطل المطر. حفرت قطراتُ المطر المقذوفة فوهاتٍ في الرمل. ترك المطر رسمًا على كتفيهما الملحين. انهمر في شعرهما. احتميا تحت جسر الممشى على بُعد نصف ميل من فندقهما. جثما في الرمل البارد واستمعا إلى المطر يضرب خشبَ الممشى وشاهداه يتجمع قطراتٍ من بين الألواح. كان تحت الممشى حطام. زجاج مهشم ورؤوس أسماك محدّقة متحجرة، قطع ممزقة من سرطانات، مسامير صدئة، ألواح

مكسورة، أخشاب طافية، نجم بحرٍ بصلابةِ حجارة، بقع رمل مزيتة، رقاعٌ بدمٍ جاف. رَنَوَا إلى البحر من كهفهما. ارتفعت عاصفةٌ وتوهّجت السماء بضوء أخضر. شق البرقُ السماءَ وكأنه صدفةٌ متصدّعة. عاقبت العاصفةُ المحيطَ، سحقته، روّعته. لم تعد هناك أمواجٌ بل انتفاخاتٌ حَيْرى، لا تتكسّر ولا تتكوّر في اتجاه الشاطئ. ضاعف الضوءُ الغريبُ من كثافته فاستحالت السماء صفراء. كسرها الرعدُ كما لو أن الموجَ في السماء، وشرعت الريحُ تعصفُ بالمطر على امتداد الشاطئ، تسوط به الرمل، تدحرجه على الممشى. ظهر من بين الريح والماء والضوء الذهبي شخصان يمشيان مطأطئين رأسيهما، يحميان بأيديهما أعينهما. إذ التفتا وأعطيا ظهريهما للريح نظرا إلى الشاطئ في كلا الاتجاهين وغطّى كل منهما بكفّه فمه. لم يكن سماعهما ممكنا. راقبهما الطفلان من دون أن يتحركا. كانا الأمَّ وتاته. أقبلا يمشيان متعثرين في الرمل المبلل. التفتا فألصقت الريح ملابسَهما على ظهريهما. التفتا مرة أخرى فألصقت الريح ملابسَهما على صدريهما وساقيهما. انحرفا عن الماء واتجها إلى الممشى. لمع شعرُ تاته الأسود الملتصق على جبهته في الماء المشعّ. انفكّ شعرُ الأم وتدلى خصلا مبتلّة على وجهها وكتفيها. صاحا. صاحا. ركضا ومشيا وبحثا عن الطفلين. اعتراهما الذهول. جرى الطفلان في المطر. لما أبصرتهما الأم نزلت على ركبتيها. في لحظةٍ كان أربعتُهم معا، يتعانقون ويتعاتبون ويضحكون. الأم ضحكت وبكت في الآن نفسه بينما ينهمر المطر على وجهها. أين كنتما، قالت، أين كنتما؟ ألم تسمعاننا ننادي؟ رفع تاته ابنته ليحملها بين ذراعيه. قال البارون بالألمانية: الحمد لله. الحمد لله. عادا بمحاذاة الشاطئ في هذا المطر والبرق، سعداء ومتكتّلين معا في

البلل. لم يمنع تاته نفسَه من ملاحظة فستان الأم الأبيض وملابسها الداخلية تلتصق بطيات جسدها. بدت شابةً إذ استقر شعرها على كتفيها وانفَتَل حول رأسها. التصقت تنورتها بساقيها وكلما انحنت لتبعدها عن جسمها هبّت الريح وأعادتها. لما فقدا الطفلين سعيا إلى الشاطئ وخلعت حذاءها عند درجات الممشى واستندت إلى ذراعه. مشت تطوّق بذراعيها الطفلين. تعرَّف في هيئتها المبللة على المرأة التي رسمها وينسلو هومر في لوحته تُنْقَذُ باستخدام حبل القطر. مَن ذا الذي لا يخاطر بحياته من أجل امرأة كهذه؟ لكنها كانت تشير إلى الأفق: انفلقت سماءٌ زرقاءُ فوق المحيط. فجأة سبقهم تاته عادِيًا وتشقلب. وضع يديه ورأسه على الأرض. وقف في الرمل على يديه ومشى بالمقلوب. ضحك الطفلان.

طوال هذا الوقت كان الأب نائما. لم يعدْ مؤخرا يقدر على النوم ليلا فصار يأخذ القيلولة في أول المساء. أصابه أرق. قرأ في الصحف عن الحركة المتزايدة في الكونغرس بخصوص ضريبةِ دخلٍ على مستوى الدولة. كان هذا أول نذير شؤم بنهاية الصيف. أجرى مكالمات هاتفية منتظمة بمديره في المصنع في نيو روتشيل. كانت الأمور هادئة هناك. لم يُسمع شيءٌ جديدٌ يتعلق بالقاتل الأسود. تجارته تسير على نحو جيد كما عَلِم من نسخ الطلبات التي تُرسل إليه يوميا. لم يُرِحْ قلقَه أيٌّ من هذه الأشياء. بدأ يصيبه السأم من الشاطئ وما عاد يحرص على السباحة في المحيط. في الأَمسية يذهب قبل النوم إلى غرفة الألعاب ويلعب البلياردو. كيف يتسنّى لهم أن يستأنفوا حيواتِهم إمّا بقوا في أتلانتك سيتي؟ أحيانا يستيقظ صباحا ويشعر أن مضيّ الوقتِ والأحداثِ تركه أضعف من ذي قبل. كما وجد أن

صديقهما الجديد، البارون، يشتت الانتباه مؤقتا. ظنّت الأم أنه محبوبٌ لكنه لم يشعر بتعاطفٍ معه ولا بتعاطفٍ منه. أراد أن يحزم أغراضَه ويغادر لكن خوفه على سلامة الأم في المكان قيّده. اعتقدت أن من الممكن الانتظار هنا ريثما تُنهي مأساةُ كولهاوس نفسَها وأمَلَتْ أن يتعافَوا منها. أمّا هو فعرف أنّ هذا وهمٌ. الذي أصاب مسؤولَ الفندق بالذعر أنها صارت تُبقي الطفل الأسمر في طاولتها في غرفة الطعام. نظر الأب إلى الطفل الصغير بتجهّم. على إفطار الصباح الذي تلا العاصفة فتح الجريدةَ فوجد في الصفحة الرئيسية صورةً له. اقتحمت عصابةُ كولهاوس واحدا من أشهر مستودعات الفنّ في المدينة، ألا وهو مكتبة بيربونت مورغن على الشارع السادس والثلاثين. تمترس أفرادها في المبنى وخيّروا السلطات بين التفاوض معهم أو المجازفة بكنوز مورغن. أطلقوا قنبلة في الشارع لاستعراض تسلّحهم. سحق الأبُ الجريدةَ في يديه. بعد ساعة طُلب على الهاتف لمكالمةٍ من مكتب المدّعي العام في مانهاتن. ذلك المساء صعد القطار متجها إلى نيويورك تشيّعه أمنياتُ الأم القلقة.

• 35 •

لا بد أن استراتيجية كولهاوس في الثأر بَدَت، حتى بالنسبة لمن تابع القضيةَ من بدايتها، البرهانَ الأخيرَ على جنونه. أيّ معيار آخر يمكن أن يفسّر كيف أصبح ويلي كونكلن الجبانُ التعيسُ المتعصّبُ مثل سائر الرجال بيربونت مورغن أبرزَ رجالَ زمانِه على الإطلاق؟ لم تحدّ غرورَ كولهاوس حدودٌ، بعد ثمانية الأشخاص الذين ماتوا على يده والأحصنة المهلكة والمباني المدمّرة ومدينة من الضواحي ما انفكّت ترتعدُ رعبا. أم هل أنّ الظلم عند تجربته كونٌ موازٍ بقوانينَ منطقيةٍ ومبادئَ عقليةٍ على النقيض من قوانين الحضارة ومبادئها؟

نعرف من مذكرات الخال الأصغر أن الخطّة الفعلية كانت الإبقاءَ على مورغن سجينا في منزله. ذهب ظنُّ العصابة إلى أن كونكلن يختبئ في حيّ إيرلندي تُضاهي صعوبةُ اكتشافِه صعوبةَ اكتشافِ كولهاوس في هارلم، ولذلك يجب إخراجه. من هنا جاءت الحاجةُ إلى رهينة. انتهت ليلتان من النقاش بترشيح بيربونت مورغن. كان يمثّل في نظر كولهاوس قوةَ العالَمِ الأبيضِ أكثر من أيّ عمدة أو حاكم. على مدى سنوات صُوِّر في الكاريكاتور بسيغاره وقبعته العالية باعتباره

تجسيدا للقوة. يمكن إجبارُ إقطاعية نيويورك العظمى على تقديم جيشٍ من رؤساءِ محطاتِ الإطفاءِ وأسطولٍ من سياراتِ موديل تي لافتداء مورغن.

لكن كولهاوس عَهِدَ بمهمّة الاستطلاع عن بيت مورغن إلى اثنين من الشبّان لا يعرفان عن المدينة جنوبَ شارعِ المئة إلا القليل، وأقل منه عن حياةِ الأغنياء. عندما استطلعا عن منشآت مورغن، أحدهما منزل من القرميد البني والآخر قصر رخامي أبيض، حزرا أنّ القصر الرخامي مسكنُه. كان الخال الأصغر سيدرك الخطأ لو رآه. لكنه كان رجلَ العتاد، إذ استلقى في ظهرِ عربةِ نقلٍ مغطاة محمّلة بالمتفجرات والذخيرة. في وُسعه سماع الهجوم الحاصل. تقدمت عربةُ النقلِ أمام بوّابات المكتبة وتلقى تعليماتٍ بإفراغ حمولتها. عندما رفع ستائرَ العربة ونظر إلى خارجها صاح فيهم قائلا إنه المبنى الخطأ. غير أن تداركَ الخطأ لم يكن في تلك اللحظة خيارا معقولا. كان أحد الحرس ملقًى على الأرض ميّتا، وسُمعت صفاراتُ الشرطة. أيقظ صوتُ إطلاق النار الحيّ بأكمله. أفرغ المتآمرون حمولةَ العربة وأوصدوا البواباتِ النحاسيةَ الضخمةَ بالمزلاجِ ثم أخذوا مواقعهم المحدّدة. بعدئذٍ أجرى كولهاوس فحصا سريعا للمبنى. طمأنهم: لم نخسر شيئا. أردنا الرجلَ وسنحصل عليه لأننا نسيطر على أملاكِه.

صادف أن بيربونت مورغن لم يكن موجودا حتّى في نيويورك. أبحر منذ يومين على متن «إس إس كارمانيا» متّجها إلى روما. كان في رحلةِ حجٍ بطيئةٍ إلى مصر. لم يكن كولهاوس على علمٍ بهذا أيضا. ولذا فإن الحدث كلّه، بسوء إدارته وتوقيته، حظي بشيء من التوفيق الخاص.

أبْلغ مساعدو شركة جيه بي مورغن بالحالة على الفور تقريبا. أبرقوا إلى «كارمانيا» لاستقبال توجيهات الرجل العجوز. ولسببٍ ما، لعلّه سوء أجهزةِ الإبراقِ على متن السفينة، لم يكونوا متأكدين ممّا إذا وصلت رسالتُهم. في ظل غياب مورغن وتوجيهاته لم تفعل الشرطة سوى أن طوّقت المربع السكني كاملا، من شارع 36 إلى شارع 37 ومن جادّة ماديسن إلى جادّة بارك. حُرف مسارُ المرور وعَدَا رجالُ الشرطة بأحصنتهم جيئة وذهابا لإبقاء الحشود خلف السياج. بدا أنّ صمتَ المشهد قد أخرسَ أصواتِ المدينة، مرورَها، أبواقَها، حياتَها. خيّم على الآلاف الذين تزاحموا صمتٌ يشبه صمتَ مَن استغرق في شيء بعمق. بحلول الليلِ سُلّطت على صرح المكتبة مصابيحُ كشافةٌ تشغّلها مولّداتٌ كهربائيةٌ محمولة. كان المتفرجون يشعرون بهدير المولّدات من تحت أقدامهم كأنه دمدمةُ زلزال. انتشرت الشرطة في كل مكان، في عرباتهم وعلى الأقدام وعلى الأحصنة، لكنهم بدوا متفرّجين بنفس القدر الذي بدت به الحشودُ التي يحاولون صدّها.

شقّت القنبلةُ اليدويةُ التي رُميت حالما أطلق الخال الأصغر تحذيرَه الرصيفَ مُحدثةً حفرةً ضخمةً في الشارع المقابل لبوابات المكتبة. في قاع الحفرة بقبقت ماسورةُ ماءٍ رئيسيةٍ مكسورةٍ مثل نبع. تهشمت النوافذ في كامل المربع. كان على الجهة المقابلة من الشارع مبنًى سكنيٌّ خاصٌّ من القرميد البني وكان أثرُ الانفجار عليه شديدا. هرب مالكوه وأعطوا قسمَ الشرطة ترخيصا بأن يُدير مكتبًا مؤقتًا من طابقه الأرضي. اكتشفت الشرطة أن بإمكانهم صعودَ سلالم المبنى ونزولها بأمان والتحرّك بحرية على امتداد الشارع السادس والثلاثين إنْ لازموا الرصيف. امتلأ المنزلُ بضباط قسم الشرطة ومسؤولين

آخرين من المدينة، وباتّضاح طبيعة المواجهة أكثرَ فأكثرَ تنازل المسؤولون تدريجيا واحدا تلو الآخر عن أدوارهم لصالحِ مَن هم أعلى منهم رُتبة ومسؤولية. أخيرا استقرت مهمّة التحكم في العملية، بحضور ملازمين ونقباء ومفتشين ومفوّض الشرطة راينلاندر والدو، على مدعي نيويورك العام تشارلز إس ويتمان. اكتسب ويتمان شهرة عريضة من جرّاء مقاضاةِ ملازمِ شرطةٍ فاسدٍ يُدعى بيكر، حاكما عليه بالإعدام لأمره أربعة بلطجيين -وهُم جِب ذا بلاد وداغو فرانك ووايتي لويس ولفتي لوي- بقتل مقامرٍ شهيرٍ اسمه هيرمن روزنثال. هذه القضية البارزة جعلت من ويتمان مرشّحا طبيعيا لمنصب حاكم نيويورك. بل ذاع حديثٌ عن ترشحه في نهاية الأمر للرئاسة. كان على وشك مغادرة نيويورك مع زوجته لقضاء إجازةٍ في كوخ السيدة ستايفيسانت فِش الصيفيّ ذي الأربعين حُجرة في نيوبورت. قدمته مؤخرا لتلك الدائرةِ السيدةُ أو إتش بي بيلمونت. كان يقدّر هذه العلاقات لكنه لم يستطع مقاومة التوقّف عند الشارع السادس والثلاثين حالَ علمه بالخبر. ظنّ أنها مسؤوليته باعتباره رئيسا مستقبليا. ودّ أن تُلتقط له صورةٌ وهو في موقع الحدث. عند وصوله أذعن الجميع لقراراته بما فيهم منافسُه العمدةُ الهائجُ وليم جي غينور. اعتقد أن وجوده اعترافٌ مهمٌّ بالواقع السياسي. نظر إلى ساعته وقدّر أنه يملك دقائق من الوقت لتولّي أمر هذا الزنجي المجنون.

طلب ويتمان الخرائط الهندسية للمكتبة من شركة تشارلز ماكيم وستانفورد وايت الهندسية. بعد دراستها وجّه بإرسال شرطيّ وحيد رياضيّ الجسم في مهمة استطلاعية بحيث يصل إلى سطح المكتبة وينظر في الكوّة المقبّبة فوق القاعة الوسطى والغرفة الشرقية

لتحديد عدد الزنوج الموجودين هناك. عُثر على ضالّته وأُرسل الشرطيُ عبر الحديقة التي تفصل المكتبة عن مسكن مورغن. انتظر ويتمان ومسؤولون آخرون في المكتب المتواضع. ما إن دخل الشرطي الحديقةَ حتى أضاءت السماء وكان هناك دويٌّ عالٍ تبعته صرخةٌ هالِك. شحَب وجهُ ويتمان. قال: لقد لغّموا المكان اللعين. دخل ضابط. حسب تقدير الجميع ماتَ الشرطيُّ في الحديقة، وما ذاك إلا حظّه العاثر لأنه لا يمكن أن يذهب أحدٌ لإخراجه من هناك. تجهّم ضباط الشرطة. نظروا إلى ويتمان. تأكّد له الآن أن قوةَ عصابةِ كولهاوس العدديةَ ليست معلوماتٍ عالية الأهمية. لكنه استدعى الصحافة وأعلن أنهم أكثر من عشرة وقد يصل عددهم عشرين رجلا.

. 36 .

في الساعات التالية اجتمع المدعي العام ويتمان مع عدد من المستشارين. اقترح الكولونيلُ الذي يرأس ميليشيا نيويورك في مانهاتن حلّا عسكريا شاملا. أرعب هذا الاقتراحُ واحدا من قيّمي السيد مورغن، رجلا طويلا متوتّرا بنظّارة أنفية يضم يديه على صدره وكأنه مغنيةُ أوبرا في متحف المتروبوليتان، إلى درجة أنه أصبح يرتعد. هل تعرفون قيمةَ مقتنياتِ السيد مورغن! لدينا أربعُ ورقاتٍ من مخطوطات شيكسبير! لدينا إنجيلُ غوتنبيرغ مخطوطا على ورق الرّق! هناك سبعمئةُ كتابٍ مطبوعٍ ورسالةٌ بخمسِ صفحاتٍ خطّها جورج واشنطن! لوّح الكولونيل بإصبعه في الهواء. إن لم نَنَلْ من ابن العاهرة ذاك، إن لم نقتحم المكان ونبتر خصيتيه، سيتمكّن منك كلّ زنجي في هذه البلاد! حينها أين ستكون مع إنجيلك؟ ذرع ويتمان الغرفةَ جيئة وذهابا. أخبره مهندسٌ مدنيٌّ أنه إنْ أصلحوا ماسورة الماء الرئيسية المكسورة فقد يتمكّنون من حفر نفقٍ عبر أساساتِ المكتبة. سأل ويتمان: كم سيستغرق ذلك؟ قال المهندس: يومين. اقترح شخصٌ آخر استخدامَ الغازِ السّام. وافق ويتمان: قد ينالُ ذلك منه.

لكن بالطبع سيموت كل مَن يسكن شرقي مانهاتن أيضا. بدأ يشعر بالقلق. بُنيت المكتبة من قِطَعِ الرخام المرصوصة. لا يمكنك أن تمرر شفرة سكين من بين القطع. كان المكان ملغّما بالديناميت ومن كل نافذةٍ أطلّ زوجٌ من العيون الزنجية المتيقظة.

خطر لويتمان الآن أنْ يستشير ضباطَ الشرطة الموجودين في الغرفة. قال رقيبٌ عجوزٌ قضى سنين في الخدمة الميدانية ومحاربٌ قديمٌ من منطقة هلز كتشن: الخطوة الحاسمة، يا سيدي، هي استدراجُ كولهاوس ووكر إلى محادثة. الكلام يهدئ المعتوه المسلّح. تجعله يتحدث ثم يستمرّ يتحدث فتكون لك السيطرة. أخذ ويتمان الذي لم تكن تعوزه الشجاعة مكبّر صوتٍ ونادى كولهاوس قائلا إنه يريد أن يحدّثه. أومأ بقبعته الخوص. صاح: إنْ كانت هناك مشكلةٌ يمكننا أن نعمل على حلّها معا. كرر عباراتٍ مثل هذه عدّة دقائق. بعد ذلك انفتحت لوهلةٍ النافذةُ الصغيرةُ المجاورةُ للمدخل الأمامي. طار منها جسمٌ أسطوانيٌّ في اتجاه الشارع. جفل ويتمان وارتمى الرجال في المنزل مِن خلفه على الأرض. اندهش الجميعُ إذ لم يكن هناك انفجار. تراجع ويتمان إلى المبنى القرميدي وانقضت عدة دقائق قبل أن يميز أحدهم مستخدما منظارًا الجسمَ على أنه إبريقٌ رصاصيٌّ بغطاء. ركض شرطيٌّ إلى الشارع والتقط الإبريقَ فعاد سريعا متسلقا سلالم المبنى. كان الإبريق، المبعوج الآن، قدحَ شرابٍ فضيّا من القرون الوسطى حُفر عليه مشهدُ صيد. طلب القيّم أن يراه وأشار إلى أنه من القرن السابع وكان ينتمي لفردريك ناخب ساكسونيا. قال ويتمان: يسرّني سماعُ هذا حقا. ثم رفع القيّمُ الغطاءَ فوجد في الداخل قصاصةَ ورقٍ عليها رقمُ هاتفٍ تعرّف عليه على أنه رقمُه هو.

أخذ المدّعي العام الهاتفَ بنفسه. جلس على حافة الطاولة وأمسك بالهاتف في يده اليمنى والسماعة في يسراه. قال بحرارة: مرحبا سيد ووكر، معك المدعي العام ويتمان. أدهشته نبرةُ الرجلِ الأسودِ الرصينةِ العمليّة. قال الصوتُ الذي في الهاتف: مطالبي هي نفسها. أطالب بأن تُعاد سيارتي إلى الحالة التي كانت عليها عندما اعتُرض طريقي. لا يمكنك أن تعيد إليّ سارة، لكني أريد مقابل حياتِها حياةَ رئيسِ الإطفاءِ كونكلن. قال ويتمان: كولهاوس، تعرف أنه باعتباري ضابطَ محكمةٍ لا يمكنني أبدا أن أسلّمك خارج القانون رجلا لم يحصل على استدعاءٍ مستحقٍّ من المحكمة. إن هذا يضعني في حالةٍ لا يمكن تبريرها. ما أستطيع أن أعدك به هو أن أبحث في القضية وأرى أيّ التشريعات ينطبق، إن كان أيٌّ منها ينطبق. لكني لا أستطيع أن أفعل لك شيئا حتى تخرج من هناك. تظاهر كولهاوس أنه لم يسمع. قال: سأُمهلك أربعا وعشرين ساعة وسأفجّر هذا المكان بما فيه. ثم أنهى المكالمة. هالو، قال ويتمان، هالو؟ طلب من المشغّل أن يطلب الرقم مرة ثانية. لم تكن هناك إجابة.

بعد ذلك أبرق وايتمان إلى السيدة ستايفيسانت فِش في نيوبورت. كان يأمل أن تقرأ الصحف. عيناه اللتان تتورمان عندما يكون مشغولا بالتفكير غدتا الآن ناتئتين. كان وجهه متوردا. خلع معطفه وفكّ أزرار سترته. أرسل واحدا من رجال الشرطة في طلب بعض الويسكي. عرف أن تلك الشيوعية إيما غولدمن، الأناركية، موجودةٌ في نيويورك. أمرَ بالقبض عليها. حدّق إلى خارج نافذة المبنى القرميدي. كان اليوم غائما ومعتما بشكل غير طبيعي. كان الهواء مكتوما وجعل مطرٌ خفيفٌ الشوارعَ تلمع. أضيئت مصابيحُ المدينة.

تألق القصر الإغريقي الأبيض المُحكم على الجهة الأخرى من الشارع على ضوء الشمس. بدا آمنا جدا. في هذه اللحظة أدرك ويتمان أن الإذعان الذي وجده من مفوّض الشرطة راينلاندر والدو والباقين من قسم الشرطة ورّطه في التماهي مع حالة خطيرة سياسيا. فمن جهةٍ كان عليه أن يحمي مصالح مورغن، الذي موّلت لجانُه الإصلاحيةُ العديدةُ من البروتستانتيين الجمهوريين الأثرياءِ تحقيقاتِه في فساد قسم الشرطة الكاثوليكي الديمقراطي. ومن جهةٍ أخرى كان عليه أن يحافظ على سمعته الشخصية باعتباره مدّعيا عامّا صارما يتعامل بسهولة مع طبقات المجرمين. لهذا الشيء لم ينفع سوى طرحِ الرجل الأسمر في أسرع وقت ممكن. جيء إليه بكأس ويسكي. قال لنفسه: هذه الكأس فقط، لأهدئ أعصابي.

في هذه الأثناء طرقت الشرطة باب إيما غولدمن على غرب شارع 13. لم تُفاجأ غولدمن. دائما ما كانت تحتفظ بحقيبةٍ صغيرةٍ موضّبةٍ ومعدّةٍ للسفر فيها ملابسُ وكتاب. منذ اغتيال الرئيس ماكينلي وهي تُتّهم باستمرار بالتحريض بالأقوال أو الأفعال على أغلب أفعال العنف أو الإضرابات أو أحداث الشغب التي حدثت في أمريكا. كان هناك هوسٌ وطنيٌّ لدى ضباط الشرطة لأن يربِطوا مبدئيا بينها وبين كل قضيةٍ سواءً اعتقدوا أنها مُذنبة أم لم يعتقدوا. ارتدت قبعتَها والتقطت حقيبتَها وخرجت من الباب. أقلّتها عربةُ الشرطة مع شرطيٍّ شاب. قالت له: لن تصدّقني لكني أتطلّع إلى قضاءِ فترةٍ في السجن. إنه المكان الوحيد الذي أستطيع الحصول فيه على بعض الراحة.

لم تكن غولدمن تعرف بالطبع أن واحدا من شبّان كولهاوس كان الشابَّ الذي رَثَتْ حاله باعتباره عاشقا برجوازيا لعاهرةٍ سيئةِ

الذكر. أمام مكتب الرقيب في قسم الشرطة على شارع سنتر، ألقت على الصحفيين بيانا وهي تُحتجز بتُهمة المؤامرة. أنا آسفة لرجال الإطفاء في وست تشستر. أتمّنى أنْ لو لم يُقتلوا. لكن الزنجي دُفع بالظُّلم إلى تصرفّه دفعا، كما فهمت، من جرّاء الميتةِ القاسيةِ لامرأةٍ شابةٍ بريئةٍ هي خطيئته. وباعتباري أناركية فإني أستحسن استيلاءه على ملكيّة مورغن. السيد مورغن نفسه قام بكثيرٍ من الاستيلاء. حينها صاح الصحفيون بالأسئلة. أهو أحد أتباعك يا إيما؟ هل تعرفينه؟ هل لك أيّ علاقة بهذا؟ تبسّمت إيما وهزّت رأسها. الثراء هو المُضطهِد، يا أصدقائي. الثراء هو المُضطهِد. لم يكن كولهاوس ووكر في حاجةٍ إلى إيما ليعرف هذا الشيء. احتاج إلى المعاناةِ فحسب.

وخلال ساعةٍ خرجت إلى الشوارعِ نسخٌ إضافيةٌ من الصحف تحمل أخبارَ الاعتقال. نُقل كلام غولدمن بكثيرٍ من التصرف. تساءل ويتمان عما إذا كان قرارُ السماحِ لها بمحادثة الصحافة قرارا حصيفا. لكنه استخلص فائدةً وحيدةً واضحةً من الخطوة. فرئيسُ معهد تسكيغي العاديّ والصناعي، بوكر تي واشنطن، موجودٌ في المدينةِ لجمعِ تبرعات. كان يلقي خطابا في وسط المدينة في كُبرى قاعات كوبر يونيون على شارع آستور بليس، وانحرف عن نصّه المُعَدّ ليشجب تعليقاتِ غولدمن ويُدين أفعال كولهاوس ووكر. اتصل صحفيٌّ بويتمان ليُخبره الخبر. تواصل المدعي العام من فوره مع المربّي العظيم ليسأله عما إذا كان يستطيع القدوم إلى المشهد ويستخدم سلطتَه الأخلاقية لحلّ الأزمة. ردّ بوكر تي واشنطن: سأفعل. أُرسل شرطيٌّ إلى وسط المدينة لمرافقته فغادر واشنطن الهتاف المدوّي معتذرا من مُضيفي الغداء المُعَدّ على شرفه.

37

كان بوكر تي واشنطن في هذا الوقت أشهر زنجيٍّ في البلاد. أصبح منذ تأسيس معهد تسكيغي في ألاباما الممثلَ الأولَ للتدريب المهني للسكّان السود. كان يُعارض هياجَ الزنوج فيما يتعلق بمسائل المساواة السياسية والاجتماعية. ألّف كتابا أصبح من أكثر الكتب مبيعا عن حياته، عن كفاحه من العبودية وحتى تحقيق الذات، وعن أفكاره التي كانت تدعو إلى تحسينِ وضعِ الزنجيِّ بمساعدةِ جارِه الأبيض. نصح بالصداقة بين العِرقين وتحدث عن مستقبلٍ مبشّرٍ بالخير. أيّد آراءَه أربعةٌ من الرؤساء والسّوادُ الأعظمُ من حاكمي الولايات الجنوبية. تبرّع له أندرو كارنيغي ببعض المال لمعهده ومنحتْه هارفرد درجةً فخرية. ارتدى بدلة سوداء وقبعة هومبرغ. وقف في منتصف الشارع السادس والثلاثين، رجلا متينا وسيما مليئا بالفخر بما أنجزه بالطريقة التي كان يرى بها نفسه، ونادى كولهاوس أن يسمح له بالدخول إلى المكتبة. ازدرى استخدام مكبر الصوت. كان خطيبا جهوريّ الصوت. لم يكن في هيئته ما يُشير إلى احتماليةِ سوى أن يلبّي له الخارجون عن القانون طلبه. نادى: أنا قادم الآن. ومشى

بجوار الحفرة الموجودة في الشارع ثم عبْر البوابات الحديدية. صعد الدرجاتِ بين نُصُب الأُسُود الحجرية ووقف في ظلّ الرواق المقوّس بين الأعمدة الإيونية المزدوجة ثم انتظر أن تُفتح الأبواب. ران على المشهد حينها صمتٌ وسكونٌ سمحا لبوقِ سيارةِ أجرةٍ على بُعد شوارع بأن يُسمع بوضوح. بعد بضع لحظاتٍ فُتحت الأبواب. اختفى بوكر تي واشنطن في الداخل. أُغلقت الأبواب. على الجهة المقابلة من الشارع مسح المدعي العام ويتمان جبينه وغاص في كرسيّ.

وجد بوكر واشنطن مكتبةَ اللوحات الرائعة المذهّبة وصفوفَ الكتب النادرة، الطوابقَ الرخامية المليئة بالتماثيل، الجدرانَ الحريرية والأثاث الفلورنسي النفيس، كل هذا كان ملغّما جاهزا للتدمير. رُبطت ألواح ديناميت إلى الأعمدة الرخامية لقاعة الاستقبال. انقادت أسلاكٌ من الغرفة الشرقية إلى الغرفة الغربية على الأرض إلى أقصى قاعة الاستقبال حيث يوجد تجويف صغير. هناك جلس رجلٌ مفرشخا فوق مقعدٍ رخاميٍّ طويل. على المقعد صندوقٌ بمكبسٍ على شكل حرف T يُمسكه بكلتا يديه. كان يعطي الأبوابَ النحاسيةَ ظهَره ويميل إلى الأمام بحيث لو قتلته رصاصةٌ في الحال فسيرفع ثقلُ جسمِه المرتمي الضغطَ عن المكبس محررا إياه. التفت هذا الرجلُ الآن لينظر من فوق كتفه إلى واشنطن فسحب المربّي العظيم إلى الداخل نَفَسًا حادّا إذ رأى أنه ليس زنجيا وإنما رجلا أبيض قد سوّد وجهه كما لو كان في عرضٍ راقص. دخل واشنطن بذهنٍ صارمٍ وإرشاديٍّ ولكن بنيّة أن يكون دبلوماسيا. ازدرى الإقناعَ في تلك اللحظة. ألقى نظرةً إلى الغرفة الغربية ثم عبر القاعةَ نحو مدخل الغرفة الشرقية. توقّع أن يجد عشرات السُّود لكنه لم ير سوى ثلاثة أو أربعة شبّان يقف

كل منهم إلى جوار نافذة ببندقيةٍ في يديه. وقف كولهاوس منتظرا إياه في بدلةٍ أنيقةٍ مكويّةٍ بياقةٍ وربطةِ عنق على رغم أنه كان يحمل في حزامه مسدسا. نظر إليه واشنطن. تجعّد جبينه الوسيم وبرقت عيناه. تحدّث كالآتي مستدعيا كل قواه الخطابية: طوال حياتي عملتُ بصبرٍ وأملٍ من أجل أخوية مسيحية. كان عليّ أن أُقنع الرجلَ الأبيضَ بأنه ليس مضطّرا ليخاف منّا أو يقتلنا لأننا لم نُرِدْ سوى أن نحسّن أوضاعنا وننضمّ إليه بسلام في الاستمتاع بثمارِ الديمقراطيةِ الأمريكية. إنّ كلّ زنجيٍّ في السجن، كلّ رجلٍ أسمرَ كسولٍ عديمِ الفائدة مقامرٍ زانٍ هو عدوّي، وكل حادثةٍ أو زلّةٍ بطابعٍ زنجيٍّ تكلّفني جزءً من حياتي. ماذا سيكلّفني طيشُكم الإجرامي الضال! ماذا سيكلّف تلامذتي الذين يشْقَوْن لتعلّم حرفة يستطيعون بفضلها أن يعيشوا ويُسكِتوا انتقادَ البيض! إن ألفًا من الرجال السود الكادحين الأمناء لا يمكنهم أن يدفعوا الضررَ الذي يسببّه واحدٌ منكم. والأسوأ من ذلك أنك موسيقيٌّ بارعٌ كما علمتُ، واحدٌ يأتي إلى هذه المغامرة الشائنة من مدرسة الموسيقى، حيث يُبَجَّل الانسجامُ وتُعدّ أوتارُ القيثار وأبواق الجنّة نموذجا للأغنية. يا لك من رجل شنيع! لو كنتَ تجهل الكفاحَ المأساويَّ لقومنا لأشفقتُ على مغامرتك هذه. لكنك موسيقيّ! أنظر حولي وأشمّ عَرَقَ الغضب، العصيانَ العقيمَ لشبابٍ جامحٍ ولا يفكّر. ماذا علّمتَهم! أي ظلمٍ وقع عليك، أي فقدٍ عانيت منه، يمكن أن يبرّر القَدَرَ الذي قُدتَهم إليه، هؤلاء الشبان المتهوّرين؟ زِدْ على ذلك، عليك اللعنة، أنك تُضيف إلى هذه الجماعةِ الشريرةِ أبيضَ يلطّخ نفسه باللون ويزيد ترسانتَك سخرية.

سمع كلُّ عضوٍ من العصابةِ كلَّ كلمةٍ من هذا الخطاب. لم

يكونوا غارقين في الثورة ولذا لم يرعبهم حماسُ بوكر تي واشنطن الذي سمعوا عنه منذ أن كانوا أطفالا. لا بدّ وأنه كان من المهمّ لهم أن يعرفوا ردّة فعل كولهاوس. تحدث كولهاوس بصوت خفيض. قال: إنه لشرفٌ عظيمٌ أن ألتقيك يا سيدي. طالما أُعجبت بك. نظر إلى الأرضية الرخامية. صحيح أني موسيقيٌّ ورجلٌ راشد. ولكني آمل أن يُنبئك هذا عن حساباتِ ذهني الرصينة. وعليه آمل أن تفهم أننا، كلانا ربما، خادمان لعِرقنا ونصرّ على حقيقة إنسانيتنا والاحترامِ الذي تفرضه. ذُهل واشنطن من هذه الملاحظة لدرجة أنه بدأ يفقد وعيه. قاده كولهاوس من القاعة إلى الغرفة الغربية وأجلسه في واحد من كراسي نسيج البلش الأحمر. لمّا استعاد واشنطن هدوءه مسح جبهته بمنديل. نظر إلى الرفّ الرخامي للمدفأة التي بطول رجل. رفع بصره إلى السقف المنقوش متعدّد الألوان الذي جيء به من قصر الكاردينال جيغلي في مقاطعة لوكا. كانت على الجدران الحريرية الحمراء بورتريهات لمارتن لوثر رسمها لوكاس كراناش الأكبر ولوحات عديدة تصوّر سجود المجوس. أغمض المربّي عينيه وأشبك يديه في حضنه. قال: أيها الرب، اهدِ قومي إلى الأرض الموعودة. خلّصهم من سوط فرعون. حرّر عقولهم من الأصفاد وحلّ رباط الخطيئة الذي يوثقهم إلى الجحيم. كان فوق المدفأة بورتريه معاصر لبيربونت مورغن نفسه وهو في عزّ شبابه. تأمل واشنطن الوجهَ العابس. في هذه الأثناء جلس كولهاوس ووكر في الكرسي المجاور فأصبح الرجلان الأسودان الأنيقان يشكّلان معًا صورةً للاستقامة والتأمل الذاتي الوقور. اخرج معي الآن، قال بوكر واشنطن بصوت هادئ، وسأشفع من أجل الرحمة أن تكون محاكمتُك سلسةً وإعدامَك غير مؤلم.

قال وهو يشير بيديه إلى حزم الديناميت المربوطة في زوايا السقف المنقوش وعلى كل الجدران: فكّك محرّكات الشيطان هذه. خذ يدي وتعالَ معي. من أجل طفلك الصغير وكلّ أطفال عِرقنا أولئك الذين أمامهم دَرْبٌ عسيرٌ ورحلةٌ طويلة.

جلس كولهاوس تائها في التفكير. أخيرا قال: سيدي واشنطن، ليس هناك شيء أريده أكثر من إنهاءِ هذه المهمّة. رفع عينيه فرأى فيهما المربّي دموعَ عاطفته. دعْ رئيس محطة الإطفاء يُعيد سيارتي إلى واجهة هذا المبنى. وستراني خارجا بيدين مرفوعتين ولن يصيب كولهاوس ووكر هذا المكانَ أو أيَّ إنسانٍ بأذى.

اشتمل هذا البيان على أولِ تعديلٍ من كولهاوس لمطالبه منذ ليلة إميرالد آيل، لكن واشنطن لم يفهم هذا. لم يسمع سوى أن مناشدتَه رُفضت. قام من دون كلمةٍ أخرى ومشى مغادرا. عَبَرَ الشارعَ معتقدا أن تدخلّه لم يُثمر شيئا. بعد ذلك ذَرَعَ كولهاوس الغرف. بقي شبّانه في مواقعهم ولاحقوه بأعينهم. استلقى واحدٌ منهم على السطح فوق كوّة الرواق المقبّبة. استلقى في المطر حارسا وشعر بحضور آلاف النيويوركيين المتيقظين على رغم أنه لم يكن يراهم. أثناء الليل ظنّ أنهم أصدروا صوتا، صوتَ حدادٍ يكاد لا يُسمع، لا يتعدّى كونَه زفرة، لا يتعدّى صوتَ رذاذٍ خفيف.

38

بعد أن اجتمع بوكر تي واشنطن بالمدعي العام حدّث المراسلين الصحفيين في ردهة مقر الشرطة المؤقت. قال: مكتبة السيد مورغن قنبلة ديناميتية جاهزة للانفجار في أي لحظة. نحن أمام رجلٍ بائسٍ مختلّ العقل. لا يسعني إلا أن أسأل الربَّ بحكمته أن يُخرجنا من هذا القضية الحزينة بسلام. بعد ذلك أجرى واشنطن عددا من المكالمات الهاتفية مع أصدقاء وزملاء في هارلم -قساوسة كنائس وقادة اجتماعيين- ودعاهم أن يأتوا إلى وسط المدينة ويبرهنوا على معارضةِ الزنوجِ الأسوياءِ لفعل كولهاوس ووكر. أخذت تلك المظاهرة هيئةَ عشيةِ عيدٍ كَنَسِيّة في الشارع. وافق المدعي العام ويتمان على رغم أن التقرير القادم من المكتبة كان مُحبطا بما يكفي لأن يأمر بإجلاء كل منزلٍ وشقةٍ في نطاق مربعين سكنيين من كل الجهات. كان ذاك هو الوضع القائم عندما وصل الأب. اصطُحب عبر صفوف الشرطة وتجاوز الرجال السود حاسري الرؤوس الذين يقفون مُصلّين في صمت. نظر لوهلةٍ إلى المكتبة ثم صعد سلّم المبنى القرميدي. في الداخل تُرك وحيدا. لم يحدّثه أحد أو يطلب منه أحدٌ شيئا. التفت

في هذا الاتجاه وذاك في انتظارِ كلمةٍ أو إشعارٍ من السّلطات. لم يأت منها شيء.

كان المنزل مملوءً بعناصرِ الشرطة في زيّهم ورجالٍ لا يعرف مسؤولياتهم. يتحرك الجميع في كل اتجاه. تسكّع الأب في المطبخ. هناك وجد المراسلين الصحفيين. التهموا الطعام في الثلاجة. جلسوا رافعين أقدامهم على الطاولة ووقفوا متّكئين على الدواليب. ارتدوا قبعاتهم. استخدموا حوض المغسلة للبصاق. استمع الأب إلى المحادثة وسمع تفاصيلَ مقابلةِ بوكر تي واشنطن مع كولهاوس. تعجّب من شهرة الرجل الذي عزف البيانو في ردهة منزله. لكن بدا له الأمر كما لو أن كولهاوس عدّل مطالبه. هل كان هذا حقا؟ لم يفهم أحدٌ مقصدَه. مع ذلك لو كان تنازل كولهاوس عن حياة رئيس محطة الإطفاء أو جعلها قابلةً للتفاوض على الأقل، فإن عليه أن يُخبر أحدا. بحث عن مسؤولٍ فأُخذ إلى المدعي العام نفسه الذي تعرّف عليه من صُوَرِه في الجريدة. كان ويتمان واقفا أمام نافذة الردهة وفي يديه منظار. قال الأب: أستميحك عذرا، وبعد أن عرّف بنفسه أخبر ويتمان بما يعتقد. تأمّله المدعي العام بعينين جافلتين. لاحظ الأب عروقا دقيقة متشققة في وجهه. عاد ويتمان إلى النافذة ورفع منظاره محدقا مثل أدميرال. بقي الأب معه إذْ لم يعرف شيئا آخر يقوم به.

كان ويتمان في انتظار ردٍّ من السيد مورغن. واظب على النظر إلى ساعته. ثم عبر أحدهم الشارعَ راكضا. كانت هناك فوضى في المدخل. دخل صبيٌّ الردهة يتبعه القيّمون ومجموعة من رجال الشرطة. كان يحمل برقية لا سلكية من «كارمانيا». مزق المدعي العام المظروف. قرأ البرقية وهزّ رأسه غير مصدق. دمدم: اللعنة.

اللعنة حتى الجحيم! فجأة أخذ يصيح على الجميع في الغرفة. إلى الخارج! اخرجوا! ساق الجميعَ عبر الأبواب. لكنه أمسك بذراع الأب وأبقاه هناك. أغلقت الأبواب. رمى ويتمان البرقية في يدي الأب. كانت الرسالة تقول: أعطوه سيارته واشنقوه.

رفع الأب بصرَه فوجد المدعي العام يحملق فيه. قال ويتمان: هذه الطريقة الوحيدة التي لن أضعها في الحسبان أبدا. لا يمكنني أن أستسلم للزنجي. وحتّى شنقه. لا يمكنني احتمال ذلك. ستقضي عليّ. اللعنة، لقد تولّيتُ أمر بيكر ابن العاهرة ذاك. جريمة القرن. هذا ما سمّتها الصحف. والآن يستسلم المدعي العام لزنجي؟ لا يا سيدي! لا يمكن القيام بها!

ذرع ويتمان الغرفة. شعر الأبُ بنوبةِ جرأة. كان يحمل في يديه رسالة خاصة من جيه بيربونت مورغن. مكّنته من القبول مباشرة ومن دون أي سؤال بتنصيبه أمينا على سرّ مدعي نيويورك العام.

رأى الأب بوضوحٍ أن الحالةَ جاهزةٌ للتفاوض. حتّى مورغن فهم هذا وهو موجود في مكان قصيّ من العالم. لانَ كولهاوس على ما يبدو في واحدٍ من مطالبه، ألا وهو تسليم كونكلن له. إضافة إلى ذلك فإن الموت في رأي الأب أشدُّ رغبات كولهاوس ووكر منذ موت سارة. أخبر المدعي العام بهذا قائلا: يمكن حل المشكلة بأكملها بسرعة. ليس للسيارة قيمة حقيقية. زِدْ على ذلك أنها فكرة السيد مورغن. قال ويتمان: لأنه لا يمكن أن يفكّر فيها سوى بيربونت مورغن. لا يملك الجرأةَ سواه. قال الأب: كلا، أعني إنها فكرته. بالطبع لا أعرف الكثير عن السياسة، لكن ألا يُعفيك ذلك من المسؤولية؟ توقّف ويتمان عن حبل تفكيره وحدّق في الأب. قال: في هذه اللحظة تحديدًا كان من

المفترض أن أكون في نيوبورت مع عائلة ستايفيسانت فِش.

وهكذا حدث أن دنا فريقٌ من أحصنة الجرّ بعد منتصف الليل مباشرة من سيارة كولهاوس ووكر الفورد موديل تي المدمّرة المُلقاة في بركة محطة الإطفاء في نيو روتشيل. أمسَكَ المطرُ فظهرت النجوم. رُبطت الأحصنة إلى مقدّم السيارة فسحبتها إلى الطريق. بعد ذلك بدأت الرحلةَ الطويلةَ إلى المدينة، تقرع حوافرها على طول الطريق، يقف السائق في المقعد الأمامي ممسكا باللجام في يدٍ وبالمقودِ في الثانية. كانت إطارات السيارة مثقوبةً كلها فكانت السيارة تهتز، تزعج كل دورةٍ للعجلات الآذان بصريرها.

بينما كانت الفورد تتقدم في اتجاه مانهاتن تمكّن ويتمان من الاتصال بكولهاوس. أخبره أنه يريد التحدّث إليه بشأن مطالبه. اقترح أن يتوسط الأبُ في نقل المحادثة بين الطرفين. هذا أكثر خصوصية وسرية من الهاتف. قال ويتمان عن الأب: أنت تثق به وأنا أثق به. على الأقل عملتَ عنده فيما مضى. لا، قال الأب في أذن ويتمان الأخرى. لم يعمل عندي أبدا. ثارت لدى الأب شكوكٌ عميقة. في غضون دقائق قليلة جدا وجد نفسه في الخارج في مستهلّ الفجر البارد، يمشي عبر الشارع المُضاء بالكشّافات متفاديا الحفرة ثم يصعد الدرجات متجاوزا الأُسُود الحجرية. ذكّر نفسه أنه كان ضابطا متقاعدا من الجيش الأمريكي. استكشف القطب الشمالي. فُتحت الأبوابُ النحاسية جزئيا فخطا إلى الداخل. سُمعت خطواته تقرع على الأرضية الرخامية الصقيلة. أخذت عيناه لحظةً لتتكيّفا مع العتمة. بحث عن الرجل الأسود ورأى بدلا منه صِهره عاريا حتى الخصر، ولكن وجهه مصبوغ بالأسود، وتحت ذراعه مسدسٌ موضوعٌ

في قِراب. صاح الأب: أنت! سحب الخال الأصغر المسدس وألصق فوهتَه بصدغِه في نوعٍ من التحية. انهارت ركبتا الأب. سُوعد في الجلوس على كرسي. أحضر له كولهاوس مَزادةً فيها بعض الماء.

كان الاتفاق الأول بين الطرفين في تأجيل مهلةِ الأربع وعشرين ساعة. والاتفاق الثاني في أن تُوضع ألواحٌ خشبيةٌ على فوهة الحفرة الموجودة في الشارع. تردد الأب بين المبنيين مؤديا مهمّته باقتدار ولكن في حالةٍ خاصةٍ من الخدر كأنه مُسَرْنِم. كان يشعر بوخزات غريبة من السعادة المُرّة تقصم ظهره.

في الأثناء التي اتُّفق فيها على هاتين النقطتين كان ويتمان على الهاتف يستخدم كلّ ما في وسعه للعثور على ويلي كونكلن. أمر الشرطةَ بالبحث عنه في كل بلدة. ثم خطر له أن يهاتف تيم ساليڤان قائدَ الدائرة الانتخابية الرابعة وكبيرَ جمعية تاماني هول. أيقظه من النوم. قال: تيم، هناك زائر في المدينة، ويلي كونكلن من مقاطعة وست تشستر. قال تيم العجوز: لا أعرف الرجل لكني سأنظر في أمره. قال ويتمان: أنا متأكد من أنك ستفعل. في أقل من ساعة أحضر كونكلن إلى سلّم المبنى القرميدي مسحوبا من قفاه. كان مبللا وأشعثَ ومذعورا. فقد الأزرارَ السفلى من قميصِ عمله وبرز بطنُه من فوق حزامه. أُلقي به على كرسيّ في المدخل وأُمر بالسكوت. وقف على حراسته شرطي. كانت أسنانه تصطكُّ ويداه ترتعشان. وصل إلى جيبه الخلفي حيث يحمل مشروبا في كيس ورقي. خطف الشرطي ذراعه قبل أن يسحبها وسَاطَهُ بزوجٍ من الأصفاد على رأسه.

في الفجر عادت الحشود التي نقصت بطريقةٍ ما أثناء الليل إلى مكانها من جديد خلف السياج. وقفت الفورد موديل تي الصّدِئَة على

الشارع السادس والثلاثين تحاذي الرصيف أمام المكتبة. في لحظة محددة فتح بابُ المبنى القرميدي وخرج من إطاره شرطيان يحملان بينهما ويلي كونكلن. أُخذ هناك للفرجة. ثم أعيد إلى الداخل من جديد فبدأ ويتمان، الذي أحضر بحسن نيةٍ موضوعَي الجَدَل، السيارة ورئيس الإطفاء، يضع شروطه الآن. حثّ نظيره في وست تشستر إلى توجيه تهمٍ ضدّ ويلي كونكلن بداعي الضرر الكيدي المتعمد والتخريب واحتجاز مواطنٍ احتجازا غير شرعي. بالإضافة إلى ذلك يتعيّن على رئيس الإطفاء أن يُعيد في الموقع وأمامَ مرأى الجميع الفورد موديل تي إلى حالتها. ستكون إهانةً له أن يعيش باقي حياته. والسيارة بالطبع ستُعاد جديدة. أراد ويتمان في المقابل أن يستسلم كولهاوس ورجالُه. قال: وبعد ذلك أضمنُ لك أن تحصل على امتيازاتك وحقوقك حسب القانون.

عندما أخذ الأب هذه الشروط إلى المكتبة ضحك الشبّان وصفّروا. قال بعضهم لبعض: لقد نلنا منه. إنه يستسلم. سنحصل على الفطيرة كاملة. أنعشهم مرأى السيارةِ وفُرجةُ كونكلين. لكن كولهاوس نفسه كان مُطرِقا. جلس وحده في الغرفة الغربية. انتظره الأب. تدريجيا تغلّب تأملُ كولهاوس الكئيب على معنوياتِ الشبّان المرتفعة حتى اعتراهم قلقٌ. في الأخير قال كولهاوس للأب: سأستسلم بنفسي من دون صِبيتي. أطالب لهم بمرورٍ آمِنٍ من هنا وعفوٍ تامٍ كامل. لكن ابقَ هنا، أرجوك، حتى أُخبرهم.

نهض كولهاوس من كرسيه وخرج ليحدّث الشبان في القاعة. تجمّعوا حول صندوق التفجير. كانوا منذهلين. قالوا: لستَ مُجبَرا على أن تعطيه شيئا. إننا نتحكّم هنا بمورغن! لستَ مُجبَرا على

التفاوض حول شيء. أعطونا كونكلين وتلكَ السيارة ودعونا نخرج من هنا واستردّوا المكتبة! ذاك هو التفاوض، يا رجل، ذاك هو التفاوض المنشود!

ظلّ كولهاوس ساكنا. تحدث بصوت خفيض. قال: لا أحدَ منكم تعرفه السُّلطات بالاسم. بإمكانكم أن تختفوا في المدينة وتستأنفوا حيواتِكم. جاءت إجابتهم: بإمكانك فعل الشيء نفسه أيضا. قال كولهاوس: كلا. لن يدعوني أخرج من هنا أبدا، تعرفون ذلك. وإن فعلوا فلن يدّخروا جهدا في مطاردتي. وكل من كان معي سيُطارَد. وستموتون جميعا. لأيّ غرض؟ لأيّ فائدة؟

قال واحدٌ منهم: دائما ما كنا نشترك في النقاش من قبل. والآن تنفردُ به وحدك. لا يمكنك أن تفعل هذا يا رجل! كلّنا كولهاوس! قال آخر: لا يمكننا أن نخرج، سنفجر المكان. قال الخال الأصغر: ما تقوم به خيانةٌ لنا. إمّا أن نكون أحرارا جميعا وإمّا أن نموت جميعا. أنتَ وقّعتَ رسالتك برئيس الحكومة الأمريكية المؤقتة. أومأ كولهاوس. قال: كان خطابا احتجنا إليه على ما يبدولمعنوياتنا. لكنّنا كنّا نعنِيه! صاح الخال الأصغر. لقد كنّا نعنِيه. في الشوارع ما يكفي من الناس ليشكّلوا جيشا!

بالتأكيد لا يمكن لأيّ مُنَظّرٍ للثورة أن ينكر حقيقةَ أنّه أمام عدوٍّ بحجمِ دولةٍ كاملةٍ من العِرق الأبيض، تُعتبر استعادةُ سيارةِ الفوردِ موديل تي نقطةً جيدةً لانطلاقِ ثورة، شأنها شأن أي شيء آخر. كان الخال الأصغر يصرخ الآن. لا يمكنك أن تبدّل مطالبنا! لا يمكنك أن تقلّص من معنى مطالبِك! لا يمكنك أن تخذلنا من أجل سيارة! قال كولهاوس: لم أبدّل مطالبي. قال الخال الأصغر: وهل الفورد

اللعينة تمثّل بالنسبة لك العدالةَ؟ نظر كولهاوس إليه. قال: بالنسبة لإعدامي فقد كُتب موتي منذ اللحظة التي ماتت فيها سارة. أما بالنسبة لسيارتي الفورد البائسة فستُعاد إلى ما كانت عليه في اليوم الذي مررتُ فيه من أمام محطة الإطفاء. لستُ الذي يخفّض مطالبه، لكنهم هم من ضخّمها بمقاومتهم إياها. سأشتري حيواتِكم الثمينة مقابلَ حياةِ ويلي كونكلين وسأشكر الله عليه.

عاد الأب بعد بضع دقائق ماشيا إلى الشارع. كان كولهاوس ووكر مستعدّا في سبيلِ الحصولِ على العدالة لأن تُطبَّق عليه أيضا. لكن أتباعه لم يكونوا كذلك. كانوا من جيلٍ آخر. لم يكونوا بشرا. تملّكت الأب قشعريرة. كانوا أشرارا! لقد أعادت قضيّتُهم تشكيلَ أذهانهم. يركلون عِمادَ العالَم. بِدءُ جيش! لم يكونوا سوى ثوريين قذرين.

صار الآن تعنُّتُ كولهاوس الشهير في مواجهةٍ مع جدلِ رجاله. كان هو الذي حال بين السيد مورغن والكارثة. لم يُسِرّ الأب بأيٍّ من هذا للمدعي العام. شعر بأن ويتمان مشغولٌ بما فيه الكفاية بالشروط الرسمية. اتضح أن هذا ما حصل بالفعل. شرب ويتمان عدةَ جرعاتٍ من الويسكي. غطى الشعرُ الخشنُ وجهه. كانت عيناه البارزتان حمراوين وذبلت ياقته. ذرع الغرفة. وقف أمام النافذة. جمع يده اليمنى في قبضةٍ ضرب بها راحةَ كفه اليسرى مرات عديدة. نظر من جديدٍ إلى برقية مورغن. تنحنح الأب. قال: لم تقل البرقية إن عليك أن تشنق شركاءَه. قال ويتمان: ماذا؟ ماذا؟ صحيح، صحيح. بحث عن كرسيٍّ يجلس عليه. قلتَ كم يوجد منهم هناك؟ خمسة، قال الأب، مستثنيا الخال الأصغر من دون وعي. تنهّد ويتمان. قال الأب: أعتقد أن هذا أفضل ما يمكنك القيام به. قال

المدعي العام: بكل تأكيد. وماذا عساي أن أقول للصحف. يمكن أن تقول لهم، أولا، أُلقي القبضُ على كولهاوس، وثانيا، حُفظت كنوزُ السيد مورغن، وثالثا، المدينةُ آمنةٌ، ورابعا، سوف تُسخر كل مرافق مكتبك وإمكانات الشرطة للبحث عن أتباع كولهاوس حتى يُودَع آخرُ واحدٍ فيهم السجنَ حيث ينتمون. فكّر ويتمان فيما سمع. تمتم: سنتعقّبهم. لنعدْ إلى المهمّ. قال الأب: حسنا، قد لا يكون ذلك ممكنا. إنهم يأخذون رهينةً ولن يُفلتوه حتى يتأكدوا من سلامتهم. قال ويتمان: مَن الرهينة؟ قال الأب: أنا. قال ويتمان: فهمت. وما الذي يجعل الزنجي يعتقد أن بإمكانه السيطرة حينها على المبنى وحده؟ قال الأب: حسنا، سيخرج من كوّة السقف أو النوافذ ويداه على صندوق الديناميت. سيُنهي ذلك المهمة فيما أعتقد.

لعل الأب في هذه اللحظة جدّد الأمل في أنه يستطيع أن يقود السلطات بعد إطلاقه إلى عرين المجرمين. أدرك أنهم من دون كولهاوس سيفقدون الروحَ المعنويةَ والذكاءَ لمواصلة الخروج عن القانون بنجاح. كانوا قتلةً أناركيّين ومُخرّبين لكنه لم يكن خائفا على المستوى الشخصي. عرف طباعَهم وهو خيرٌ من أي واحدٍ فيهم. أما الخال الأصغر فقد كان معزولا عنه بالكليّة لدرجة أنه لم يشعر في هذه اللحظة بسوى الفرحِ للتفكير في مسؤوليته عن القبض عليه.

كان ويتمان يحدّق في الفراغ. قال: حسنا. حسنا. ربما لو انتظرنا إلى الليل فلن يرَ أحدٌ ما نقوم به. من أجل السيد مورغن وإنجيل غوتنبيرغ اللعين ورسالة جورج واشنطن اللعينة ذات الخمس صفحات التي يحتفظ بها.

وبهذا تكون المفاوضات قد اختتمت.

39

بفضل عدةِ مكالماتٍ بمنسوبي مصنع فورد للسيارات أُحضرت عند الساعة الثامنة صباحا شاحنةٌ تحمل كلَّ قِطعِ الغيارِ لموديل تي. وأرسلت شركةُ بانتاسوتي سقفا جلديا. وافق مساعدو مورغن على أن تُكتب كل الفواتير باسمه. تابع المتفرّجون من الزاوية رئيسَ الإطفاءِ كونكلين يفكّ، تحت توجيه اثنين من الميكانيكيين، سيارةَ الفورد قطعةً قطعةً ويصنع سيارةً جديدةً بدءً من الهيكل فصاعدا. استُخدمت بكراتٌ لرفع المحرك. قام كونكلين بعمله وهو يعرق وينخر ويتذمّر ويبكي أحيانا. استُبدلت العجلاتُ القديمةُ بجديدة، ورُكّبت رفارفُ جديدةٌ ومبرّدٌ جديدٌ وأبوابٌ جديدةٌ وحوافّ للقدم عند الركوب وزجاجٌ أماميٌّ ومصابيحُ أماميةٌ ومقاعدٌ منجَّدة. بحلول الخامسةِ مساءً، والشمسُ ما تفتأ متوهجة في سماء نيويورك، كانت سيارةُ فورد موديل تي سوداء لامعة بسقف جلدي مخصّص تقف على الرصيف.

ناشد أتباع كولهاوس الأخيرَ طوالَ اليوم أن يغيّر رأيه. أخذ خصامُهم يشتدّ أكثر فأكثر. قالوا إنهم أمّة. كان حليما معهم. بدا

جليًّا أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون من دونه. اعتبروا قراره انتحارا. شعروا بالبؤس من جرّاء تخلّيه عنهم. في آخر المساء سادت المكتبةَ كآبةٌ. راقب الشبّان بسأمٍ من النوافذ السيارةَ التي تودّد من خلالها كولهاوس إلى سارة تُعاود الظهورَ على الرصيف.

لم يذهب كولهاوس نفسه ولا مرّة إلى النافذة لينظر إليها. جلس على مكتب بيربونت مورغن في الغرفة الغربية وكتب وصيّته.

انسحب الخالُ الأصغر في وجعٍ صامت. أراد الأب المحتجَز الآن في المكتبة باعتباره رهينةً رسميةً أن يتحدث معه. كان يفكر في ماذا يمكن أن يقول للأم. لم يستطع أن يواجهه إلا عندما ساد الظلام واقتربت ساعةُ المغادرة. قد تكون آخرَ لحظةٍ سريةٍ يحصلان عليها معا.

كان الرجل الشاب في الحمّام خلف قاعة الاستقبال. كان يمسح الفلّينَ المحروقَ عن وجهه. نظر إلى الأب من خلال المرآة. قال الأب: أنا شخصيًّا لا أطلب منك شيئا. لكن ألا تظنّ أن أختك تدين لك بتوضيحٍ؟ قال الخال الأصغر: لو أنها تفكر فيّ فسيكون لديها تفسيرها. لا يمكنني أن أنقله من خلالك. أنت رجل معتدّ بنفسك من دون تفكيرٍ في التاريخ. تعطي موظفيك رواتبَ ضئيلةً ولا تملك حساسيةً تجاه احتياجاتهم. قال الأب: فهمت. قال الخال الأصغر: حقيقةُ أنك تنظر إلى نفسك باعتبارك سيّدا في كل معاملاتك هي ببساطة خداعُ الذاتِ الموجودِ عند كل مَن يضطهد الإنسانية. قال الأب: لقد عشتَ تحت سقف بيتي وعملتَ في تجارتي. قال الخال الأصغر: كرمك هو ما شعرتَ أن في استطاعتك أن تمنحه. زِدْ على هذا أني قد أوفيتُ بذلك الدَّيْن كما ستكتشف لاحقا. غسل الخال

الأصفر وجهه بالصابون والماء الساخن. تحرّك حركة قوية بينما رأسه فوق المغسلة. جفّف نفسه بمنشفة طُرزت عليها الأحرفُ الأولى من اسم مورغن: JPM. ألقى بالمنشفة على الأرض، لبس قميصه، وبحث في جيوبه عن أزرار الأكمام، وضع ياقته فوق القميص، ربط ربطة العنق، ثم رفع حمالتي البنطلون. قال: سافرتَ إلى كل مكانٍ ولم تتعلم شيئا. تخال أن دخولنا هذا المبنى الذي يملكه رجلٌ آخر وتهديدنا ممتلكاته جريمةٌ. في الحقيقة هذا وكرُ نَسْر. عرينُ ابنِ آوى. ارتدى معطفه ومرر كفّيه على رأسه المحلوق ووضع قبعة الديربي على رأسه ونظر إلى نفسه في المرآة. قال: وداعا. لن ترني مرة أخرى. أخبر أختي أني أفكّر فيها دائما. حدق هنيهةً في الأرض. تنحنح. قد تخبرها أني طالما أحببتُها وأُعجبتُ بها.

التقى أفرادُ العصابة في قاعة الاستقبال. يرتدون الآن زيّ كولهاوس الرسمي بالبدلة وربطة العنق وقبعة الديربي. أخبرهم كولهاوس أنه ينبغي عليهم أن يسحبوا حوافّ القبعات إلى أسفل ويرفعوا ياقات المعاطف لكيلا يتعرّف عليهم أحد. ستكون الفورد موديل تي وسيلتَهم للمغادرة بأمان. وَصَفَ لهم كيفيةَ تشغيل السيارة وإدارة محرّكها بواسطة الكرنك. قال: ستهاتفونني عندما تكونون أحرارا. قال الأب: ألن أذهب؟ قال كولهاوس مُشيرا إلى الخال الأصفر: هذا هو الرهينة. كلُّ وجهٍ أبيض يبدو تماما مثل الآخر. ضحكوا جميعا. عانق كولهاوس كلَّ واحد منهم أمام البوابة النحاسية الكبيرة. عانق الخالَ الأصفرَ بالحماس نفسه الذي أظهره للآخرين. نظر إلى ساعة جيبه. في هذه اللحظة انطفأت مصابيحُ الكشّافات في الشارع. أخذ مكانَه في التجويف في أقصى القاعة، مفرشخا على

المقعد الرخامي الطويل ويداه على صندوق الديناميت المتفجر. صاح به الخال الأصغر: هناك ارتخاءٌ طفيفٌ في المكبس عند المنتصف. قال كولهاوس: حسنا. اذهبوا الآن. فتح أحد الشبّان رتاجَ الأبواب فخرجوا من دون طقوس. ثم أُغلقت الأبواب. أمر كولهاوس: أغلِقْه بالمزلاج، أرجوك. فعل الأب كذلك. وضع أذنه على الأبواب. لم يكن يسمع سوى تنفّسه الثقيل والمرعوب. ثم بعدَ ما بدا له فترة طويلة معذِّبة، فاض فيها منُه كلُّ أملِه في الحياة تقريبا، سَمع سعالَ محرِّكِ الموديل تي وقرقعتَه. بعد عدة لحظات عُشّق الترسُ وسَمع السيارة تنطلق. كان هناك صوتُ طقطقةٍ عاليةٍ لمّا سارت السيارة فوق الألواح الموضوعة على الحفرة. ركض إلى آخر القاعة. قال لكولهاوس ووكر جونيور: لقد ذهبوا. كان الرجل الأسود يرنو إلى يديه التي تثبّت مكبسَ صندوقِ المتفجرات. جلس الأب على الأرض مسندا ظهرَه إلى الجدار الرخامي. رفع ركبتيه وأراح رأسه. جلسا على ذلك النحو من دون أن يتحرك أحدٌ منهما. بعد فترةٍ طلب كولهاوس من الأب أن يُخبره عن ابنه. أراد أن يعرف ما إذا كان يمشي وبشهيّةٍ جيدةٍ، أراد أن يعرف ما إذا كان ينطق أيّا من الكلمات بعدُ، أراد أن يعرف كل تفصيلٍ يطرأ على باله الآن.

IV

. 40 .

بعد حوالي ساعتين هبط كولهاوس ووكر جونيور درجَ المكتبة رافعا يديه وبدأ يعبر الشارع السادس والثلاثين نحو المبنى القرميدي. فعل هذا حسب الاتفاق الذي انتهت إليه المفاوضات. أُخلي الشارع من المتفرجين. كانت فرقةٌ من شرطة نيويورك مسلحةٌ ببنادق قصيرة تنتظره على الرصيف المقابل. اصطّفت من رصيف إلى الآخر كتيبتان متقابلتان من خيّالة الشرطة تفصل بينهما مسافة ثلاثين ياردة، تتراصّ الأحصنة جنبا إلى جنبٍ مشكّلةً ما يشبه الرواق. لذا لم يكن كولهاوس مرئيّا لكل مَن نظر مِن تقاطع جادة ماديسن أو جادة بارك. هدرت المولّدات عند الزاوية هديرا مخيفا. في الشارع المضاء بالمصابيح الكشّافة قالت الشرطة إن الرجل الأسود ينطلق نحو حرّيته. على الأرجح أدرك أن كلَّ ما عليه فعله لكي يُنهي حياته هو أن يلتفت فجأة أو يخفض يديه أو يبتسم. في داخل المكتبة سمع الأب وابنَ فرقةِ إطلاقِ النار. صرخ. ركض نحو النافذة. انتفض الجسدُ في الشارع في سلسلةٍ من الأوضاعِ وكأنما يريد أن يمسحَ دمَه. تصرّف رجال الشرطة بناءً على أمرٍ بإطلاق النار. نخرت الأحصنةُ وجفلت.

فكّرت عصابةُ كولهاوس من مخبئها شمالا في هارلم في مآل الأمور. كانوا جميعا هنالك ما خلا الرجلَ الذي اتّبعوه. بدت الغرفة خاوية. لم يعد شيءٌ يهمّ. يكادون لا يجدون موضوعا للحديث. قرروا البقاء في نيويورك جميعهم باستثناء الخال الأصغر. كانت الفورد موديل تِي مخبوءةً في زقاقٍ مُوازٍ. افترضوا أنها لوحظت من قِبل الشرطة. ولأن الخال الأصغر أراد أن يغادر المدينة أُهدي السيارة. قادها تلك الليلة إلى الواجهة البحرية عند الشارع 125 واستقلّ العبّارة إلى نيوجيرسي. اتّجه بالسيارة إلى الجنوب. يبدو أنه يملك بعض المال الذي لم يُعرف كيف حصل عليه ومن أين. قاد السيارة إلى فيلادلفيا. قادها إلى بالتيمور. قادها إلى عُمق الجنوب حيث وقف الزنوجُ في الحقول ليشاهدوه إذْ تجاوزهم. أثارت سيارتُه ذيلا من الغبار في السماء. قادها عبر البلدات الصغيرة في جورجيا حيث يتحدث المواطنون في ظلالِ الأشجارِ الشحيحةِ في الميادينِ عن شنقِ اليهوديّ ليو فرانك لقاءَ ما صنع بالفتاة المسيحية ذات الأربعة عشر ربيعًا ميري فيغان. كانوا يبصقون في التراب. سابق الخالُ الأصغر قطاراتِ الشحنِ وسار بسيارته في العتمة الباردة للجسور المغطّاة. لم يستخدم خرائط. نام في الحقول. قاد السيارة من مضخّةِ بنزين إلى مضخةِ بنزين. كدس في المقعد الخلفي تشكيلةً من الأدوات وأنابيب العجلات وعُلب الزيت وعُلب البنزين والمشابك والأسلاك وقطع غيار المحرك. واصل طريقَه. أصبحت الأشجار أكثر تباعدا. في نهاية الأمر اختفت. كان هناك صخرٌ وشجيراتٌ شاحبة. استدرجتْه المَغارِبُ الجميلة إلى أوديةٍ من الطين القاسي الذي شقّقته الشموس. عندما توقفت الفورد ولم يستطع إصلاحها سحبَه الأطفالُ الجالسون على

ظهور عربات تجرّها البغال.

في مدينة تاوس من ولاية نيو مكسيكو لقي مجتمعًا من البوهيميين صبغوا مشاهدَ صحراويةً بالألوان ولبسوا دُثُرا طويلة. كانوا من قرية غرينويتش في نيويورك. جذبهم إعياؤه الشديد. كان شديدَ الحزنِ حتّى وهو يُنادِمهم على الشراب. تزوّد بالمكوث هناك عدة أيام. استمتع بعلاقةٍ قصيرةٍ مع امرأةٍ تكبره.

لكن شَعَرَ الخال الأصغر المتفرق طال الآن بما يكفي لأن يسقط على رأسه. أطلق لحيةً شقراء. تقشّرت بشرته الفاتحة باستمرار وصار يُغمض عينيه جزئيا من جرّاء الشمس. واصل القيادة إلى تكساس. بليت ملابسه. ارتدى مرايل طويلة وحذاءً بلا كعب وبطانيةَ هنودٍ حمر. على المدينة الحدودية بريسيديو باع الفورد على صاحب بقالة ولم يأخذ معه سوى مَزادة ماءٍ كان يعلّقها على غطاء مُبرّد السيارة، واجتاز نهر ريو غراندي إلى أوخيناغا في المكسيك. كانت مدينةً تعاقب على احتلالها الجيشُ الحكومي والمتمرّدون. لم يكن لبيوت أوخيناغا المبنيّة من اللَّبِن سُقوف. في جدران الكنائس ثقوبٌ صنعتْها البنادق. عاش أهالي القرى خلف جدران حظائرهم. الشوارع ترابية بيضاء. كانت قد عُيّنت هنا بعضُ قوات كتيبة فرانشيسكو فيّا الشمالية. ألصق نفسه بهم وقُبِلَ رفيقا.

لما زحف فيّا جنوبا إلى توريون، على بُعد مئتي ميل على امتداد سكة القطار المركزي المهجورة، كان الخال الأصغر من ضمن الجيش. قطعوا صحراء المكسيك العظمى ذات الصّبار الأسطواني. عسكروا في مزارع وفي بَرْدِ الأديرة الكاستيلية دخّنوا الماكوشَ الملفوفَ في قشور الذرة. كان هناك القليل من الطعام. حملت نساءٌ بشالاتٍ داكنةٍ

جِرارَ الماء فوق رؤوسهن.

بعد النصر في توريون ارتدى الخال الأصغر حزامَ مخزنِ الذخيرةِ المتقاطعِ على صدره. صار من جنود فيّا لكنه حلم بالمواصلة حتى العثور على زاباتا. تنقّل الجيشُ على سطوح عربات قطارات الشحن. كانت عائلاتُ الجنود ترافقهم. عاشوا على سطوح القطارات بمسدساتٍ وسُرُرٍ وسلالٍ فيها طعامهم. تبعت المعسكر نساءٌ يتعلّق أطفالهن في أثدائهن. انتقلوا عبر الصحراء بينما يعود إليهم دخانُ المحرك وخَبَثُه ليلسع أعينهم ويحرق حلوقهم. كانوا يضعون مظلاّت بينهم وبين الشمس.

عُقد اجتماعٌ في مكسيكو سيتي لقادة المتمردين من مختلف المناطق. كانت لحظة أخرى لزم فيها أن تُعَرَّفَ الثورة. بعد الإطاحة بالطاغية الحقير دياز استلم السلطةَ إصلاحيٌّ اسمه ماديرو. سقط ماديرو وأعقبه أزتيكيٌّ يُدعى الجنرال هويرتا. الآن ذهب هويرتا ويحاول معتدلٌ اسمه كارّانزا السيطرة. هاجت العاصمةُ بفصائل متكاثرة، بيروقراطيين لصوص ورجال أعمال أجانب وجواسيس. في أثناء هذه الفوضى وصل من الجنوب جيشُ زاباتا من الفلاّحين. هدأت المدينةُ بوصولهم. كان صيتُهم مرعبا لدرجة أنّ المدنيين المكسيكيين كانوا يخشونهم. وقف الخال الأصغر بصمتٍ مع جيش فيّا وراقبهم يجولون في المدينة. ثم بدأ المكسيكيون يضحكون. فمحاربو الجنوب المرعبون لم يستطيعوا التحدث بشكل مناسب. كان كثيرٌ منهم أطفالا. اتّسعت أعينهم من الدهشة عند رؤية قلعة تشابولتبيك. كانوا يرتدون أسمالا. وعوضا عن أن يخطُوا بأقدامهم على أرصفة «ممشى الإصلاح» وهو شارع عريض من القصور والأشجار والمطاعم

الخارجية، فضّلوا المشي في وسط الشارع بين أرواث الأحصنة. أخافتهم القطاراتُ الكهربائيةُ في المدينة. أطلقوا رصاصَ بنادقِهم على سيارات محركات الإطفاء. أما زاباتا العظيم بنفسه فترك المجال لفيّا ليعتلي كرسي الرئاسة بينما جلس لتُلتقط له صورٌ في القصر.

لم يحبّ فلاحو الجنوبِ مكسيكو سيتي ولا ثورة المعتدلين. عندما غادروا غادر معهم الخال الأصغر. لم يكن قد كشف أبدا عن معرفته الخاصة لجنود فيّا. لكنه قال لإيميليانو زاباتا أستطيع أن أصنع قنابلَ وأُصلح المسدسات والبنادق. أعرف كيف أفجّر الأشياء. أُجريت تجربةٌ في الصحراء. ملأ الخال الأصغر أربعة من ثمار القرع الجافة بترابٍ من عند قدمه. أضاف بضعَ قبضاتٍ من البارود. لفّ خيوطَ الذرة صانعا منها فتيلا. أشعل الفتيل وبطريقة منهجيّة رمى في كل جهةٍ من جهات البوصلة الأربع ثمرةَ قرع. تركت الانفجاراتُ حفرا في الصحراء بعرضِ عشرة أقدام. في السنة التالية قاد الخال الأصغر غاراتِ حربِ عصاباتٍ على حقول النفط ومصاهر المعادن والمواقع العسكرية الحكومية. أكنّ له الزاباتيون احتراما لكنهم أيضا اعتبروه متهوّرا. في واحدة من غزوات التفجير تعرض سَمْعُه للعَطَب. في النهاية أصابه الصمم. شاهد تفجيراتِه لكنه لم يعدْ يسمعها. انهارت قواعدُ سككِ القطارِ الحديديةِ الجبليةِ النحيلةِ بصمتٍ في الأودية السحيقة. وانهارت المصانعُ المسقوفةُ بالصفيح في بياضِ الغبار. لسنا متأكدين من الظروف الدقيقة لموته لكن يبدو أنها حدثت في مناوشةٍ مع قوات الحكومة قرب مزارع تشيناميكا في موريلوس، المكان ذاته الذي أُردي فيه بعد سنواتٍ زاباتا نفسه قتيلا في كمينٍ.

في هذا الوقت بالطبع كان وودرو ويلسن رئيسَ الولايات المتحدة

الأمريكية. انتخبه الناسُ نظرا لصفاته باعتباره محاربا. فاتت على تيدي روزفلت غريزة الشعب. اتّهم روزفلتُ ويلسنَ بأنه يمقت الحرب. اعتقد أن ويلسن يملك الفمَ المتزمّتَ الرافضَ لِمَن أكل سمكة بعظامها. لكن الرئيس الجديد مرّن قواتِ البحرية بإرسالها إلى ڤيرا كروز. كان يمرّن الجيش بإرساله وراء الحدود لمطاردة فرانشيسكو فيّا. ارتدى نظارةً من دون إطارات وتمسّك بآراء أخلاقيّة. عندما جاءت الحرب العالمية الأولى كان يشنّها بغضبِ مَن تعرّض لإهانة. لم يَحْيَ بعد مقتِ ويلسن للحرب لا كوينتين ابن ثيودور روزفلت الذي لقي حتفه في قتال عنيف فوق سماء فرنسا، ولا العجوز نفسه، عضو الحزب التقدميّ الذي مات كمدًا بعد ذلك بقليل.

كانت أماراتُ الجحيم القادم في كل مكان. في أوروبا افتُتح قصرُ السلام في لاهاي وأرسلت اثنتان وأربعون دولةً ممثّلين لها لحضور مراسم الافتتاح. انتهى مؤتمرٌ للاشتراكيين في ڤيَنّا إلى أن الطبقة العاملة في العالم لن تحارب مرة أخرى معاركَ القوى الإمبريالية. كان الرسامون في باريس ينفّذون بورتريهات بعينين في جهةٍ واحدةٍ من الرأس. نشر أستاذٌ جامعيٌّ يهودي في زيوريخ بحثًا يُثبت أن الكون مقوَّس. لم يفُتْ شيءٌ من هذا على بيربونت مورغن. نزل في تشيربورغ، بعد أن نسي تماما حادثة الرجل الأسود المجنون في المكتبة، وسلك طريقه المعتاد عبر القارة متنقّلا من دولة إلى أخرى في قطاره الشخصي ومشاركا المصرفيين والرؤساء والوزراء والملوك أعشيتَه. في المجموعة الأخيرة من هؤلاء لاحظ تقهقرا بيّنا في معنوياتهم. إن لم تكن العائلاتُ الملكيةُ كئيبةً كانت هستيرية. يُسقطون كؤوسَ النبيذ أو يُتأتئون أو يصرخون على الخدم. دأب على مراقبتهم. توصّل إلى قناعةٍ بأنهم

قد عفا عليهم الزمن. كانت تجمعهم صِلاتُ قرابة من دولةٍ إلى التي تليها. ظلّوا يتزاوجون فيما بينهم على مدى قرون طويلة حتى أنهم لم يتوارثوا سوى الصفات التي قَدِروا عليها: الجهل والحماقة. في مأتم إدوارد السابع في لندن تدافعوا كالأطفال بالمرافق والمناكب من أجل الحصول على مكانٍ في موكب الجنازة.

ذهب مورغن إلى روما واكترى طابقَه المعتاد في «غراند هوتيل». سرعان ما امتلأ صحنُ كبير الخدم الفضي بالبطاقات. استقبل مورغن على مدى أسابيع نبلاء وأمراء وأرستقراطيين آخرين. وصلوا بقطعٍ أثريةٍ توارثتها عائلاتُهم عبر الأجيال. كان بعضهم فقيرا وكان ثلة منهم يأملون في تحويل رؤوس أموالهم فقط. لكنهم جميعا كانوا يريدون مغادرة أوروبا في أسرع وقت ممكن. جلس مورغن في كرسيٍّ منتصبٍ ويداه مطويّتان فوق العكّاز الذي بين ركبتيه، يشاهد اللوحات والخزف الإيطالي والفخّار والخزف الصيني وآنية النحاس والمنحوتات وكتب القدّاس. يومئ أو يهز رأسه. امتلأت الغرف تدريجيا بالأشياء. عُرض عليه صليبٌ ذهبيٌّ جميلٌ ينسحب فيصبح خنجرا. أومأ موافقا. في ردهة الفندق وعلى الأبواب وفي الشارع امتد صفٌّ من الأرستقراطيين. ارتدوا معاطف صباحية وقبعات عالية وقطع قماش تغطي كواحلهم. أمسكوا بعكّازات المشي. حملوا حزمًا ملفوفة في ورقٍ بنّي. بعضُ أشدِّهم تفريطا عرضوا زوجاتِهم وأطفالَهم. نساء شابات حسناوات ببشرة شاحبة وعيون شديدة الكآبة. شبّان مرهفون. أحضر واحدٌ توأمين، صبيّا وفتاة، في مخملٍ ودانتيلٍ رمادي. خلع ملابسهما وأدارهما في كل اتجاه.

بقي مورغن في أوروبا إلى أن أشار إليه وكلاؤه بأن سفينته

البخارية تنتظر في الإسكندرية، مزوّدة وجاهزة للإبحار. قبل المغادرة حاول للمرة الأخيرة أن يقنع هنري فورد بأن يأتي معه إلى القاهرة. كتب برقيةً مطوَّلة. جاء الردُّ من فورد بأنه لا يقدر على مغادرة ميتشيغن لأنه دخل في مرحلةٍ حساسةٍ من المفاوضات مع مخترعٍ قادرٍ على تزويد محرّك السيارة بالمسحوق الأخضر. أمر مورغن بتوضيب حقائبه. بعد أن أعطى تعليماتٍ حول وضع مقتنياته في صناديقَ لشحنها سافر. كان الوقت خريفا. لما وصل إلى الإسكندرية صعدَ قاربَه، قارب تجديفٍ بخاريًا مصنوعا من الحديد، وبعد أن ألقى نظرة وحيدة من الرصيف صعد متن السفينة وأوعز إلى القبطان في الإبحار.

كانت نيّة مورغن أن يبحر في مصر عبر النيل ويختار موقعا لهرمه. أخفى في خزنة قاعته مخططاته الهندسية التي صممتها له سرًّا شركة ماكيم ووايت. توقّع أنه مع تقنيات البناء الحديثة واستخدام الحجارة المقصوصة سَلَفا والجواريف والرافعات البخارية ونحوها، يمكن تشييد هرمٍ جيّدٍ في أقلّ من ثلاث سنوات. أدهشته الاحتماليةُ كما لم يدهشه شيء من قبل. ستكون هناك حجرةٌ ملكيةٌ تمويهيةٌ مثلما تكون هناك حجرات ملكية حقيقية وغرفة كنوز حصينة وصالة عرض فخمة ورواقٌ منحدر ورواقٌ صاعد. سيكون هناك جسرٌ إلى ضفاف النيل.

كانت الجيزة محطته الأولى. أراد أن يشعر مقدمًا بالطاقات الأبدية التي يجسّدها هو عندما مات وارتفع على أشعة الشمس ليُولد من جديد. عندما توقف القارب كان الوقتُ ليلا، واستطاع أن يرى من ميمنة ظهرِ المركبِ صورةَ الهرم الظلّية أمام السماء الليلية الزرقاء المرصعة بالنجوم. نزل الرصيفَ المنحدرَ وقابله عدةُ رجالٍ

عرب في ثيابهم. حُمل على جَمَلٍ وأُخذ بهذه الطريقة القديمة إلى الجهة الشمالية حيث مدخل الهرم الأكبر نفسه. على خلاف ما نُصح به اعتزم قضاءَ الليلة في داخل الهرم. كان يأمل أن يتعلّم ما استطاعَ تقسيمَ أوزيريس للروح «الكا» والنشاط الجسدي «البا». تبع مرشديه عبر رواق المدخل. ألقى ضوءُ مصباحٍ يدويٍّ على الحيطان الحجرية والسقف ظلالا كبيرة قافزة. وبعد التفافاتٍ ومنعطفاتٍ كثيرة وصعودٍ عسيرٍ عبر ممرات منحدرة وحالاتٍ عديدةٍ تطلّبت منه أن يزحف على أطرافه الأربعة ليحشر نفسه عبر فتحةٍ ما، وجد نفسه في قلب الهرم. نقد مرشديه نصفَ المبلغ المتّفق عليه لكي يعودوا إليه من أجل الباقي، وبعد أن تمنّوا له ليلةً سعيدةً تركوه فجأة وحيدا في الحجرة المظلمة التي لا ضوء فيها سوى وميضِ نجمةٍ أو نجمتين من خلال مَنْورٍ ضيقٍ في الأعلى.

لم ينم مورغن تلك الليلة. كانت هذه غرفة الملك التي فُرِّغت من أثاثها قبل وقت طويل. من شدة رطوبة الأرضية تغلغلت برودتُها في البطانية الصوفية التي أحضرها ليجلس عليها. كانت معه علبةُ أعوادِ ثقاب ذهبية لكنه رفض مبدئيا أن يُشعل واحدا منها. كما لم يشرب من قارورة البراندي. أصغى إلى الظلام وحدّق في الظلام وتحرّى الإشاراتِ التي سيتفضّل أوزيريس بإعطائه إيّاها أيًّا تكن تلك الإشارات. بعد ساعاتٍ أخذه النعاس. حلم بحياةٍ قديمةٍ يجلس في أسواقها بائعا متجوّلا يتبادل مع المفسِّرين شتائمَ لطيفة. أزعجه هذا الحلم حتى أنه استيقظ. تنبّه لشيءٍ زحف عليه. وثب قائمًا. كل مناطق جسده تحكّه. ارتأى أن يُشعل عود ثقاب. وعلى ضوئه الضئيل رأى بوضوحٍ على بطانيته بقّة الفِراش منكمشة على نفسها.

بعدما انطفأ الثقاب استمّر واقفا. ثم ذرع الحجرة مادّا يده أمامه كي لا يصطدم بجدران الحجارة. مشى من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب، على رغم أنه لم يكن قادرا على تمييز الجهات. قرّر أنه يتعيّن على المرء في مثل هذه الظروف أن يميّز الإشارات الزائفة من الإشارات الحقيقية. رؤيا البائع المتجوّل في السوق كانت إشارة زائفة. بقّة الفِراش كانت إشارة زائفة. الإشارة الحقيقية ستكون المرأى الرائعَ لطيورٍ حمراءَ صغيرةٍ برؤوسِ بشرٍ تطير بكسلٍ في الحجرة مضيئةً إياها بوهجها الخاص. ستكون تلك طيور «البا» التي رآها مصوّرة في رسومات الحائط المصرية. لكن مع مضيّ الليل أخفقت طيور «البا» في التجسّد. أخيرا أدرك عبر المَنور الضيق أن النجوم تلاشت وأن الشكل المعيَّن للسماء الليلية أصبح رماديا. سمح لنفسه أن يشرب من البراندي. تيبّست أطرافه وآلمه ظهره وأصابه البرد.

جاء معاونو مورغن ومرشدوه العرب وسُوعد في العودة إلى العالم الخارجي. فوجئ أن النهار قد تقدّم كثيرا. وُضع على جَمَلِه واقتِيد ببطءٍ بعيدا عن الهرم. كانت السماء زرقاء صافية وكانت الحجارة حول الهرم وردّية. لمّا تجاوز أبا الهول والتفت إلى الوراء رأى رجالا يحتشدون فوق التمثال يغطونه كالهوامّ. كانوا يرقّطون مخالبه ويجلسون في فتحات وجهه ويجثمون على كتفيه ويلوّحون من أعلى غطاء رأسه. جفل مورغن. كان منتهكو قدسيّة التمثال يلبسون بِدَل البيسبول. وقف على الأرض مصوّرون أمام حوامل كاميراتهم ورؤوسهم محشورة تحت قماش أسود. قال مورغن: ما الذي يجري بحق الله؟ توقف مرشدوه وأخذوا ينادون هنا وهناك عربا وجمّالةً آخرين. كانت هناك إثارة عظيمة. عاد معاونٌ لمورغن

بمعلومات تقول إن هذا فريق «عمالقة» نيويورك للبيسبول الذي فاز بالبطولة وكان في جولة استعراضٍ عالمية. قال مورغن: البطولة؟ البطولة؟ أخذ يجري نحوه رجلٌ دميمٌ وقصيرٌ في بنطالٍ مقلّمٍ يصل إلى الركبة وفانيلة مضلّعة. يده ممدودة. كان على رأسه قبعة غريبة وفي فمه عجزُ سيغار. كان حذاؤه يجلجل فوق الحجارة العتيقة. قال معاونُ مورغن: المدرب، السيد ماكغرو، جاء لتحيّتك. من دون كلمة واحدة نكز الرجل العجوز جَنْبَ بعيرِه ففرّ إلى قاربه مُسْقِطا مرشدَه العربي.

بعد هذه المغامرات بقليلٍ عانى بيربونت مورغن انحدارا مفاجئا في صحّته. أمر أن يُعاد إلى إيطاليا. لكنه لم يكن حزينا بعد أن استنتج أن تدهورَه الجسدي كان الإشارة التي ظل يتحيّنها تحديدا. هناك حاجةٌ ملحّةٌ لوجوده مرةً أخرى على الأرض لدرجة أنه أُعفي من طقوس الدفن المعتادة. قابله أفرادُ عائلته في روما. قال لهم: لا تحزنوا. الحرب تعجِّل بالأشياء. لم يعرفوا عن أي شيء كان يتحدث. كانوا إلى جواره وهو في السرير عندما مات في السادسة والسبعين من العمر ميتةً غير مفاجئة.

الآن، لم يمرّ على موت مورغن وقتٌ طويلٌ قبل أن يدخل الأرشيدوق فرانز فرديناند مدينة سراييفو، عاصمة البوسنة، لاستعراض القوات هناك. ترافقه زوجته الكونتيسة صوفي. حمل الأرشيدوق خوذته المريّشة في طيّة ذراعه. فجأة كان هناك صوتٌ عالٍ وكثيرٌ من الدخان والصياح. وجد الأرشيدوق فرانز فرديناند والكونتيسة صوفي نفسيهما مغمورين بالغبار الطبشوري. غطى الغبار وجهيهما داخلا فَمَيْهما وأعينهما وملابسهما. ألقى أحدُهم قنبلة. كان

العمدةُ مذعورا. اشتاط الأرشيدوق غضبا. قال: لقد خرب اليوم، وأمر سائقه بمغادرة سراييفو خاتمًا المراسم. كانوا يستقلّون عربة سياحية من طراز ديملر. قاد السائق العربة عبر الشوارع وانعطف بالخطأ. توقّف وعشّق ناقلَ الحركةِ إلى الخلف واستدار في مقعده ليُرجع العربة إلى الوراء. حدث أن العربة توقفت إلى جانب شابٍّ صربيٍّ قوميٍّ كان واحدا من المجموعة نفسها التي حاولت اغتيال الأرشيدوق بالقنبلة ولكنهم قنطوا من فرصةٍ أخرى. قفز القوميُّ على لوحِ صعودِ العربةِ السياحية وصوّب مسدسه على الأرشيدوق وضغط الزناد. فرقعت الطلقات. ارتمت الكونتيسة صوفي بين ركبتي الأرشيدوق. سال الدم من حلق الأرشيدوق. كانت هناك صيحات. اسودّ الريش الأخضر للخوذة من الدم. أمسك الجنود بالقاتل. تشابكوا معه وطرحوه أرضا. سحبوه إلى السجن.

في نيويورك نقلت الصحف الخبرَ على أنه واحدٌ من أحداث العنف التي اشتهرت بها دول البلقان. قلةٌ من الأمريكان كان يمكن أن يشعروا بتعاطفٍ مع وريث العرش النمساوي الهنغاري. لكن الساحر هاري هوديني إذْ قرأ الصحيفة على الإفطار شعر بصدمةِ موتِ أحد معارفه. تخيّل هذا، قال لنفسه. تخيّل هذا. رأى الأرشيدوقَ المزاجيّ البارد يحدّق فيه من تحت تسريحة شعره المقصوص. بدا له رائعا أن شخصا يجسّد قوة إمبراطورية كاملة وأبّهتها يمكن أن يُقتل بكل سهولة.

صادف أن هوديني كان مجدولًا له أن يؤدّي في هذا اليوم نفسه واحدًا من عروضه الخارجية المثيرة. لذلك لم يكن قادرا على أن يطيل تأمّلَ موتِ الأرشيدوق إلى المدى الذي كان يقدر عليه في ظرفٍ

آخر. غادر منزله واستقلّ سيارة أجرة إلى ميدان «تايمز سكوير» في وسط المدينة. وهناك وُضع بعد ساعة ونصفٍ في سترةٍ يُوصل كماها ببعضهما وأوثق من عند الكاحلين إلى كابلٍ حديديٍّ ورُفع بقدميه إلى منتصف جانب برجِ التايمز، يشاهده عدةُ آلافٍ من المتفرجين. كان يرتفع مع كل استدارةٍ للرافعةِ الموجودةِ على السطح بضعةَ أقدامٍ ويتأرجح في الريح. هتف الجمهور. كان يوما دافئا والسماء زرقاء. كلما ارتفع في السماء ابتعدت أصواتُ الشارع. رأى في الأسفل اسمَه بالمقلوب فوق خيمة «ثياتر بالاس» على بُعد خمسة مربعات سكنية شمالا. ضغطت السيارات أبواقَها وتزاحمت عرباتُ الترام في «تايمز سكوير» حيث توقف سائقوها لمشاهدة الإثارة. أطلق خيّالة الشرطة صفاراتِهم. كان كل شيء بالمقلوب: السيارات والناس والأرصفة وخيّالة الشرطة والمباني. كانت السماء عند قدميه. ارتفع هوديني متجاوزا لوحةَ نتائجِ البيسبول الموصولة بجانب المبنى. تنفس بعمقٍ ووجد السكينةَ في الخطر الذي جعلته سنواتٌ من التهذيبِ الجسديِّ ممكنا. وجّه مساعديه أن يرفعوه تقريبا اثني عشر طابقا فوق الشارع، معلّقا في الهواء ولكن ليس إلى الحد الذي يمنعه من الرؤية بوضوح. كانت خطّته أن يفتكّ نفسه بالقوّة من السترةِ المضيّقةِ مقفلةِ الكميّن ويقذفها بعيدا ويأخذ جسمه إلى الأعلى بشكل مستقيم مثل بهلوانٍ ويلتقط الكابل المربوط بسلسلةٍ حول كاحليه. بعد ذلك يقف مستقيما تستند قدماه على قوس الكُلّاب ويلوّح لجمهوره وهو يهبط. ارتفعت مؤخرا معنويات هوديني وشعر بتحسّن في حاله. كمدُه على أمه، خوفُه من أن يفقد جمهوره، شكوكُه بأن حياته غير مهمّة وإنجازاته مثيرة للضحك- كلُّ ثِقل الهموم اليومية بدا خفيفا

ومحتملا. رَدَّ هذا الشيء إلى شغفه الجديد، كشفِ الدجلِ الروحيِّ حيثما لقيَه. لقد فضّ مدفوعا بشعوره تجاه أمه التقيّة جلساتِ تحضيرِ أرواحٍ وفضح ممارساتِ مستحضري الأرواح الرخيصة وحرّض الاحتقارَ الشعبيَّ للتقنياتِ التي يستخدمها الدجالون في الاحتيال على الأبرياء. كان يعرض في كل أداء يؤديه مئةَ ألف دولار لأي مستحضر أرواح ينفّذ عرضا لا يستطيع هو، هوديني، أن يقلّده مستخدمًا وسائل آليّة. أحبّت الصحافةُ والناسُ هذا العنصر الجديد في عمله لكن ذلك كان عَرَضِيّا. كان كما لو أنه يدافع عن الجنة، بما أن أمّه الآن ميتة. شعر وهو يناضل بأنه سيبدأ قريبا تمييزَ حدودِ المنطقة التي تقطنها أمه. زار مُخبروه الخاصّون صالاتِ السحر في كل مدينة يؤدي فيها عرضا. ذهب بنفسه إلى جلسات تحضير أرواح متخفّيا على هيئة أرملة شيباء متحجّبة. يسلّط ضوء مصباحٍ كهربائيٍّ محمولٍ على السّلكَ الرفيعَ الذي يجعل الطاولة ترتفع في الهواء. يشقّ غطاءً يُخفي جهاز الفكترولا الذي لا يُرى. يقتلع أبواقا من الهواء ويمسك بمؤخرات رقاب الحلفاء المتواطئين المختبئين خلف الستائر. ثم يقف ويرمي بشكلٍ دراميٍّ شعرَه الأشيبَ المستعارَ مُعلنا عن نفسه. رفع دعاوٍ قضائية بالعشرات.

أدرك هوديني أنه ارتفع الآن إلى علوّه المحدّد. النسمة هنا في الأعلى أقوى. شعر بأنه يدور. واجه نوافذ برج التايمز ثم المساحات المفتوحة فوق شارع برودواي والجادة السابعة. مرحبا هوديني، ناداه صوت. أدارت الريح هوديني في اتجاه المبنى. كان رجل يبتسم له، مقلوبا، من نافذة الطابق الثاني عشر. قال الرجل: مرحبا هوديني، أيّها الدّاعر! رد الساحر: أنت الدّاعر أيها المغفل. يمكنه في الواقع أن

يفتكّ نفسه من سترةٍ من ذلك النوع في أقل من دقيقة. لكنه لو فعلها بسرعة فلن يصدقه الناس. ولذا انتظر فترةً أطول. تظاهر بأنه يجاهد بصعوبة. يمكنه سماع الأوه والآه المرتفعة من الشارع في اللحظة التي جعل فيها الكابلُ يهتّز ويلتفّ. سريعا نشب في القيد نصفه العلوي بالكامل بما في ذلك رأسه. لم يكن هناك ضوء داخل القماش الثقيل للسترة المضيّقة. استراح لحظةً. كان مقلوبا فوق برودواي، في عام 1914، والأرشيدوق فرانز فرديناند نُشرت أنباءُ اغتياله. في هذه اللحظة حدث أن شكّلت صورةٌ نفسَها في ذهن هوديني. كانت الصورةُ لصبيٍّ ينظرُ إلى نفسه في المصباح الأمامي النحاسي اللامع لسيارة.

نعرف رواية هذا الحدث الغريب من أوراق الساحر الشخصية غير المنشورة. وظيفةُ هاري هوديني في عالم العروض أودت به إلى المبالغة، ولذا يجب ألّا نتخّلى عن تقديرنا الخاص في النظر إلى ادّعائه التجربةَ الصوفيةَ الوحيدةَ الأصيلةَ في حياته. ومهما يكن فإنّ أرشيف العائلة يوضّح بطاقةَ اتصالٍ من السيد هوديني تاريخُها بعد تلك الحادثة بأسبوع. لم يكن في المنزل مَن يستضيفه. كانت العائلة قد دخلت في هذا الوقت مرحلةَ التفكّك. الأم والصبي والطفل الأسمر، الذي كان قد عُمّد وسمي كولهاوس ووكر الثالث، كانوا متجهين شمالا في سيارة باكارد سياحية تقودها الأم. كانوا في زيارة لمغاراتِ «هاو» وكانت محطّتهم النهائية مضيق «براوتس نِك» على شاطئ ولاية مَين، حيث عاش الفنان وينسلو هومر سنواتِ عمره الأخيرة. كانت الأم والأب في علاقةٍ ذاويةٍ حديثُهما فيها شديدُ التأدب والاختصار، وقد قدم موتُ الخال الأصغر في المكسيك الدافعَ الأخيرَ لانفصالهما الذي يكاد يكون مستمرا. لم يعِش الجدّ إلى انقضاء الشتاء والآن يرقد

في المقبرة خلف الكنيسة التجمّعية الأولى على جادة نورث في نيو روتشيل. كان الأب في واشنطن العاصمة. وجد لدى عودته إلى مصنع الأعلام والألعاب النارية كمبيالاتٍ ملءَ درجٍ كانت سَدادَ دينِه الذي أشار إليه الخال الأصغر بعباراتٍ ملغزةٍ في محادثتهما الأخيرة في مكتبة مورغن. في السنة والنصف التي سبقت هجرتَه اخترع الخالُ الأصغرُ سبعة عشر جهازا حربيا، بعضها كان متقدّما جدا لدرجة أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تستخدمها حتى الحرب العالمية الثانية. من ضمنها قاذفةُ صواريخٍ عديمةُ الارتداد، ولغمٌ بريٌّ منخفضُ الضغط، وقذائفُ أعماقٍ توجَّه عن طريق السونار، ومصوّباتُ بنادق مضاءة تعمل تحت الأشعة الحمراء، ورصاصٌ خطّاط، وبندقيةٌ تكرارية، ورشاشٌ خفيفُ الوزن، وقنبلةُ شظايا، ونيتروغليسرين معجون، وقاذفةُ لهب محمولة. من أجل الترتيب لتبنّي بعض هذه الأسلحة صار الأب يذهب إلى واشنطن وأصبح يعرف ضبّاطا برتبٍ عاليةٍ من الجيش الأمريكي والقوات البحرية. اضطر الأب إلى استئجار شقة في فندق «هاي-آدامز» بسبب إجراءِ اختباراتِ نماذجَ مبدئية ومفاوضاتِ عقودِ مبيعات واجتماعاتٍ في قاعات الكونجرس وترتيبات الضغط المُكْلِفة بما فيها أغدِيَة وأعشِيَة وتسالي في عطلات نهاية الأسبوع. كان جوابُه على تعاسته الشخصية بأن رمى نفسَه بشراهةٍ بالغةٍ في عمله أكثر من أي وقت مضى. ومع مستهلّ الحرب العالمية الأولى في أوروبا كان واحدا من الذي خشيوا عَوَزَ وودرو ويلسن لروح القتال وكان يطالب بصراحةٍ بالتأهّب للحرب قبل أن يصبح هذا الرأيَ الرسميَّ للإدارة الأمريكية. كان هناك اهتمامٌ عظيمٌ أبدتْه حكوماتٌ غير حكومتنا في الأعمال الشرّيرة لعبقرية الخال الأصغر،

وبناءً على نصيحة مستشاري وزارة الخارجية الأمريكية اتّجه الأب إلى الاعتراف ببعض تلك الدول على حساب بعض. فمع الألمان كان فظًا ومع البريطانيين كان ودودا متساهلا في الشروط. كان ينتظر الانحيازَ الأخيرَ لعواطف الأمريكيين مع حلفاء الحرب الذي حدث في الواقع في عام 1917 ولكنه بدا محتوما منذ 1915 عندما نسفت غواصةٌ ألمانيةٌ سفينةَ الركابِ البريطانية «لوسيتينيا» جنوب غرب ساحل إيرلندا. كانت «لوسيتينيا»، المسجلة على أنها سفينةٌ تجاريةٌ مسلحةٌ، تحمل سرًّا قائمةً من العتادِ الحربيِّ على متنها. فَقَدَ ألفٌ ومئتين من الرجال والنساء والأطفال، أغلبهم أمريكان، أرواحهم، ومن ضمنهم الأبُ الذي كان ذاهبا إلى لندن مع أول شحنة لصالح مكتب الحرب البريطاني والبحرية من القنابل اليدوية وقذائف الأعماق والنيترو المعجون، ساهمت من دون شكٍّ في الانفجار الرهيب الذي سبق غرقَ السفينةِ المفاجئ.

يا للأب المسكين، أرى رحلتَه الاستكشافية الأخيرة. يصل إلى المكان الجديد، شعرُه واقفٌ من الدهشة، فمه فاغرٌ وعيناه صامتتان. يجرّ إصبع قدمه عاصفةً ناعمةً من الرمل، يجثو وتنتشر ذراعاه في احتفال مسرحي، يصل المهاجر، كما في كلِّ لحظةٍ من حياته، إلى شاطئ ذاتِه أبدَ الدهر.

ارتدت الأم الأسودَ سنةً كاملةً. في نهاية هذا الوقتِ تقدم تاته للزواج منها بعد أن تأكد من أن زوجته ماتت. قال: أنا لستُ بارونا بالطبع. أنا اشتراكيٌّ يهوديٌّ من لاتفيا. قَبِلت به الأم من دون تردد. عشقته، أحبّت أن تكون معه. استمتع كلٌّ منهما بسِماتِ الآخرِ الشخصية. تزوّجا في احتفالٍ مدنيٍّ في محكمة في مدينة نيويورك. شعرا

بالسعادة. كان اتحادُهما مبهجا على رغم أنه لم يَسْلَمْ من المنغّصات. كسب تاته كثيرا من المال من إنتاج مسلسلات التأهّب الحربي: «وادي الخدمة السرية» و«ظِلال الغوّاصة U-Boat». لكن نجاحه الأهمّ لم يأتِ بعد. وجدت العائلة مَن يستأجر منزل نيو روتشيل وانتقلت إلى كاليفورنيا. عاشت في منزلٍ فسيحٍ مبنيّ من الجصّ الأبيض بنوافذَ مقوّسة وسطحٍ من القرميد البرتقالي. كان على امتداد رصيفه نخلٌ وفي باحتِه الأمامية أحواض من الورود الحمراء القانية. ذات صباحٍ نظر تاته من نافذة مكتبه ورأى ثلاثة الأطفال يجلسون على المرج. خلفهم على الرصيف كانت دراجة ثلاثية العجلات. كانوا يتحدثون ويتشمّسون. ابنتُه بشعرها الداكن، وابنُ زوجته الأشقر، ومَعُوله القانونيّ الطفلُ الأسود. جاءته فكرةٌ مفاجئةٌ لفيلم. ثلةٌ من الأصدقاء الأطفال، أبيض وأسود، بدين ونحيف، غني وفقير، من كلّ الأنواع، أولادٌ وبناتٌ مشاكسون في مغامرات مضحكة في حيّهم، مجتمعٌ من الأطفال الصعاليك، مثلنا كلّنا، عصابة، يقعون في مشاكل ويخرجون منها. ليس فيلما واحدا في الواقع ولكن عدة أفلام خرجت من هذه الرؤية. في ذلك الوقت كان زمنُ الراغتايم قد ولّى، ومعه نَفَسُ الآلةِ الثقيلِ، كما لو أن التاريخَ لم يكن أكثرَ من نغمةٍ على آلة بيانو. قاتلْنا في الحرب وكسبنا. رُحّلت الأناركية إيما غولدمن. فقدت الجميلة والعاطفية إيفلن نسبت مظهرَها ولفّ مصيرَها الغموض. أما هاري كيه ثاو فصار بعد أن أُطلق سراحه من مستشفى الأمراض العقلية يمشي سنويا في مسيرة يوم الهُدنة في نيوبورت.

• المؤلف •

إي إل دوكترو (1931-2015) روائي أمريكي، ومحرّر وأستاذ جامعي، امتهن كتابة الروايات التاريخيّة. ألّف اثنتي عشرة رواية من أشهرها (Ragtime) و(The Book of Daniel) و(Billy Bathgate) و(Hard Times). تلقّى تشريفات كثيرة أهمّها جائزة National Book Award و Library of Congress Prize، وحصل ثلاث مرّات على جائزة National Book Critics Circle awards ومرّتان على PEN/Faulkner awards، وقُلّد الميدالية الرئاسيّة National Humanities Medal وميدالية The American Academy of Arts and Letters. يُعتبر من ألمع الروائيين الأمريكيين في القرن العشرين.

• المترجم •

علي المجنوني كاتب ومترجم من السعودية. يعمل محاضرا للأدب الإنغليزي في جامعة الطائف. يحضّر درجة الدكتوراة في الأدب المقارن والدراسات الثقافية ودراسات الترجمة في الولايات المتحدة الأمريكية. ألّف مجموعتا قصص قصيرة «طاولة الحزن» و«لقمة وأموت» ورواية للأطفال «إجازة الشمس». ترجم روايتان «زنج» لنيلا لارسن، و«أنشودة المقهى الحزين» لكارسن مكالرز.

علي المجنوني كاتب ومترجم من السعودية. يعمل محاضرا للأدب الإنكليزي في جامعة الطائف. يحضّر درجة الدكتوراة في الأدب المقارن والدراسات الثقافية ودراسات الترجمة في الولايات المتحدة الأمريكية. ألّف مجموعتا قصص قصيرة «طاولة الحزن» و«لقمة وأموت» ورواية للإطفال «إجازة الشمس». ترجم روايتان «زنج» لنيلا لارسن، و«أنشودة المقهى الحزين» لكارسن مكالرز.

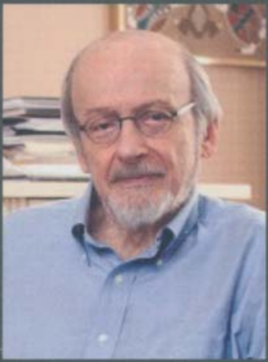

إي إل دوكتُرو (1931-2015) روائي أمريكي، ومحرّر وأستاذ جامعي، امتهن كتابة الروايات التاريخيّة. ألّف اثنتي عشرة رواية من أشهرها «Ragtime» و«The Book of Daniel» و«Billy Bathgate» و«Hard Times». تلقّى تشريفات كثيرة أهمّها جائزة National Book Award و Library of Congress Prize، وحصل ثلاث مرّات على جائزة National Book Critics Circle awards ومرّتان على PEN/Faulkner awards، وقلّد الميدالية الرئاسيّة National Humanities Medal وميدالية The American Academy of Arts and Letters. يُعتبر من ألمع الروائيين الأمريكيين في القرن العشرين.

راكتايم

فور نشرها عام 1975، ساهمت راكتايم في تغيير الفهم الذي على أساسه تُكتب الروايات وما الذي يمكن أن تكشف عنه. نسيج سرديّ متماسك فيه من التجريب قدرَ ما فيه من الأصالة. لقد قدّمت الرواية صورةً عن الروح الأمريكية في فترة الدخول إلى القرن العشرين والحرب العالمية الأولى.

تنفتح الرواية عام 1906 في نيويورك، في منزل أسرة أمريكية موسِرَة. خلال ظهيرة يوم أحد كسول، يطرق بابها فنّان الافتكاك الشّهير هوديني على إثر تعطّل سيارته على الشارع قبالة منزلها. وهكذا يبدأ دوكترُو تقديم أوّل حبل ضفَره بخيوط واقعية وخيالية، ما حدث وما لم يحدث. يدفع بشخصيات واقعية في حياة هذه الأسرة المتخيّلة كاشفًا عن الصّراعات التي توجّه حيوات الناس في ذاك الزمن: يأتي بفرويد، وإلهة الجمال إيفلين، وقائد الثورة المكسيكيّة زاباتا، وغيرهم، راسمًا لشخصياته المتخيلة دروبًا تنفتح بسببهم، وأخرى تنغلق.

اختارتها مؤسسة Modern Library من بين أفضل 100 رواية على مرّ العصور

حاصلة على جائزة National Book Critics Circle عام 1975

«عُرف دوكترُو أنه أوّلًا وقبل كل شيء، سيّد في أساليب السّرد»

George Saunders

«يُرهف حسّه للتاريخ وكيف يمسّ حيوات الناس العاديّة»

Don DeLillo

Alvin Langdon Coburn, The Singer Building, Twilight 1910 © [2018]
Museum Associates / LACMA. Licensed by Art Resource, NY

ISBN 978-9948-24-169-0
9 789948 241690

روايات
REWAYAT